

A. U. C. LIBRARY

فَلْتَقِ أَقْبَاكَ

وَالْمَلَائِكَةُ وَالْهَدْيُ وَالْكَافَّةُ

تأليف

الضاد بن جلال

مؤلف

محمد بن جلال

مؤلف

مجموع المطبوع محفوظ

[١٩٠٠ - ١٩٣٥]

مكتبة

مكتبة

181.07

I649yaA

C.2

فَلَسِيفَةُ إِقْبَالٍ

والثقافة الإسلامية في الهند والباكستان

تأليف

الصباوي علي شعلان

دكتور في اللغات الشرقية
من جامعة فواز الأول

محمد حسن الأخطي

مديونية اللغة العربية بكلية
وسكرتير مؤتمر العالم الإسلامي الدائم

[جميع الحقوق محفوظة]

[١٩٥٠ — ١٣٦٩]

دار الحياة للنشر والتوزيع

ميسى الباي ايجلبي وبشركه

cat. 230cat: 53



العلامة محمد إقبال
شاعر الباكستان وفيلسوف الإسلام

مناجاة روح

للمُستاذ الكبير أمين الخولي

رئيس القسم العربي بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تكون نجوى روح لروح ، وهمس قلب لقلب ، وفهم نفس لنفس ، إذا
ما شمل النفسين شعور ، وغمر القلبين نور ، وجمع الروحين هدف ، واتحد مثل .
وبذاك يتحدث الإفريق الدار ، العربي اللسان ، عن « إقبال » الأسيوى
الموطن ، الأوردى اللغة ، ولو لم يهتف « إقبال » بالعربية ، أو يتحرك لسانى
بالفارسية أو الأوردية .. إذ تناجى بالإسلام الروحان ، وتهامس بالإيمان القلبان
وتآلف على الحق النفسان .. وتمت كلمة ربك .. لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً
ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم .

تبارك الله .. هذا الإسلام حيوية زاخرة ، فى روحانية باهرة .. وإنسانية
سامية ، فى واقعية عاملة .. دنيوية كأنك تعيش أبداً ، وأخروية كأنك تموت
غدا ... بذلك يخلد الإسلام ، وكذلك يفهم الإسلام .. ومن أجل ذلك تشترك
فى هذا الفهم قوى الإنسان جميعاً ، وتتعاون ملكاته كافة ، وتشكامل مواهبه
عامة ؛ فإذا كل أولئك النشاط الإنسانى قائم فى خدمة الإسلام ، ملحوظ

بمنايته مشارك في حمايته ، مؤيد برعايته : فالعلم قوته ، والفن آيته ، والفلسفة حجته ، والحياة صنيعته .. وهو بذلك حيّ ، قوي ، متجدد ، باق على الدهر ، ناهض بالبشر إلى ما تستطيع قواهم أن تناله من مثالية وسمو .. يهض ويهض إذا ما ائتلف ، وفيه ذلك الزاج الإنساني المتكامل ، من النشاط العقلي ، والوجداني ، والعملی ، فقام كل واحد منها بنصيبه ، وأسهم بحظه ، ووفق لوجهته ، وأحكم خطته ، فإذاك ترى الحياة الإسلامية الصالحة المصلحة تعهدا ... فإن اضطرب الاتزان واختل ميزان تلك الصنوف من النشاط ، فأنحرف واحد منها عن قبلته ، أو طغى فرع منها على إخوته ، فالحياة الإسلامية واقفة متخلفة ، لا صالحة لعهدا ولا مصلحة ... لم يتخلف ذلك الارتباط أبدا لا في ماض بعيد ، ولا في أمس قريب ، ولا في حاضر شاهد .

* * *

جاء الإسلام أمته ، وهي تتأهب لدورها الخطير في التاريخ ، قد هزتها نهضة فنية قولية .. والنهضة الفنية طليعة النهضات ورائدتها دأما في حياة الأمم .. وكذلك اعتمد الإسلام على هاتيك النهضة الفنية ، فكانت آيته على دعوته ، لونا من الفن القولي باهراً ، سمته العرب حين بهرها سحراً .. وكذلك كان الفن آية الإسلام الخالدة الكبرى .. ثم تقدم يستعين بالفنون ، فاستنصر بالشعر ، ووعظ بالخطابة ، وقاتل بالموسيقى ، ورفع عمائر المعابد والمعاهد .. وفي كل ذلك كان الفن في الحياة ، ومن الحياة وللحياة - فعرف الإسلام له مكانه ، وقدر

منزله ، وكان الفن الحق تساميا نفسيا ، يسامت الدين الحق ، وليس هو إلا تساميا روحيا .

ولما أض الفن بعد ذلك ترفاً ، وملهاة ، وخلاعة ومشغلة ، ليس من الحياة بما هي نماء مطرد وتجدد مستمر ؛ ولا في الحياة بما هي حفظ للذات وحفظ للجنس ؛ ولا للحياة بما هي تطور وتقدم ... وإذ ذاك كان الفن الذي ليس من الفطرة آفة الإسلام وحياته .

أتمت العرب سائر نهضاتها ، بعد النهضة الفنية ، فهضت النهضة الدينية الخلقية الاجتماعية ، ثم النهضة السياسية الحيوية ، حتى صارت إلى النهضة العلمية ، ففتح الإسلام للعلم صدره وبسط يده وكانت الفلسفة إذ ذاك مجمع المعقول من العلوم نظريها وعمليها .. فاستنصر «الكلام» بالمنطق .. وواءم الدين بين أصوله وأصول الفلسفة الإلهية ، وما يملك من وسائل معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه .. ودفع أهله إلى الرياضيات ، والطبيعيات ، والإنسانيات يلتمسون منها ما عرفت الدنيا حو لهم من قبلهم ، ويزيدون ذلك تفكيراً وتديراً وتطبيقاً .. فكانت للإسلام في حيويته فلسفته ، وتقدمت بذلك حياته وحياته أهله ، ما عاشت الفلسفة وعلمها نشاطاً عقلياً ، وطموحاً فكرياً ، وجهاداً علمياً .

فلما أض ذلك جموداً مقلداً ، وترديداً لفظياً ، وتعقيداً قولياً ، بل طلاس من العبارات وشكوكاً تدوّن ، وشبهات تردد ، لا يعاتبها فكر متحرر ، ولا تثيرها حرية مفكّرة .

إذ ذاك فسد ما بين الفلسفة والإسلام...

وتسير الحياة الإسلامية سيرها ، ففتصل الروح الإسلامية بالصوفية العالمية وتنسم أنسامها النشوى ، فيفسح الإسلام آفاقها ، ويرفع الحجب عن سدرتها ، ويصفي أنفس أهلها بأرق ما يسعها من صفاء ، فتخطر على مسرح الحياة الإسلامية صفوفة من الأرواح المستشفة والنفوس المحسة ، والوجدانات المرهفة ، شعرت ، ووجدت ، وهامت ، وتقاتت ، فاعتزت بدينها وتوجت هامها الشعث بتاج عزته ، وأسبغت على أجسامها النحيلة رداء جلاله ، وقبضت بأ كفها المعروقة على صولجان عزته ، فكانت مدلة بفقرها المذل ، نخورة بتجردها المقل ، غنية بزهدها المحروم ، ترهب الملوك ، وتبكي السلاطين ، وتؤدب الأمراء ، فكان تصوفا مجاهدا ، مرابطا ، مصلحا مهذبًا ، مترفعا ، يمشى على الأرض ، وقد أسجدت له الأفلاك في السماء .. كان تصوفا في الحياة ، ومع الحياة ... ثم دار الزمن دورته ، فإذا التصوف مخرقة ، وشعوذة ، وتحلل واستباحة ، وإذا جهاده في الحياة هو أكل البهائم ، ورقص الذبائح !
هناك أنكره الإسلام إنكارا ، وأقصاء إقصاء .

تباركت يارب . وهذا الإسلام في ماضيه البعيد ، وأمسه القريب ، وحاضره الشاهد : حيوية زاخرة في روحانية باهرة ؛ وإنسانية سامية ، في واقعية عاملة ، دنيوية كأن ستعيش أبدا ، وأخروية كأن ستموت غدا .. يخدم كل نشاط

إنساني ، من علم ، وفن ، وتدين ، وتصوف ، وتفلسف ؛ مادام ذلك كله متمكناً على الفطرة ، مستمداً من نواميس الحياة ، فإذا ما ضل ذلكم النشاط سواء السبيل . أسمعفت الاسلام حيويته الخالدة ، المقاومة المحتملة ، فتربص ينتظر ، حتى تدور الحياة دورتها ، وتثوب إلى صوابها ، فإذا هو راسخ العرق ، وطيد الأساس .. كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

هذا هو الإسلام ، وقد مرت به حقبة ، لم يكن التدين فيها تدين حياة ، ولم يكن الفن فيها فن حياة ، ولم يكن العلم فيها علم حياة ، ولم يكن التصوف فيها تصوف حياة .. وقد خرج الإسلام من تلك الحقب صامداً ، يرقب دورة الوجود ، في حيويته الزاخرة ، وإنسانيته السامية ، وروحانيته الباهرة ، وواقعيته العاملة ، ودينية كأنك تعيش أبداً ، وأخروية كأنك تموت غداً . هذا هو الإسلام اليوم يبتغى من أهله تدينا في الحياة ، وعلمنا بالحياة ، وفنا من الحياة ، وفلسفة للحياة ، وتصوفا مع الحياة .

هذا هو الإسلام اليوم ، وهذه طبيعته ، وقد أبلس الأعداء ، وأفلس المتجرون وخارت قوى الجنود المرتزقة ، فما يحسنون بيانا ، ولا يحIRON جوابا ، ولا يقوون على دفاع .. بل لا يدعون حيوية الإسلام الزخورة تحفظ نفسها ، وتجادل عن نفسها ، وتدفع قومها إلى الأمام دائما .. وإنما يضعون ببعدهم عن الحياة ، وجهلهم بالحياة ، وسوء منزلتهم في الحياة ، يضعون عقبات وعقبات في

سبيل هذه الحيوية الإسلامية ، ولو قد كان الإسلام حكرا على هيئة ، ووقفا على طائفة ، وحقا لجماعة ، لوقع اليأس من أن يستطيع هذا الإسلام أن يجد مكانا في الحياة اليوم أو غدا !!

لكن .. لا - إن هذه الحيوية الزاخرة ، والروحانية الباهرة لأقوى وأبقى وأصلح للحياة من أن تحتكم فيها هيئة ، إذ تحتكرها منه ، أو تنفرد بالقول فيها جماعة ، أو تستأثر بالدفاع عنها وتختص بالذود عن حماها طائفة من جند ذوى شارة معينة ، وسمت خاص - كلا ، بل إن هذه الحيوية لروح تحيا بها العقول القوية كلها ، والقلوب الكبيرة جميعها ، وينفر للدفاع عنها كل فدائي حر ، وكل مؤمن موقن وكذلك تنصره ألوان وألوان ، وتدعو له لغات ولغات ، وتفهمه أمم وأمم ، وتحيا به أنفس وأنفس ، ويملك القول فيه علماء وحكماء ، وفلاسفة ومتصوفون ومتفنون ، ماسحات فطرتهم ، وسمت عقولهم وأدركوا سنن الوجود ، ونواميس الكون ، وقوانين الحياة ..

هذا هو الإسلام يقيض الله له كل حين من أهله ، ولو لم يتسموا بسمة اللاهوت ، ويتزوا بزى خاص ، من يكون له لسان صدق ، وداعية حق ، يهيمه الله بين تلك الحيوية الزاخرة في الإسلام نفحة ، ومن تلك الروحانية الباهرة لمحة ، ومن تلك الإنسانية السامية نفثة ، فيتقدم حاملا القبس الإلهي ، والشعلة السماوية ، في صورة حكيم رشيد ، أو عالم مجتهد أو متصوف مترفع . أو فنان حساس ، أو متدين مستنير ، أو بطرف من ذلك كله يأتلف في شخصية نبيلة . تتقدم لتضيء للإنسانية طريقها ، إلى غد أسعد ، ومستقبل أجدد .. وقد

وهب الإسلام كل حين هبات من هؤلاء ، دفعوا حياتهم قدما ، أو جموها من تقهقر ، وأمسكوا عليها ذمءا ، اتصلت به الحياة ، وحفظت الأمانة وبلغت الرسالة .

ومن تلك الإنسانيات الإسلامية التي سعد بها الإسلام في العصر الحديث :

« إقبال »

الذي كان متدينا في الحياة ، ومفلسا للحياة ، ومتفطنا من الحياة ، ومتصوفا مع الحياة ، ولا أزيد على هذا شيئا في وصفه ، من قول أحد أو بيان أحد ؛ كما لا أحاول في هذا المقام أن أصف تدين إقبال ، أو حكمة إقبال أو فن إقبال ، أو تصوف إقبال ، لأن ذلك لا يدرك إلا بوجدان موات ، وروح تتلقى عن روح إقبال ، فإن كان في هذا الكتاب الذي في يدك ما ينعش وجدانك ، ويسمو بروحك من آثار إقبال فربما ، وأتمس من ذلك المزيد ، ولا تفهم « إقبال » بقول أحد أو عقل أحد ، لأن « إقبال » نفحة حياة تتلقاها الأرواح أنفاسا وأنغاما وأحاسيس ، لا كلما ولا جملا ولا قضايا .. ولو أبت الظروف إلا أن أقول شيئا عما وجدت من روح « إقبال » لما زدت على ترديد أنغام من كلامه .

فإقبال المتدين في الحياة يفهم الإسلام الحيوى فإذا هذا الإسلام : حقيقة عالمية .. وطابع الشرق ووحدة بلا تعصب .

وإقبال المتصوف مع الحياة ، يدرك معنى فقر الصالحين . فإذا هذا الفقر :

تيسير الجهود ، .. وتسخير الوجود .. وسراج لوظهر يخجل الشمس ، ويزرى بالقمر .

وإقبال المتفنن من الحياة ، يتذوق الخلود ، ويتذوق الحياة ، ويحدث عن ذوق الخلود ، وذوق الحياة حديث الآخرين عن ذوق ما يطعمون ويشربون .. وهو روح واجدة ، في صدره جوهر من القلب نادر ... الشعر عنده حق قبس من القلب نارا .

وإقبال الذى كان كل أولئك فى الحياة حقيق بأن يقول :

« الحياة الجهاد والجد والوثة بة والعزم ماضيا والبكور »

ذلكم إقبال الذى هو فى الحق نفحة من حيوية الإسلام الزاهرة ، ولحمة من إنسانيته الباهرة ، وسنا من روحانيته السامية فى واقعيته العاملة .

والسيد محمد حسن الأعظمى صاحب الجد الحيوى ، فى خدمة الأخوة الإسلامية فى مصر والهند ، وصاحب النشاط المشكور فى نشر العربية فى الباكستان ، والعامل على أن تكون لغة القرآن الكريم لغة ثقافية للمسلمين من كل أمة والمناضل فى سبيل التواصل والتعاون الإسلامى بتأصيل نظام مؤتمر العالم الإسلامى الدائم ، قد تقدم ففتح للعربية وأهلها آفاق تلك الروح الكبرى ، وكان الأستاذ الصاوى على محمد شعلان بأدبه وفنه وإسلامه خير عون على تحقيق هذا الفتح الروحى فأخرج فن إقبال ، وتصوف إقبال ، وتدين إقبال وحكمة إقبال بروح تجاوزت مع روح

إقبال كما يجد القارئ حيوية المعاني ، وبراعة الأداء ، وقوة النفس التي تشعر كل
 ذي حس أدبي بما يجد من الفن ، وإن لم يسعف القول على تبينه ؛ سيجد
 القارئ فرق ما بين معان في روح إقبال تناولتها أقلام واحتوتها أوزان ، ليس
 لهاروح إقبال فبدا الفرق رهيباً مخوفاً وليت الزميلين الكريمين يكونان قوة دائمة
 دائبة تنفخ العربية تلك الأنسام المنعشة ، وتحلق بها إلى تلك الآفاق العليا ،
 فيقدمان للإسلام فناً من الحياة ، هو أحوج ما يكون إليه اليوم لياخذ مكانه
 في الحياة .

أمين الخولي

- ١٢٦ . نشيد الإسلام .
 ١٢٧ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٢٨ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٢٩ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٠ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣١ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٢ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٣ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٤ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٥ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٦ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٧ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٨ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٣٩ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٠ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤١ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٢ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٣ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٤ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٥ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٦ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٧ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٨ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٤٩ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٠ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥١ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٢ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٣ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٤ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٥ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٦ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٧ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٨ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٥٩ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٠ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦١ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٢ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٣ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٤ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٥ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٦ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٧ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٨ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٦٩ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٠ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧١ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٢ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٣ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٤ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٥ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٦ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٧ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٨ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٧٩ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٠ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨١ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٢ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٣ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٤ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٥ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٦ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٧ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٨ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٨٩ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٠ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩١ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٢ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٣ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٤ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٥ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٦ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٧ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٨ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ١٩٩ . نشيد الأخوة الإسلامية .
 ٢٠٠ . نشيد الأخوة الإسلامية .

فهرس

الكتاب الأول

في فلسفة إقبال

- ٣ إقبال شاعر الباكستان .
- ١٨ مات الرجل العظيم محمد إقبال .
- ٢٢ ✓ الخطبة التي ألقاها إقبال في حفلة الرابطة الإسلامية .
- ٢٩ ✓ اتحاد الهند القومية .
- ٣٢ ✓ « هند إسلامية » باكستان .
- ٣٥ ✓ دستور الهند .
- ٣٨ ✓ اختلاف المسلمين دمار لأمتهم .
- ٤١ إقبال والبر بالفقراء .
- ٤٥ ✓ البر بالفقراء والرابطة الإسلامية .
- ٤٦ العشق والجمال .
- ٥٠ خلود الحياة في فلسفة إقبال .
- ٧٩ مقدمة شكوى وجواب شكوى .
- ٨٥ شكوى .

٩٣	مقدمة جواب شكوى .
١٠١	جواب شكوى .
١١٠	فاطمة الزهراء .
١١٢	صوت إقبال إلى الأمة العربية .
١١٥	فقر الصالحين .
١١٧	تصوير الألم وتجديد الأمل .
١٢١	عزيمة المسلم .
١٢٢	النشيد الإسلامي .
١٢٤	نشيد الأخوة الإسلامية .
	الكتاب الثاني

في المتفرقات

١٢٩	أمثلة من شعر إقبال .
١٣٩	في حفلة الذكري .
١٤٥	شعر إقبال .
١٥٣	محمد إقبال شاعر الإسلام .
١٥٥	اللغة الأردنية .
١٥٧	المقارنة بين الأشعار العربية والأردنية .
١٦٣	قصيدة لسفير الحجاز في الباكستان .
١٦٤	قصيدة لمعالى الشريفي باشا .

٢٦٨	الكتاب الثالث	
١٠٧	في الثقافة الإسلامية في الهند والباكستان	
١١١	أحسن السير لشبلى نعمانى .	١٦٧
١١١	عائشة أم المؤمنين لسلیمان الفدوى .	١٧٢
١١١	حكمة التكرار في آيات القرآن الكريم .	١٨٢
١١١	مقام المرأة في الإسلام .	١٩٤
١٦١	لمحات مترجمة .	٢٢٠
٢٦١	مبادئ .	٢٢٠
٣٦١	الأخوة .	٢٢٠
	المؤاخاة في الإسلام .	٢٢٢
٦٦١	بالبقا معتمده قلندرا .	
٦٦١	بالبقا معتمده قلندرا .	
٥٥١	بالبقا معتمده قلندرا .	
٦٥١	بالبقا معتمده قلندرا .	
٥٥١	بالبقا معتمده قلندرا .	
٧٥١	بالبقا معتمده قلندرا .	
٦٦١	بالبقا معتمده قلندرا .	
٣٦١	بالبقا معتمده قلندرا .	

اقبال شاعر باكستان

الكتاب الأول

في فلسفة اقبال

إقبال شاعر الباكستان

كان مولد الدكتور السير محمد إقبال سنة ١٨٧٦ من أسرة برهمية الأصل اعتنقت الإسلام منذ ثلاثة قرون وهاجرت من كشمير أمام الحوادث إلى البنجاب حيث استقرت بها آمنة مطمئنة ، وبدأ مراحل تعليمه فبدأت عليه مخايل النبوغ ودلائل الذكاء فكان يتفوق على لداته ويسبق أقرانه ويفوز بالجوائز العلمية من السكينة بلاهور حيث تلقى بها الفلسفة على السير توماس آرنولد الذي كان دائماً الإعجاب والافتخار بتلميذه إقبال ولما أكمل دراسته وقع عليه الاختيار لتدريس الفلسفة بالسكينة نفسها .

أما الشعر فقد أنشد إقبال بواكيره الأولى في سن مبكرة وكان لسان تعبيره وريشة تصويره والمنبر الذي أعلن من فوقه رسالته الأدبية والمذيع الذي أرسل منه حكمته الإسلامية . والشعر كما يحدثنا عنه الشاعر صفي اللكنوى هو إبراز مكنونات العواطف القلبية فإن القلب إذا لم يكن عامراً بهذه العواطف كان الشعر المنظوم عديم الجدوى فالإنسان لم يفضل الحيوان بالعقل الذي هو مصدر المعرفة بل بالوجدان الذي هو مبعث الشعور والإيمان فإن الجذبات والمشاعر والعواطف هي النقطة الرئيسية الفاصلة الحاسمة في ميزان الإنسان وعندما تتمثل هذه المشاعر والعواطف

ألفاظا تكون هي الشعر ، ولما انفرد به إقبال من المشاعر والأحاسيس الفياضة في نظمه ارتجى منه الأدباء شاعراً كبيراً .

وفي سنة ١٩٠٥ سافر إلى كمبردج ثم إلى ميونخ ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة وقد استغل زمن إقامته بأوربا فأدى ما رآه لزماً عليه نحو دينه ودافع عنه وجاهد في سبيله مظهراً مزايا الإسلام مفنداً أراجيف خصومه وألقى عن الإسلام عدة محاضرات في إنجلترا ثم عاد إلى الهند سنة ١٩٠٨ فأحسن القوم استقباله وقد توسموا فيه أخيراً لأمتهم ودينهم ومن ثم جرد قلمه ووقف بيانه وتفكيره وشعوره لإعلاء منار الإسلام ولقد سأل العالم الجليل السيد سليمان الندوى تلميذ العلامة شبلي نعماني يوماً أثناء زيارة إقبال لكابل بدعوة من جلالة نادر شاه ملك الأفغان عن سر بلاغته التي اكتشف بها أسرار الدين ومعالم الحق ووصل بها إلى أساليب من التعبير قل أن يصل إليها أهل الفقه والعلم وغيرهم من القائلين على أمر الهداية والتوجيه فقال إقبال « يرجع الفضل في كل ما أنشأته من شعر أو نثر إلى توجيهات أبي رحمه الله فقد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح وكان يراني والدي فيسألني ماذا أصنع فأجيبه بأنني أقرأ القرآن وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي وفي ذات صباح قلت له بعد إجابتي ولكن لماذا تسألني عن شيء أنت بجوابه عليم فقال « إنما أردت أن أقول لك ، أقرأ القرآن كأنه نزل عليك » ومنذ ذلك اليوم بدأت أفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت .

هذا ولما عاد إقبال من أوروبا إلى لاهور امتنن المحاماة وقدم العون لبني ملته في الكثير من شؤونهم العامة فازداد مكانة في النفوس وتمكيناً في السياسة والأدب حتى تخطى صيته ربوع الهند . ثم وإلى بعد ذلك رحلاته إلى مختلف بلدان المشرق والمغرب مما سبب له عناية شديدة فيما بعد .

كان إقبال ينشد الشعر بالأردية والفارسية وكانت الصحف تنشر له كثيراً مما ينشده في المجمع والمحافل وقد جمع إقبال من أشعاره ديواناً أسماه «بانك درا» (صلصلة الجرس) وقد نشر غير هذا الديوان عدة كتب منها أسرار خودى ورموز بى خودى (أسرار الذاتية ورموز الذاتية) وكذلك بياض مشرق وزبور عجم وجاويد نامه وجميعها باللغة الفارسية وبال جبريل وضرب كلم وديوان بانك درا باللغة الأردية وقد وافته منيته وهو ينظم كتابه (أرمغان حجاز) ونصفه بالفارسية والنصف الآخر بالأردية وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاته .

وقد ضمن منظوماته مفاحى كثيرة من فلسفته وتفكيره وعواطفه تناول فيها العالم والإسلام والأخلاق محاولاً إيقاظ الشعور وإشعال الحماسة في قلوب المسلمين خاصة والشرقيين عامة وفي ذلك يقول أحد زعماء الهنادك « إن إقبالا قد وضع المصباح على باب المسلم ولم يحجب نوره عن غير المسلمين بل أمكن للجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح . ولقد عدّه أحد سفراء الفرس من أصحاب الرسائل العالمية الإنسانية .

ولقد كتب منظومته جاويد نامه على صورة رحلة قابل فيها ملوك الشرق

ومفكرى المسلمين وقد أطلق عليها اسم أصغر أنجالة وكان يهدف بذلك إلى بناء جيل جديد . وقد أودع هذا الكتاب وكتاب پیام مشرق أيضاً حقيقة آرائه ومذاهبه في الحياة ومناحي خياله وفنه في الأدب وكان پیام مشرق هذا جواباً وردّاً على ديوان الشاعر الألماني جوته وقد كتب عنوانه «ولله المشرق والمغرب» وقسمه إلى أربعة أبواب :

القسم الأول : شقائق الطور (لاله طور) وهو ١٦٣ رباعية .

القسم الثاني : أفكار وهو حوار بين آدم وإبليس أوضح فيه الكثير عن تسخير الفطرة وفصل الربيع والحياة الخالدة إلى غير ذلك من المحاورات الفنية .

القسم الثالث : (انظر الباقية) [مى باقى] وهو عبارة عن قطع متشابهات تحوى نزعة التصوف ممزوجة بفلسفة الحياة .

القسم الرابع : (نقش فرنك) أوضح فيه شيئاً عن كبار فلاسفة الأوروبيين وشعرائهم ورايه في كل منهم .

أما منظوماته أسرار خودى ورموز بى خودى فهما تبحثان في أسرار الذاتية ورموزها أو بعبارة أخرى أسرار الأنانية ورموز الإيثار ، شرح فيهما آراءه جاعلاً للبحث فيها خطة واضحة فبين قوة الذاتية وضرورتها في الحياة ودعا إليها ثم أوضح كيف تلتئم الفردية القوية الكاملة في الجماعة وكيف تقوى الجماعة أو تضعف وكيف تصلح أو تفسد وقد شرح بعد مقدمتيهما موضوعات تتعلق

بأصل النظام وتسلسل الحياة بأطوارها في أعيان الوجود وتخليق المقاصد وتوليدها وكيف أن الذاتية تستحكم من العشق والمحبة وكيف يضعفها السؤال وأنها تستطيع إذا استحكمت أن تسخر لنفسها قوى العالم الظاهرة والخفية كما بين أيضا مراحل تربية الذاتية وحصرها في ثلاث : الطاعة وضبط النفس والخلافة الإلهية . ثم تكلم عن كيفية ظهور الأمة من اختلاط الأفراد وأن كمال التربية لابد أن يستمد من البهوة وأوضح أن ركن الأمة الإسلامية الأول هو التوحيد وأن الحزن والخوف واليأس أمهات الشرور ، والتوحيد وحده هو الذي يزيل هذه الأمراض من المجتمع .

ثم ذكر أن الركن الثاني للأمة الإسلامية هو رسالتها ومقاصدها من تأسيس الحرية وإيجاد المساواة والأخوة بين بني آدم ثم يذهب بعد ذلك إلى القول بأن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليس لها حدود مكانية أو نهاية زمانية وأن الإسلام نفسه وطن للمسلمين قبل أوطانهم وقد وافقت فكرة إقبال هذه ذوق مسلمي الهند فعملوا على تحقيقها ونهضوا إلى استكمالها .

وقد كان لإقبال من الآراء والفكر والتصورات العليا والأخيلة السامية ما يستعصى على الحصر وكل من درس شعره يلمس بعد نظره وصدق فراسته ويرى أنه تناول في فلسفته أحوال العالم كله وضمها قواعد وآراء حول القوة وهل هي قوة الفرد أو قوة الجماعة أو قوة الأخلاق أو أنها الاستقلال الذي يتحلل من التقاليد فلا يعرفها أم هي الحرية التي لا تضيق بها القيود والأصفاة

وكان هدفه من كل ذلك تهذيب الإنسانية وشرح حقائق الحياة وضرب المثل العليا للفضيلة والكشف عن أسرار الإسلام ومجد المسلمين الأولين محاولا جهد استطاعته أن يثير في أبناء الجيل قوة وحماسا وأملا وإقداما فيتوجهوا في معترك الحياة إلى كل غاية عندها شرف الدنيا والآخرة وعلى ضوء هذه الفلسفة العملية قال أحد الزعماء في معرض حديثه عن إقبال : « ان إقبالا لم يفهمه المسلمون كما لم يفطن إليه الحكام الإنجليز فلو فهمه الأولون لتحرروا ولو فطن إليه الآخرون لما مات في لاهور بل منفيا في جزيرة أندمان (الماء الأسود) » .

وقد نقلنا على صفحات هذا السفر صحائف من شعر إقبال إلى اللغة العربية محققين بذلك ما تمناه الشاعر حين سأله أحدهم في بعض مجالسه أن يأذن بترجمة شعره إلى لغات أوربا ليفهم الأوروبيون الإسلام على حقيقته فيذهب عنهم سوء ظنهم في تعاليمه فقال بالإنجليزية « ان أعمالى ستخلد وسترون أن كل معنى أرسلته في قصائدى ستحملة اللغات بعضها إلى بعض ولكنى أريد أن يترجم كلامى إلى العربية أولا وقبل كل شئ ليصل إلى العرب صوتى وليفهم العالم الإسلامى أسرار قلبى » وكأننا الآن به وهو ينعم فى رضوان الخلود وقد تنسم روح الاطمئنان على ذلك الأمل الذى نبض به قلبه وظل ينبض به إلى اللحظة الأخيرة من حياته .

ومع ما كان عليه إقبال من استمساك بأهداب الفضيلة واتباع لمبادئ الدين فلم يخل تاريخ حياته من حساد تقولوا عليه الأقاويل لاشئ إلا للخط من قدره والتقليل من شأنه والغض من مكانته كعامل لرفعة الملة وعظيم

من عظماء الأمة الإسلامية وأمثال هؤلاء كثيرون في كل دولة فقد أذاع أحدهم أن إقبالاً كان يتعاطى المسكرات ويبادر زميل دراسته وصديقه في مراحل الحياة خان بهادر محمد شفيع عميد الكلية الشرقية بلاهور سابقاً بدحض هذا الافتراء الرخيص فيقول إنني لم أذع لإقبال لحظة من ليل أو نهار الا كنت فيها ألزم له من ظله وما رأيته مرة واحدة يتعاطى مسكراً وحسبك أن تعلم أنه طرد ابنه الأكبر وتبرأ منه لأنه لم يجتنب الخمر .

وإنه لمن أعظم النكبات في الأمم الشرقية أن لا يكاد المصلح يبدأ رسالته حتى تنجم له النواجم من أمته وتذب له العقارب من أبناء جنسه لعرقلة خطواته وإضاعة مجهوداته وتأخير غاياته فبينما هو يبذل من ماله وجهده ويحرق نفسه بخوراً لأُمته إذا بالصيحات تعترضه من كل مكان وتخنق أنفاسه ، وفي أعم الغرب لا تكاد تلمع بارقة العبقرية في نابغ منهم حتى يرفعوه إلى السماك الأعزل ويهيئوا له الأسباب ويغدقوا عليه الثروة التي تمكنه من الفراغ لأداء رسالته بينما تخفق العبقرية في الشرق من فجر مهدها وترى قبل شروق الحياة مغرب لحدها .

هذه صورة عن حياة إقبال الذي قضاه باحثاً في أصول الإسلام متفهماً فلسفته ثم ينظم أفكاره وآراءه شعراً يتغنى به الطلبة في الكليات والمدارس ، وكان لقب الدكتور علماً بالغلبة عليه وكان الطلبة يصطفون لمشاهدته في أيام عطلتهم وهو عائد من المحكمة في عربته الصغيرة وييده زمام قيادها بوجهه الأحمر وشاربه الذهبي وطربوشه التركي .

وعلى أن نشاط إقبال لم يقتصر على هذه الجهود الدينية الخالدة بل كان له

أثر كبير في توجيهات الشباب السياسية فعندما كان سكرتيراً عاماً للجمعية حماية الإسلام بلاهور وكانت تتبع الجمعية عدة كليات حدث أن أعلنت المقاطعة الاقتصادية في الهند سنة ١٩٢٠ فذهب إليه الأساتذة يعرضون عليه فكرة المساهمة بالإضراب تأييداً لهذه الحركة فقال لهم أخشى إن أمضيتم ما تريدون أن تغلق الكليات أبوابها فتغلق عليكم أبواب الرزق فإن كنتم صادقين في رغبتكم فعيشوا أولاً على وجبة واحدة في اليوم والليله فإن وفقتم إلى إتمام هذه الخطوة من جهاد نفوسكم أبدت لكم رأيي النهائي . ويدفعنا الحديث عن آرائه السياسية إلى معرفة السر فيما سجله عن بعض تقاليد اليهود وأخلاقهم مما شاهده بنفسه عن أحوالهم فعندما وصل إلى لندن سأل الدكتور آرنولد أستاذة السابق أن يسكنه مع قوم يأكلون لحوم الذبائح بما يتفق وأحكام الشريعة الإسلامية، فتخير له الإقامة في أسرة يهودية فذهب إليهم إقبال وقال لهم إنني مسلم ومؤمن بنبيكم كما تؤمنون به وعمل على إيجاد مودة بينهم مبنية على روح التسامح ولكن هل يفقه اليهود ذلك ؟ وهم الذين عبدوا من الدينار عاجلاً جسداً له خوار .. هو هذا المال الذي توارثوا عبادته عن العجل الذهبي الأول فلقد رأى أنهم لا يشترون له شيئاً من السوق إلا بعمولة مضافة إلى الحساب بطريقة لا يفهمها غيرهم والتاجر الذي اتفقوا معه .

وكثيراً ما كان يبدي إقبال رأيه الصريح في شيء من السخرية اللاذعة عند ما يجد أن الأمر يستوجب ذلك . وكان يقرن رأيه دائماً بالمفاضلة بين دينه وما عليه الأقوام الآخرون بما يرفع شأن الإسلام ويعطى الفكرة الصحيحة

عنه فلقد سأله بعض زملائه في جامعة كمبردج « لم يبعث الأنبياء ومؤسسو الأديان في آسيا دون أوروبا؟ » فأجابه إقبال « لأن العالم مقسم بين الله والشیطان، ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوروبا من نصيب الشيطان، فقال قائل منهم قد عرفنا رسل الله فأين رسل الشيطان فأجابه من فوره أنهم زعماء سياسة الخداع والمكر في أوروبا .

ومما يروى عن لدعاته وسخرياته ما تحدث به المستر آرنولد حين كلفه أن يصحب أحد شيوخ الهند الكبار ليريه مشاهد لندن وفي نهاية الرحلة جلسا معا في أحد الأندية وتقدمت إلى الشيخ الهندي إحدى الفتيات بقدر القهوة ثم أخذت زميلاتها تتقدم الواحدة تتبعها الأخرى ليقبلن لحيمة الرجل ووجهه كما يقبل العابد معبوده التمثال، ولما شكا الضيف ذلك إلى آرنولد التفت إليه إقبال وقال لآرنولد كنت أريد ألا يرى ضيفكم لندن بعين واحدة فيرى منها الجانب الأبيض فقط .

وقد كان إقبال يرى أن جميع نواحي الحياة ينبغي أن تعرف على السواء ليؤخذ بصالحها ويترك الفاسد منها فلم يدرك الخير إلا بمعرفة الشر معه ورأى أن القدماء قد أخطأوا حين تعددت مذاهبهم حول الجسم والروح حتى أن بعضهم كالأبيقوريين يرى أن الجسم وملذاته من الشر أما الإسلام فيرى أن للجسم حرمة وأن الملذات من حقوقه وإنما وضع لها النواميس والحدود فمن تمتع بمطالب الجسم في تلك الحدود الشرعية فكأنما فعل الطاعات ولقد تجاوز بعض زعماء تلك المذاهب الروحية حدود العقل حين تجاهلوا حقوق الجسم

ووجوده البتة فأصبح وجود هذا الجسم في نظرهم جريمة لا يكفرها سوى إيداعه
كبوذية الهند واليابان والصين .

وقد يقول أصحاب تلك المذاهب إن متع الجسم من الكبار ولو استرسل
الإنسان فيها لم تقف عند حد فلا بد من إعلان الحرب عليها وإقبال في أكثر
قصائده يدعو المسلمين إلى نبذ هذه النزعة الابيقورية وهذه الرهبانية في الإسلام .
ولقد جاء إلى لاهور سائح ألماني وعند ما استكتب إقبال كلمة في مجموعته
الأوتوغرافية كتب له إقبال بيتا من الشعر الفارسي يفسر الذاتية فسأله السائح
عن مذهبه الفلسفي فقال إقبال « كان آباءى براهمة في الكفر وزهاداً في الإسلام
عاشوا يفكرون في ذات الله ورأى أن تكون بداية التفكير نحو قدرة الله
في ذات الإنسان فمن عرف نفسه عرف ربه » .

ولما كانت اللغة الأردية أكثر اللغات شعرا وشعراء لسكثرة عدد المتكلمين
بها ولأنها لغة موحدة لجميع الطبقات في الهند بين المتعلمين والأميين على السواء،
فقد كثرت فيها حفلات المطارحات الشعرية وقد وفد ذات مرة لفيف من الطلبة
يطلبون إلى إقبال أن يقبل رئاسة إحدى حفلاتهم المقامة للمشاعرة فقال لهم :
« إننى لأقبل الرئاسة لأى حفل وانى أنصح لكم ألا تقولوا الشعر فالهند وبخاصة
المسلمون فيها لا يحتاجون إلى الشعراء وليس من المستطاع أن يكون كل إنسان
شاعرا فإنى أرى شعراء هذا العصر يندفعون إلى الشعر إسرافا وارتجالا دون
أن يتجشموا محنة التأمل وتكاليف النفوذ إلى أعماق المعانى ويظنون أن قول
الشعر هو نظم الألفاظ وتقفيتها دون حاجة إلى مطالعة أو ثقافة عريقة وفهم

دقيق لمختلف العلوم والفنون ويريدون أن يشتروا شهرة رخيصة بنظم يسير
فلست أرى إلا في القليل منهم عنصر الوجود والحيوية والبقاء ، إنى أشفق على
شبابكم وأنهاكم أن تسلكوا هذه السبيل المضلة وعليكم أن تقرأوا النثر
وتسجلوا به أبحاثكم الطريفة النافعة وترجموا الموضوعات الجديدة القيمة
فتخدموا شعبكم الحاضر ومجدكم المستقبل » وما لبث أن عاد هؤلاء الشباب
وقد انطفأت نارهم الثائرة إلى منازلهم ومكاتبهم ودروسهم لا إلى المشاعرة .

ومما يؤثر عنه أنه دعى إلى حفل بالكلية لتكريم بعض الأساتذة وتوديعهم
عند بلوغ سن التقاعد ، فقال إقبال : « إننى قدمت رغم مشاغلي لأشهد جنازة
وظيفة فلان هذا » فاستغرق القوم ضاحكين من هذه الطرفة الفريدة . وعند السمر
سأله العميد وقد كان من كبار مفسرى القرآن بالإنجليزية وهو العالم الشهير عبد الله
يوسف على ما رأيك في الحجاب المتبع في الهند والذى تخفى معه المرأة بجميع
معالمها من الأنظار . فأجاب إقبال بأسلوب لا يدرك جماله إلا من يعرف الأردية
وطرق المداورة في أساليبها : « إننى أدافع عن هذا الحجاب لأنه يزيد الرغبة
في الملاح ولا يحرم منها القباح » .

ولما ذهب مع وفد المفاوضات إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن واصل رحلته
إلى روما وقابل السنيور موسلينى ، وقال له الدوتشى : « إننى أعجبت بما وصل
إلى من أشعارك » وتحدث معه إقبال نحو ساعة وكان مما قاله إقبال : « إننى
أرى إيطاليا في حالة تشبه ما كانت عليه إيران قبل الإسلام ولكن قد كان
من حسن حظ إيران أن وُجد إلى جوارها العرب الأقوياء فغزوها من البادية

بدم قوى جديد وأمكن لإيران أن تجدد حياتها وأن تخرج أبطالا جعلوها في طليعة أُمّ المدنية العظمى وبذلك الدماء العربية قام فيها أعلام فن وحرب وسياسة ولما سقطت الروم غزتهم الجرمان بقبائل جديدة فقدّر لها أن تنشأ نشأة أخرى في القرون الوسطى والآن تحتاج إيران وإيطاليا إلى الدماء الجديدة غير أن الأولى لا زال إلى جوارها قبائل مهذبة نصف تهذيب وفي غربها قبائل العرب التي لا تزال مستمسكة بمعنويتها القوية ، أما إيطاليا فكل من حولها أُمّ متمدنة فقدت بداوتها القوية وفطرتها السليمة وأخشى أن تفقد إيطاليا عناصر القوة . وقد تأثر موسلينى عند سماع هذه الحقائق المستمدة من التاريخ والعلم والاجتماع . ولعل موسلينى كان يتأثر أكثر من هذا لو عاش حتى يلمس بعد نظر إقبال وصدق فراسته فيرى إيطاليا بعد الحرب متبلهة في أمر مستعمراتها بل وفي أحزابها الداخلية التي تسممها المذاهب الجديدة الهدامة .

وقد واصل رحلته إلى فرنسا فإسبانيا وهناك قال لمدير أحد الفنادق الكبرى في قرطبة : « أين أحفاد العرب في هذه البلاد » ، فقال له المدر : « إننى منهم ، ثم جمع لديه وجوها من خيارهم ، فقال إقبال ما ترجمته :

إلى اليوم تلك ظباء الحمى	بأعينهن الأمراض الحسان
والحافظها لم تزل قدرات	على صيد أسد الشرى كل آن
وتلك المحاسن طبع الحجاز	وهذا النسيم عبير يمانى
نحى الحنان وسكانها	وإن زال سكان تلك الجنان

وقد قابل إقبال في رحلته البروفسير آسن الذى صنف كتابا أثبت فيه أن الكوميديا الإلهية التى وصفها دانتي الإيطالى كلها مسروقة سرقة ظاهرة من الآثار الإسلامية ولا سيما أحاديث الإسراء والمعراج وما يتعلق بالجنة والنار . وكم كان إقبال يتمنى لو أرسلت البعث الإسلامية إلى تلك البلاد لتعرف آثارها وقراءة مخطوطاتها وخصوصا ما كان منها بمكتبة اسكوريال .

ولقد رأى في رحلته إلى إسبانيا مسجد قرطبة وقرأ الآيات القرآنية المسطورة بالمداد الذهبى بعد أن أزيل عنها طلاء الرهبان ولقد كان تأثره بمشاهدتها وقراءتها أعظم مما كان يؤثر في نفسه عشرات المفسرين وهو يقول فى ذلك « لقد أحسست بالخطر والنسيم والجمال وفهمت لماذا اختار العرب بلاد الأندلس فهى المكان الذى لا يأسن فيه الماء ولا يتغير مع هوائه الطعام وعرفت لماذا اختار العرب هذا الموطن الذى انبعثت منه مدنيات العالم الحديث » .

ولما قام فرانكو بالحرب الإسبانية الأهلية كان جنوده الفاتحون من مراكش، فقال بعض الناس لإقبال هاهم العرب مرة أخرى قاموا يفتحون الأندلس بعد ٥٠٠ عام فقال إقبال : هل قرأت قصيدتى عن قرطبة ثم أخذ يتلو منها .

أيها النهر الذى شاطئه جنة الحسن الذى تجلو النظر
فوق شطيك سرى فى مقلتي حلم الماضى الذى عنك استقر
غير أن القوم من سكرتهم فى حجاب خلف مجهول القدر

وأرى في حلم ليلى يقظة قد تجلى لي ضحاها في السحر
يزعج القوم ندأى للعلا لو كشفت الستر عن كنز الفكر

ولما أصدر إقبال كتابه جناح جبريل قال له قائل إنى قرأت تصنيف تتشه
للمرة الثالثة ويخيل لى اننى أقرأه من جديد فهو طريف الفكرة عميقها قريب
إلى الإسلام فى بعض أصول تفكيره ، ولعل أحداً لم يقدم إليه الإسلام فى عرض
سليم وتفكير صحيح ولجهله بمبادئ القرآن الحُد فى فلسفته ، ولعله نفر من
المسيحية لأنه وجد فيها أن الحمل الواهن الضعيف هو ابن الله ، ورأى أن الأخلاق
فى المسيحية تبدو فى صورة الضعف . فقال إقبال : لقد أصبت اللباب وأدركت
الصواب ، ولهذا السبب قلت عن تتشه إن قلبه مؤمن وعقله كافر .

وفى جناح جبريل يشبه إقبال تتشه فى كثير من الفكرة وقوة الأسلوب .
وكان لإقبال رأى خاص فى إنكار بدع الموالد والاتجار بالأضرحة ومقابر
الأولياء ، ويقول عن مشايخ هذه الأضرحة : إنهم لو وجدوا حصير الزهراء
ودلق أويس القرنى وكسرة أبى ذر الغفارى لأكلوا السحت من أثمانها » ومع
أن هذا كان رأيه فإن بعض جمهور المواطنين يقيمون له مولداً كل عام فيطوفون
بضريحه ويضربون بالدفوف حول قبره .

ويحسن بنا قبل أن نختتم هذه الكلمة عن إقبال أن نذكر الحادثة التالية :
اجتمع حول سرير إقبال قبيل وفاته بعض تلاميذه وقد وقفوا يذرفون
الدموع فصاح أحدهم يدعو الجمع أن يبتهلوا إلى الله بقلوب خالصة أن يكشف

الغمة عن إقبال وأن يطيل عمره وما كاد القوم يهيمون بالتوجه إلى الله مبتهلين
حتى أشار إليهم إقبال أن انتظروا قليلا ، ثم قال لهم : « إن كنتم صادقين في
رغبتكم فاجعلوا ابتهاكم إلى الله أن يمد في عمر القائد الأعظم محمد علي جناح »
وقد حققوا له رجاءه . ومنذ ذلك اليوم أطلق على « جناح » لقبه الذي عرف به
القائد الأعظم .

المؤلفان

مات الرجل العظيم محمد إقبال

(١)

قال الدكتور عبد الوهاب عزام بك في محاضرته بدار الأخوة الإسلامية بالقاهرة يوم التأبين في اليوم الحادى والعشرين من إبريل (سنة ١٩٣٨) والساعة خمس من الصباح ، في مدينة لاهور مات رجل كان على هذه الأرض عالماً روحياً يحاول أن ينشئ الناس نشأة أخرى ، ويسنّ لهم في الحياة سنة جديدة ؛ وسكن فكر جوّال جمع ما شاءت له قدرته من معارف الشرق والغرب ، ثم نقدها غير مستأثر لما يؤثر من مذاهب الفلاسفة ولا مستكين لما يُروى من أقوال العظماء ؛ ووقف قلب كبير كان يحاول أن يصوغ الأمة الإسلامية من كل ما وعى التاريخ من مآثر الأبطال وأعمال العظماء ؛ وقرّت نفس حرة لا يحدّها زمان ولا مكان ، ولا يأسرها ماض ولا حاضر ، فهي طليقة بين الأزل والأبد ، خفّاقة في ملكوت الله الذى لا يُحدّ .

مات محمد إقبال الفيلسوف الشاعر الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين وللبشر جميعاً - الرجل الذى كان يخيّل إلىّ وأنا في نشوة من شعره أنه أعظم من أن يموت ، وأكبر من أن يناله حتى هذا الفناء الجثمانى - فاضت روح الرجل الكبير المحبوب في داره بلاهور ورأسه في حجر خادمه القديم الوفى «إلهى بخش» وهو يقول : إني لا أرهب الموت أنا مسلم أستقبل المنيّة راضياً مسروراً .

كفت أقرأ كلام إقبال في الحياة والموت، وأرى استهانته بالحمام واستهزائه بالذين يرهّبونه - وما كان هذا خدعة الخيال ، ولا زخرف الشعر فقد صدق إقبال دعوته في نفسه حين لقي الموت باسمًا راضياً - جد المرض بإقبال ، وكان يقترب إلى الموت وهو متقد الفكر ؛ قوي القلب ، يصوغ عقله كلمات يوقظ بها النفوس النائمة ، وينثر قلبه شراراً يشعل به القلوب الهامدة - وكان يعنى بنظم كتابه « أرمغان حجاز » : لحن الحجاز - وكان قلب الشاعر يهفو إلى الحجاز وقد تمنى في خاتمة كتابه « رموز بي خودى » أن يموت في الحجاز ، ومما نظم في أشهره الأخيرة :

آية المؤمن أن يلقى الردى باسم الثغر سروراً ورضا

وقد أنشد هذين البيتين قبل الموت بعشر دقائق ، وهما مما أنشأه أخيراً :

نغات مضين لى ، هل تعود ونسيم من الحجاز سعيد ؟

أذنت عيشتى بوشك رحيل هل لعلم الأسرار قلب جديد

وآخر ما أنشأ من الشعر بيتان أترجمهما نثراً :

« قد أعدت جنة لأرباب الهمم ، وجنة أخرى لعباد الحرم . فقل للمسلم

الهندي لا تحزن ، فكذلك للمجاهدين في سبيل الله جنة » .

(٢)

كان تشييع إقبال إعراباً رائعاً عما للرجل الفذ في قلوب أهل الهند عامة ومسلميه خاصة - احتشدت عشرات الألوف تودّعه بالبكاء والزفرات ،

وشاركت النساء بالعويل والنحيب ، وتنافس الحاضرون فى حمل الفعش فوضع على خشبتين طويلتين ليتسنى لكثير من المشيعين أن يشرفوا بحمل الرجل العظيم إلى مثواه الأخير - وقد بلغت الجنازة شأهى مسجد وخلفها زهاء أربعين ألفاً ، فوقف الناس ساعة كاملة حتى تيسر لهم أن يصطفوا للصلاة على الفقيد الجليل ثم نقلت الجنازة إلى حديقة متصلة بالمسجد ، وهنالك والساعة عشر إلا ربعا من المساء غربت شمس إقبال فى جدتها ، وطوى الجهاد الذى ملأ الدنيا فى لحده ، وأدرجت الحكمة والشعر والحرية التى تأبى الحدود والقيود فى جنبها - وضع محمد إقبال فى قبره .

وغشى القبر الذى تضمن روضة الشعر بضروب الزهر والريحان ، ثم نثرت عليه أزهار أخرى من أقوال الخطباء والشعراء الذين أطافوا بالشاعر الخالد .

وتجاوبت أرجاء الهند بأقوال الكبراء يعربون بها عما أحسّوا من لوعة ، وما دهم الهند من مصيبة بموت شاعرها الأكبر - اجتمع على هذا المسلم وغير المسلم ؛ فهذا جواهر لال نهرو يقول :

« لقد دهتنى وفاة إقبال بصدمة هائلة شرفت ببقاء إقبال ومحدثته منذ قليل ؛ وكان مستلقياً على فراش المرض ، ولكن كان لفكره العالى ونزعة الحرّة فى قلبى أثر بليغ - لقد فقدت الهند بفقد إقبال كوكباً لئلاً مضيئاً ، ولكن شعره سيخلد فى قلوب الأجيال الآتية ، وذكراه العظيمة لن تموت » .

وهذا الدكتور محمد عالم يقول :

« لا تستطيع أرض البنجاب أن تخرج إقبالاً ثانياً في عصور طويلة » .
ويضيق المجال عن الإكثار من أقوال أعلام الهند في فقيدهم ، وأرخ
بعض الشعراء وفاة إقبال (سنة ١٣٥٧) في قوله :

تاريخ « بود إقبال شاعر مشرق »

كان إقبال شاعر الشرق

وأرخ آخر بقوله :

« ذهب العلامة إقبال شطر الجنة العالية »

ترك الشاعر النابغة ابنين وبنات وأخاً وثلاث أخوات .

الخطبة

التي ألقاها العلامة محمد إقبال

في الحفلة السنوية للرابطة الإسلامية

بمدينة الله آباد بالهند سنة ١٩٣٠ وقدم فيها فكرة الدعوة إلى قيام الباكستان

حضرات السادة :

أتوجه إليكم بعظيم شكرى على ما أوليتمونى من ثقة شرفتنى برياسة الرابطة الإسلامية فى هذا الدور العصيب الذى يجتازه المسلمون وإنى لا يزدهبنى الغرور فينسينى أن هذا المجتمع ينتظم من صفوة الأعضاء من هم أوفر منى تجربة وأرسخ منى قدماً فى ميدان السياسة وأقدر منى على حل المشاكل ، ولقد أعدّها جرأة بالغة منى لو أسبغت على نفسى صفة الهداية والتوجيه لحضراتكم .

إنى لم أكن يوماً ما فى إحدى الجماعات أو الهيئات قائداً ولا جندياً أخضع لقائد فقد استنفدت أعوام حياتى الماضية دراسة وإطلاعاً بحقيقة الإسلام وتفهماً لفنون السياسة والآداب وكان اهتمامى وتأثرى واتصالى بروح الأصول والتعاليم الإسلامية مما أكسبني فى حياتى بصيرة خاصة اكتشفت على ضوءها أن الإسلام حقيقة عالمية . وما دام المسلمون محتفظين بهذه الروح قوية كاملة فإنى سأحاول ماوسعنى الجهد أن أبعث من تلك البصيرة فى نفسى قوة تشعل فى شغاف قلوبكم جذوة الشعور وتركز أصول الإسلام ومبادئه التى هى وحدها الضمان لتحقيق النتيجة المرجوة .

الإسلام والقومية : إن ثمة حقيقة ثابتة لا يسع أحدا أن يرتاب فيها وهي أن جميع المثل العليا الخلقية والأهداف العملية والأنظمة السياسية التي رسم الإسلام حدودها العادلة كان لها الأثر الواقعي الملموس في تاريخ مسلمي الهند فقد امتزجت مشاعر المسلمين وأحاسيسهم وعواطفهم بتعاليم هذا الدين الحنيف التي يتركز عليها كيان الجماعات بما يهيئ لجميع الأفراد والهيئات على السواء أن تتلاقى في سيرها وتتجمع في تكوينها على أقوى الدعائم وأقوم النظم في التشكيل والتنسيق ولا أجدني مبالغاً إذا أعلنت أن ربوع الهند هي التي قد تجلت فيها قوة النهضة والسير نحو بناء الوحدة الإسلامية في أجلى مظهرها وأكمل صورة ففي الهند ممالك ودول مدينة بقيامها ووجودها للإسلام وذلك لأن الإسلام تتمثل فيه الروح الأخلاقية والفضائل الأدبية على أسلوب خاص والإخاء الديني والترابط الاجتماعي والعدالة الثابتة بين شعوب الإسلام لم يوكل أمرها إلى مجرد النصيح والترغيب وإنما هي خطط وقواعد تكفلت برعايتها وإيضاحها التشريعات من نصوص هذا الدين الحنيف ؛ تلك التشريعات الحكيمة التي أقامت صرح الاتحاد بين القلوب ومدت ظلال الأمن بين الشعوب وقد تنكر لها وجه المدنية الحاضرة ويسعني أن أصارحكم القول بأن الأفكار السياسية للأمم الغرب أحدثت انقلاباً لم يقتصر شره وشرره على الهند وحدها بل اندلع لهيبه وأحاط بالعالم الإسلامي كله ويود شباب المسلمين اليوم تطبيق هذه المبادئ وإقرارها في حياتهم العملية وهم ينساقون إلى ذلك مسرعين دون أن يتبينوا البواعث من العلل والأسباب التي حملت أمم الغرب على اعتناق تلك المبادئ

وكان على هؤلاء الشباب أن يذكروا أن قيام المسيحية بأوروبا في بداية أمرها كان يرتدى مسوح العزلة والرهبانية ثم تبدلت الأمور فأتخذت الكنيسة شكل الحكومة المتجبرة ومظهرها في الدولة مما نشأ عنه قيام مارتن لوثر بثورته ضد سلطة الكنيسة . على أن هذا التأثير لم يكن ينشد بثورته إصلاحا سياسيا أو إحداث انقلاب وتغيير يمت إلى هذا المعنى بصلة ما إذ ليس للسياسة ولا لأنظمة الحكم أى ارتباط بأصول المسيحية ولو تتبعنا الأمر على جليته لالتبسنا المَعذرة للوثر . على أنى أعتقد شخصا أن لوثر نفسه ما كان يتوقع أن تكون نتيجة ثورته هذا الانقلاب الفكرى الجرى الذى انتهى إلى تعدد المذاهب الخلقية فكل ما صنعه بإقامة ثورته أنه مزق رباط الوحدة وفتح ثغرات جديدة في دنيا المسيحية ، وأصبح أنصاره أنفسهم شيعة وأحزابا يصعب حصرها على المتتبع ومن ثم أخذت الأمم المسيحية تنفصل عن كل معنى إنسانى في الإخاء والاتحاد وانزلت إلى مضايق الحقوق القومية والإقليمية والعنصرية والطائفية على أساس تفهم الحياة وتركيب معظمها على هذا الوجه وحده فنشأت النزعات الوطنية ، وفي أسلوب هذا المنطق الجديد نشأت مظاهر من الأنظمة والتشريعات خاضعة لتلك المؤثرات وليس لأمة على هذا الاعتبار وجود سياسى إلا متأثراً بتلك النزعات .

فلو تصورنا الدين على أنه يبدأ من الآخرة وينتهى إليها دون أن تكون له وشيجة اتصال بدنيا هذا العالم لكان الذى حدث في شعوب الغرب أمراً لا غرابة فيه ولا مناص منه بالنظر إلى مبادئ المسيحية . وليس بمستغرب

كذلك أن نرى انهيار صرح الأخلاق التي نادى بها وصايا المسيح فقد ذهبت كأن لم تغن بالأمس وحلت مكانها في حياة الأقسام أنظمة السياسة الجديدة وانحصر أمر الدين بأعماله ومعاملاته في حياة الفرد داخل نفسه وفي حدود ذاته دون أي اتصال بالحياة الدنيوية ؛ ولكن الإسلام يقرر أن الإنسان وحدة كاملة دون فصل في الأحكام والمصائر بين المادة والروح فالقربات التعمدية والمصالح الدنيوية ومساجد العبادة ومناصب الرياسة وميادين العمل في المادة والروح إنما هي أجزاء متعددة لكل واحد . فإن هذا الإنسان لم يسكن عالماً نجساً يتحتم عليه أن يتخلص منه بالتماس الهجرة إلى عالم روحاني طاهر نقي فاللادة التي ترقى بها تعاليم الإسلام وتنظمها ليست سوى شكل من أشكال الروح ومظهر آخر لها في حدود الزمان وقيود المكان ويبدو أن عالم الغرب قد تأثر في غير تبصر ولا روية بمقيدة « المانوية » التي تدين بالثنائية بين المادة والروح .

على أن أحرار الفكر وأقطاب الرأي من الغربيين قد أخذوا يتسللون لوإذا من هذا الاعتقاد الخاطئ ولكن ما تزال طبقة السياسيين على إصرارها واستمسكها بأن العالم كله يجب أن يخضع في حاضره ومصيره لتلك العقيدة ويرضخ لقانونها كحقيقة ثابتة لا سبيل إلى التخلص منها ولعمري إنه لتفريق باطل بين المادة والروح قد استولى على كل اتجاه سياسي أوديني في ممالك الغرب ثم لا يكون عجيباً بعد ذلك أن ترى الدول المسيحية قد جانبت الدين بجانب كلية من الوجهة العملية وقامت تبعا لهذا حكومات ودويلات ممزقة الأوصال

قوامها الأغراض المادية والأهداف المحدودة ولا تمت بصلصة إلى مشاعر الإنسانية ومثلها العليا » ولكن الذي يعدّ من سخرية الأقدار حقا أن ترى هذه الدول بعد أن أضاعت ثروة المعتقدات الدينية والمبادئ الخلقية أخذ يطيّف بها الحلم الذهبي في توحيد أوروبا ويمكننا أن نقول بتعبير آخر أن القوم ربما أحسوا ضرورة الاتحاد الذي كان لهم من قبل في ظل الحكومات البابوية ولكنهم بدلا من أن يقيموا دعائم الاتحاد في ضوء الأخوة الإنسانية العالمية التي كان يخفق بها قلب عيسى عليه السلام أضاعوا كل تراث من الوحدة والوئام بفضل تعاليم لوثر .

وإننا بحمد الله لا نتوقع أن يقوم في المسلمين لوثر آخر ، فليس في ديننا الحنيف ما كان يوجد في المسيحية إبان القرون الوسطى من السلاسل والأصفاد التي كان العالم يومئذ في أمسّ الضرورات إلى تحطيمها ، ذلك بأن الإسلام هو الدين القيم الذي ترتكز دعائمه الأولى على الوحي والتنزيل في نصوصه التي تجمع قواعد الكلية ولا يقلل من شأن هذه الحقيقة أن فقهاءنا كانوا في الوقت الأخير بمعزل عن الحياة العملية فلم ينتبهوا في البداية إلى الاستجابة لحاجات العصر ومطالبه مما يجعلنا في حاجة إلى تجديد الفكرة والاتجاه إلى الإنشاء والعمران . إني لأستطيع أن أتسكّن الآن بنتيجة الاستمساك بالإقليمية والقومية عند شعوب المسلمين وبما إذا كانت الجاذبية الإسلامية مستصل إلى أعماق المشاعر فتبدلها وتضفي عليها حلتها التي كانت لها من قبل أو أن هذه الأفكار التي خرجت من مصنع المدينة الغربية ستحدث في الإسلام تغييراً ومعاذ الله أن يقع ذلك .

منذ أيام كتب إلى العلامة (ونسك) رسالة من هولندا يقول فيها : « إن

العالم الإسلامى فى يومه قد وصل إلى الطور الذى كانت عليه المسيحية منذ قرن، وإن أعقد المشاكل والصعوبات التى تبدو اليوم أمام الأنظار بعد أن هجر المسلمون أسلوبهم السابق فى تصور كنه الحياة إنما هو تخير الطريقة المثلى التى يتحقق بها حفظ بنيان الملة من التضعف والانهييار، ثم يقول ونسبك انه شخصيا لا يستطيع أن يتبين المصير المتظر بالنسبة للمسيحية وماذا سيكون مبلغ تأثيره ونتيجته المرتقبة فى أعم الإسلام.

إننا فى الوقت الحاضر نرى المسلمين قد تورطوا فى أعراض الوطنية إلى الانزلاق فى عصية الدم والجنس ثم ماذا أليست هذه هى النزعات التى تحول بين السلم وتحقيق مقاصده الإنسانية السامية التى هى من صميم رسالته الأولى وقد تنتهى هذه المشاعر إلى توهين دعائم الإسلام.

انى أستميحك المذرة إذ التجأت إلى هذا الأسلوب العلمى الذى دفعتمكم إليه فى خطاب لم يكن يحتل دسامة النظريات العلمية ومشكلاتها بهذا الصدد، أنتم الذين رأوا أن ينتخبوا لرياسة هذه الرابطة رجلا لم ينزل به اليأس ولم يقعد به القنوط وما يزال قلبه عامراً قوى الإيمان بأنه مبرحت فى المسلمين تلك القوة الكامنة التى تستطيع أن تحرر أذهان البشرية من قيود الألوان والأجناس والدماء.

نعم أنتم الذين تخيرتم رجلا يؤمن بأن للدين الأهمية العظمى والأثر الفعال فى توجيه حياة الفرد والجماعة على السواء، وهو موقن كل اليقين بأن تقرير مصير العالم الإسلامى إنما هو فى أيدي المسلمين أنفسهم لا فى أيدي أعدائهم وأن رجلا

هذا أمره وتلك عقيدته مضطر إلى وضع حلول لجميع المشكلات على أساس النظرية الإسلامية وحدها، ولا يخطر ببال أحد منكم أن ما أشرت إليه الآن من المشكلات محصور في حدود النظريات لا يتعدها بل هو في صميم المناهج الحيوية والخطوات العملية ، وأقول على سبيل المثال لو أننا جعلنا دستور الحياة ونظام العمل قائمين على أصول الإسلام ومبادئه في الهند وحدها لأشهدنا العالم أمة مثالية تؤثر في حياة جميع المسلمين وربما امتد أثرها كذلك إلى جميع أقطار المسكونة . وهذا هو الهدف الذي نصبو إليه حين نحاول أن ننشئ في الهند مدنية ممتازة وحضارة متخيرة، ودعوني أصرحكم بأن الإسلام لم يمر به فيما سلف من عصور التاريخ دور عصيب حافل بالمشاكل المستعصية والأحداث الدامية كهذا الدور الذي نعانیه .

إن لكل شعب حقه في أن يرسى قواعد بنيانه كما له أن يحور في وضع أصوله الأساسية أو ينسخها جميعاً بجرة قلم ولكن على من يحاول استعمال حقه أن يتبين كيف تكون العاقبة ويتبصر في النهاية قبل أن يخطو إليها خطوة واحدة وأرجو ألا يتطرق إلى أحد سوء الفهم في إدراك ما أرى إليه وإذا ما ذهب أحد إلى غير رأي فليفرخ روعه ، وليكن على ثقة من أني لن أفتح معه باباً للمناظرة بحال ومن جهتي فأنا مستيقن من أني أخطب المسلمين الذين احتشدوا في هذا الجمع الإسلامي ليفكروا كيف يعيشون سعداء في ظل تعاليم الإسلام وهم من صميم أفئدتهم يتمنون أن يحيوا كراماً في أحياء المثل العليا للكتاب الكريم ولن يحول شيء دون استعمال حق في حرية الرأي لأكشف النقاب

عن وجه الحقيقة في أساليبكم السياسية وأدل على النهج القويم بما لا يخامرني شك فيه .

اتحاد الهند القومية

قبل أن أخوض معكم غمار هذا الموضوع أحب أن أضع بين أيديكم هذه الأسئلة وهي هل الدين أمر وجداني فردي فقط ؟ أتحبون أن تكون نهاية الإسلام في الخلق والسياسة كنهاية المسيحية في الغرب ؟ أمن الجائز أن تقصر تعاليم الإسلام على الجانب الأخلاقي والتعبدى في حياة الإنسان بحيث يجوز لنا بعد ذلك أن نقتبس لأنظمتنا السياسية مبادئ أخرى لا يجد الدين طريقاً إلى التدخل فيها ولا الحكم عليها ؟ ولهذه الأسئلة بالنسبة للهند أهمية أخرى نظراً إلى أقلية المسلمين فيها وأكثرية الهنالك وغيرهم من الملل الأخرى .

إن الدعوى بأن تدين الإنسان مقصور على شخصه ولا يتعدى كيانه الفردي لاتعد غريبة إذا رددتها أسنة الغربيين ذلك بأنهم تلقوا المسيحية مسلكاً رهبانياً قد أشاح بوجهه عن دنيا المادة لينشد غاية عليا في الجمال الروحاني وكان مصير الأمم الغربية خاضعاً لهذا المعنى بما كانت نهايته على نحو ما أسلفنا بيانه لكن الدين الذي جاء به نبينا الأكرم ورسولنا الأعظم يختلف عن ذلك اختلافاً كلياً من الألف إلى الياء بما دل عليه نص التنزيل ونطق به صريح الآيات . وليس غاية الإسلام منحصرة في الواردات الذاتية التي تجعل المرء بمعزل عما حوله من

الأشياء ومن حوله من الناس بل بناءً للتربية التي تجعل الفرد صالحاً لأن يتكون منه ومن غيره مجتمع صالح له أنظمتها القويمة ومن مادة هذه التربية الفاضلة استمدت مقومات السياسة العليا عند المسلمين وهي سياسة استنبطت فروعها العملية من أدلتها الإجمالية في محكم القرآن والسنة النبوية .

وليس في وسعنا أن نتصور بعد الأنظمة السياسية والإجمالية من حقيقة الإسلام لأنها من صنعه وصميمه وكلاهما يرتبط بالآخر ارتباطاً الملزوم بلازمه والمألوف بعلمته والاستغناء عن أحد المتعلقين استغناء عن الآخر فإني لا أستطيع أن أفهم لحظة واحدة كيف يعد مسلماً ذلك الذي يفضل السياسة المبنية والمستمدة من العصبية والجنسية على الإسلام نفسه متجاهلاً أصوله الأولى ومبادئه الحقة في بناء الوحدة الجامعة لأبنائه وهذه المشكلة نفسها تواجه مسلمي الهند اليوم .

قد لا يكون في طوق الإمكان أن نجتمع شعوب البشرية لنهض بها طفرة إلى حياة واحدة ولكن في الإمكان أن نجتمع الأسرة الإسلامية على صراط مستقيم ولهذا فشلت دعوة الأمبراطور أكبر وفلسفة الشاعر كبير في جمع الكلمة على مبدأ المحبة على إطلاقها دون توجيه عملي فلم يكتب لأحدهما النجاح لأن مثل هذه الدعاوى عند مجادلتها نراها خالية من الحلول الصحيحة لمشاكل الحياة الاجتماعية . والتفكير السليم يتقاضانا أن نعترف بالحقائق ولو كانت مريرة فليس من الأساليب العملية لتحقيق المقاصد أن يعتمد على مبادئ تفترض فيها حالات غير موجودة فبدلاً من تكذيب الوقائع يجب أن نستفيد منها وإذا اعتقدنا

أن الهند كما يبدو في رأى أنها آسيا مصغرة فعليها أن تقيم وحدتها القومية على هذا الأساس ففي الهند جزء يشبه الأمم الشرقية مدنية وتهدنيا ولكن جزءاً آخر منها يعيش على أسلوب سكان آسيا الوسطى والغربية فعليها أن تتبين من جميع هذه المتناقضات التي كانت مشار الحروب الدامية آماداً وقروناً متعاقبة .

إن حل مشكلة الهند هو حل مشكلة آسيا كلها . وإنه ليؤسفني أن جميع محاولتنا في التعاون والاشتراك والاتحاد قد حبطت فيها المساعي والجهود ولكن ما مصدر هذا الفشل الذريع ؟ والجواب الوحيد هو أن أحداً لا يثق بما ينتويه الآخر وكل واحد ينطوى في سريره على حب الغلبة والانتصار على سواه . إننا لن نحاول أن نستتر خلف نقاب من القومية لننسى ما بذلنا من تضحيات وما حصلنا عليه من حقوق ، فنحن نسمع التشديق بنعمة حب الوطن يرددها الجميع بينما البواطن تنطوى في داخليتها على الاستئثار وإثارة عوامل الفرقة . وإنى أعلن في صراحة أن المسلمين إذا قبلت مطالبهم في إحياء مجتمعهم وثقافتهم وتاريخهم ومدنيتهم الرشيدة العالية فإنهم لن يتوانوا عن تقديم أكبر تضحية في سبيل تحرير الوطن . أما حق الفرد أو الجماعة في طلب وسائل الرقي في ظل العقيدة والدين فلا يعد تعصباً .

والعصبيات التي تدعو إلى البغضاء والتنفير من الآخرين هي وضعية مهمة
ليس لها في الإسلام وجود . فإني أنظر بعين الاحترام الى المراسيم الدينية الخاصة بغيري لأنني أحترم الحرية نفسها وأنا كسلم تحتم على قواعد ملتي أن لا أصادر حقوق الآخرين في شعائرهم الدينية لا يعنى ذلك أن أحب من شغاف قلبي

ومن أعماق ضميري تلك الأمة التي استمددت كياني من أوضاعها وأعرافها وتقاليدها وهي التي وهبتني من دينها ومدنيتها وأدبها وحكمتها ما شيدت عليه بنيان حياتي، وقد كان من بركتها ونعمتها أن أيقظت في الماضي النائم وألهمتني حرارة الإيمان وقوة العمل .

هند إسلامية (باكستان)

ليست الهند كأي مملكة في الغرب تجمعها وحدة الجنس واللغة والدين ولكنها وطن لأمم متباينة والسلالات واللغات والديانات تختلف بعضها عن بعض أتم الاختلاف ولا يمكن أن يتحد الشعور وتتفق وجهات النظر في مناهج الحياة على نحو ما هو موجود في أي مملكة غربية ولا يمكن العمل على إفاء ميراث الملل المختلفة بل يجب أن تعطى كل أمة حق تنظيم وجودها وتقرير مصيرها بما يتفق وأسلوبها في الحياة وإني أرجو تأييدكم وموافقتكم على أن تتكون من مقاطعات البنجاب والحدود الشمالية والسند وبلوستان دولة واحدة وسواء كان قيامها قبل التحرير من النفوذ البريطاني أو بعد تمام الاستقلال ، وإني لألح في الأفق أن مسلمي شمال غرب الهند يضطرون الى العمل على تشكيل دولة اسلامية ولقد نهض هؤلاء لإعلان رغبتهم تلك الى لجنة نهرو ، فرفضت مطلبهم بحجة أنه لو قامت تلك الدولة فإنها ستحتل منطقة واسعة لا يمكن السيطرة عليها ، وصحيح أن رقعة الأرض واسعة كما تقرر اللجنة ولكنها عدد سكانها أقل من عدد سكان بعض المقاطعات الهندية ولعل التقسيم في مثل جمهورية

« امبالا » التي تقطنها أ كثرية هندوكية يقلل مشاكل التنظيم في تلك الممالك
وبتقسيم هذه الأقاليم تحفظ حقوق الأقليات من غير المسلمين أيضاً ويجب ألا
تتفرع حكومة الإنجليز وألا يضطرب الهنادك من إثارة هذه الاقتراحات .

إن الهند أكبر مملكة إسلامية في العالم فإذا أراد مسلموها أن يحفظوا
مآثر تاريخهم ويشيدوا معالم مدنيّتهم فلا مناص لهم من تكوين حكومة
مركزية مستقلة .

إن مشكلة الهند لا تفحل إلا بقبول مطالب المسلمين الذين لا يجحد الإنكليز
عليهم مساعداتهم في مختلف المواقف وفي مقدمتها الأمن الداخلي .
ولا يفهم تفسير حب الوطن عند المسلمين إلا بإيجاد وطن لهم فلو أتيح
لمسلمي شمال غرب الهند تكوين حكومة مركزية في هيكل السياسة الهندية
لكوّنوا جبهة الدفاع ضد أي هجوم من الخارج وحصناً لمقاومة الآراء الهدامة
في الداخل .

يكون مسلمو البنجاب ٥٦٪ من تعدادها ثم تجدون أن ٥٤٪ من تعداد
الجيش الهندي كله من البنجاب نفسها ولو استبعدنا من الجيش الهندي العام ١٩٪
منه من سكان نبال المستقلة لأصبحت نسبة المسلمين في الجيش الهندي العام
رغم أنهم أقلية السكان ٦٢٪ من مجموعهم؛ هذا عدا ستة آلاف من أبطال
بلوخستان والحدود الشمالية المحاربين ومن ثم يتبين لكم مقدار المهمة العظمى

في الدفاع عن الهند إذا تحقق مطلب المسلمين في شمالها الغربي . وقد قال الزعيم الهندي (سرى نواس شستري) إن مطلب هؤلاء المسلمين يتم عما يبيتون من نية في المستقبل من الضغط على الهند حين تتاح لهم الفرص ، وجوابي على ذلك أنك لو قنشت صدور المسلمين لن تجد فيهم هذه النزعة الانتقامية وإنما مقصد المسلمين الأوحـد أن يعبدوا لأقدامهم الطريق نحو التقدم في ظل الحرية الكاملة ولا سبيل لهم إلى تحقيق هذه الغاية في نظام حكومة مركزية متحدة كالتى يسعى إليها زعماء الهنـاك والقادة المتعصبون منهم لا شىء سوى تضيق الخناق والسيطرة على الأقليات التى لا يرتاحون إلى نهضتها . وكـم وددت لو أمكننى استبعاد جميع المخاوف من ألقـوب الهنـاك من قيام حكومة إسلامية . وقد بينت فيما سلف أن مفهوم الإسلام لا ينتهى إلى أن تنظيم الحكومة يقوم على تصورات مثل تلك التى فى الأمم المسيحية . فإن الإسلام نظام تليد تلقته الإنسانية وحيأ من خالقها منذ مئات ومئات قبل أن يخلق روسو ليؤلف كتابه العقد الاجتماعى Contract Sociale فالإسلام فى دعوته الخلقية الإنسانية وفى عقائده السامية يجعل المسلم نافعا فى كل مكان يستطيع الإقامة حيث وجد ولا يكون مغروسا كالشجر ولا جامدا كالبحر بل هو ذات روحانية وجزء من تركيب الهيئة الاجتماعية وجزء حى عليه واجبات وله حقوق لا يمكن تجاهلها . وإنى لا أطالب بهذه الدولة الإسلامية إلا ويغمرنى اعتقاد راسخ بأن هذا فى مصلحة الإسلام والهند كذلك فإنه فى توازن القوات المختلفة يتحقق الأمن ويستقر السلام وفى إقامة هذه الحكومة الإسلامية فرصة مواتية لتقديم الإسلام

للعالم على حقيقته الكاملة في أسلوب يطابق روح العصر الجديد خالياً مما أصابه من التشويه في عهد بعض الحكومات التي لم يكن يعينها تطبيق مبادئه وإرساء قواعده .

دستور الهند

قد وضح وضوح النهار أنه لا بد في المستقبل من أن تتشكل في الهند حكومات تجمع أفرادها تحت حكم يقوم على وحدة اللغة والاعتبارات الأخرى ويجب أن يتحقق هذا التقسيم على أسلوب يكفل اتقاء المشاكل وأسباب النزاع وذلك قبل التفكير في وضع دستور جديد وعندئذ تنحل المشاكل الانتخابية من تلقاء نفسها ويبدو لي أن كل تطاحن يقع في أرض الهند مبعثه عدم التوفيق في حل مشكلة التقسيم وكل ما يحاوله الهنادك هو إجراء انتخابات عامة يضمنون فيها أغلبية تمكّنهم من إفناء الأقليات وأن لا يكون لطائفة في دينها تعبيرها الخاص عن ذاتيتها وعن صميم رسالتها ، لذلك هم يروجون في شائعاتهم أن الانتخابات المليّة تنافي القومية؛ وتفسير القومية عندهم هو أن يفنى سكان الهند بعضهم في بعض ثم هم بعد ذلك يضمنون لأنفسهم ما يريدون . ولكن الواقع غير الخيال ، فهذا ما لا نقبله بحال لأن الاختلاف في الهند واضح جلي بين الأكرثيات والأقليات في الأديان والمعتقدات واللغات ولو نظرتم إلى ما عليه المسلمون من انخفاض مستوى المعيشة وفداحة الديون التي يرزحون تحت أعبائها ولا سيما في مقاطعة البنجاب وقلة عددهم في بعض المقاطعات الأخرى لأدركتم

السبب الذى من أجله ينادى المسلمون بالانتخابات المليية الخاصة . أما القول بالانتخاب العام فى جميع المقاطعات محافظة على القومية والتمثيل النيابى الصحيح فهو تمويه وتضليل لأنه يؤدى فعلا إلى السيطرة التامة للأغلبية الهندوكية فلو قسمت المقاطعات على أن تكون كل واحدة منها أمة موحدة كاملة الارتباط فإن المسلمين لا يعارضون فى إجراء أى انتخاب عام .

أما الدستور الجديد الذى وضعه البراهمة فهو يستبعد كل تقسيم ويكل القرار الأخير فيه إلى المجلس التشريعى المركزى الذى يضم أ كثرية ساحقة منهم وإن كانوا يذرون الرماذ فى العيون خلف بعض الأسماء الإسلامية فى هذا المجلس . أما وسائل الإصلاح التى تحاك فى مصانع السياسة البريطانية فهى ترى أبدا إلى استبقاء سيطرة الانجليز وحتى يكون الجميع متطلعين إلى نفوذهم وهم كذلك لا يرون من صالحهم أن تسوى هذه المسائل خشية أن تذهب المعاذير التى يتذرعون بها ويقللمسونها للبقاء فى أرض الهند . وإنى أهيب بالمسلمين ألا يقبلوا أى نظام يقرره الهنادك أو يفرضه الانجليز وعليهم أن يسلكوا سبيلهم إلى ما يحفظ عليهم وجودهم فى حكم مستقل يتمتعون فيه بالحرية فى تقرير ما يشاءون لأنفسهم وللإسلام .

ولعل من الأسباب الرئيسية فى خلل النظريات السقيمة هو اعتقاد الإنجليز أن الهنادك يكونون أغلبية محكمة الرابطة لأن الهند تضمهم فى أفكار متشابهة ولكنهم أكثر خلافا واختلافا مما يظنون ولا توجد الجامعة الحققة إلا بين

المسلمين بما أوضحنا أسبابه فيما سلف من هذا البيان وعلى الرغم مما بذلته بريطانيا من الأخذ بنواصر الهنادك بعد الثورة الإسلامية الأخيرة ضدهم سنة ١٨٥٧ فإن المسلمين هم الذين يجدون في دينهم وأصول شريعتهم العروة التي لا تنفصم والمجتمع الذي لا يختلف على سواء الطريق ولهم من فطرتهم وقوتهم ونهضتهم ما يغنيهم عن مساعدة أجنبية للأخذ بسواعدهم .

ولعل الانجليز يتذرعون في مشروعاتهم بأنه يمكن إيجاد اتحاد بين المسلمين والهنادك على مثل ما هو قائم من الاتحاد الملحوظ بين المسلمين والمسيحيين في مصر وممالك الشرق الأوسط مع اختلاف الدين . ولكن ما أبعد هذه المقارنة وما أشد الفرق بين الهند وسواها فبينما يجيز الاسلام الاتصال بأهل الكتاب على أن يكون لهم مالهم وعليهم ما عليهم إلى حد إجازة تزويج المسلم من الكتابية وبينما تتحقق المصالح المشتركة بالتعاون في الأمة الواحدة نرى الهنادك يعتبرون المسلمين نجسا ماديا فلا يعاملونهم ولا يختلطون بهم ولا يتحجبون إليهم من قريب أو بعيد وكذلك ينظر المسلمون إليهم كوثنيين ليس لهم من الأرض نبوة ولا من السماء كتاب ورغم ما يبذل المسلمون من التسامح فما يزداد هؤلاء من ذلك إلا تنكرا واستخفافا وامتهانا للمسلم والعمل دأبا على استئصال شأفته وإبادة ملته . وإذا كان هذا التسامح قد توقف أمره في بعض القرون السابقة نظراً لما كانت تصنعه أُمم الغرب من همجية بربرية تلبس غير لونها متسترة باسم الحروب الصليبية والمسيحية منها براء ، فإن المسلمين يثبتون اليوم ما أثبتوه من قبل - ذلك التسامح الذي مكّهم من التعاون الوثيق في حكوماتهم وأفرادهم .

اختلاف المسلمين دمار لأمته

أيها المسلمون ! قد يوجد خلاف فرعى بين المذاهب الإسلامية ولكن هذا الخلاف لا يمتد بفرد أو طائفة إلى الخروج على الحدود التي رسمها الدين في أصوله وقواعده وإذا أجزنا مثل هذا الخلاف المذهبي فإني أحذركم ثم أحذركم أن تستبيحوا وجود خلاف سياسي بين مجتمعكم الإسلامي فإن هذا الخلاف ليس له سوى معنى واحد وهو فناء المسلمين عن بكرة أبيهم واستئصال عنصرهم من تاريخ الوجود ومعاذ الله أن يقع ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي ختام القول أقول لكم أيها المسلمون كما قلت لكم فيما سلف إنكم الآن تجتازون أدق مرحلة وتعمرون بأصعب دور في حياتكم السياسية فعليكم أن تحتفظوا بالارتباط الشامل والاتحاد القويم في العزائم والجهود وفي الوسائل والغايات وعليكم أن تؤمنوا بأن وجودكم كأمة إسلامية هو عين فائدة الهند أيضاً وعليكم أن تحرروا أنفسكم والهند معكم من كل عبودية سياسية تسبب مصائب وويلات غير متناهية وأن تحرر الهند هو تحرير آسيا كلها . هذه العبودية هي التي داست روح الشرق تحت أقدامها وحرمة نعمة الاغتباط بإشراق ذاتيته التي قامت بفضلها المدينيات الشرقية الخالدة . وعلينا أمام ذلك واجبان أولهما نحو الهند التي نحيا تحت سمائها ونموت في أرضها وثانيهما نحو آسيا ولا سيما آسيا الإسلامية التي تضم قرابة سبعين مليوناً^(١) من المسلمين مما يحتم علينا أن نفكر فيها كمسلمين أولاً وقبل كل شيء ولن نؤدى هذين الواجبين

(١) لعل الرقم جاء خطأ في الأصل الأردى لأن تعداد سكان آسيا المسلمين يربو على عدة

نحو الهند وآسيا إلا حين نستجمع إرادتنا ونوحد أهدافنا ولا مندوحة لكم عن ذلك أولاً وأخيراً لإثبات وجودكم كأمة إسلامية بين عشرات الطوائف والهيئات الموزعة في الأقطار الهندية فأنتم ترون بأعينكم تشتت أمرنا وأن انتشار الفوضى والبؤس بين صفوفنا في ازدياد واضطراب أمام مطامع السياسة الغاشمة. إنى لا أستطيع أن أخفي عنكم شعورى بأنكم فى سبيل تدارك هذه الحالة الخطرة لابد أن تناضلوا فى كفاح الحرية ولا سبيل إلى محاولة أخيرة لكسب سياسى إلا حيث تكون العزائم عزماً واحداً والقلوب المتباعدة قلباً واحداً وأن تتركز مشاعركم حول مطلب لا يختلفون فيه .

أفى الإمكان أن تتحقق هذه الآمال فى اتحاد قواكم المعنوية وهى صادرة من ينابيع روحانيتكم الصافية ، لم لا ! وكيف لا ! إنكم تستطيعون ذلك وبالغوه إن شاء الله يوم تتحررون من القيود النفسية والمطامع الطائفية وحين تضعون أعمالكم الفردية والاجتماعية فى ميزان ما تنشدونه من الأهداف العالية والمثل الرفيعة .

فلتكن قوة المادة إلى جانب قوة الروح متساندتين على تحقيق ما نصبو إليه من القيم العليا بل عليكم أن تجعلوا المادة خادمة للروح لأن المادة ظلمة وكثرة وفناء والروح نور ووحدية وبقاء .

درس تعلمته من تاريخ الإسلام ! أى والله درس واحد ، ولكنه كل شىء فيما يتعلمه الإنسان هو أنه فى أخرج الأوقات وأعقد المصائب والمشكلات كان الإسلام هو الذى يحفظ على المسلمين حياتهم ولم يكن المسلمون هم الذين حفظوا الإسلام .

فلو أنكم - أيها المسلمون - ركزتم جهودكم وأنظاركم ووليتم وجوهكم شطر كعبة الإسلام وجعلتموه رائدكم وقائدكم واقتبستم مشاعركم واتجاهاتكم من عناصره التي تهب القوة والحياة لتجتمعت قواكم المتفرقة وتوحدت مواهبكم المنتشرة من جديد ولوضعتم لوجودكم التأمين والضمان الوثيق ضد عوامل الدمار والهلاك . إن آية من القرآن تهيب بكم وتناديكم إنها الصوت الأبدى السماوى الذى يخاطب أهل الأرض قائلاً فى سمع من مضى من المسلمين ومن يولد فى دنيا الأحياء « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشُقْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

ألا يمكننا معشر المسلمين أن ندعى ونحن صادقون فى دعوانا أننا نحن قبل الجميع فى أُمم العالم قد عملنا على وضع أسس المبادئ لجمع كلمة الإنسانية على خير ما كانت تنشده وتصبو إليه وإذا كنا كذلك فى أمسنا ألا نستطيع أن نعيش فى يومنا كنفس واحدة .

إنى لا أريد أن ألقى بكم فى حيرة عند ما أقول لكم إن الهند قد تغيرت وإنى أنظر إليها بغير ما تنظرون فإنكم موشكون أن تثبتنوا ذلك حقاً عند ما ترون المسلم لا يقول أنا حين يكون فرداً واحداً ، ولكنه يقول أنا عندما يكون أمة كاملة .

إقبال والبر بالفقراء

ليس طريق طريق المستكبرين بل طريق الفقراء

الحب الإنساني عند إقبال هو الخمر المعنوى التي تسمو بالروح نحو الكمال
وتلك الخمر هي التي جعلت إقبال طوال حياته ثملا بلا قدح أو صهباء ، وكان له
من هذه الخمر الثائرة ما يصلح علاجاً للأفلاك الدائرة .

محبة نوع الإنسان خمر تربي الوجدان

وقد علمتني هذه الراح كيف أبقى ثملا بغير الأقداح

إن رقى هذا الميل الطبيعي وجلاء هذا الشعور الفطري يقوم على التربية
المنزلية ثم على البيئة المحيطة بالفرد وقبل ذلك تقوم على ما يستقر في أعماق
الروح من الإيمان والمعاملة الحسنة وقد كانت جميعها ميسرة لشاعرنا الخالد
أما وشيخته ببر الفقراء وصلة المساكين فقد لازمته طوال حياته .

وقوة الحياة الانسانية في نظر إقبال لا تستمد من الجاه والمال وإنما مصدرها
المقام والحال فرأس ماله لم يكن فضة ولا ذهباً وإنما كان الصدق والضراعة
والاحترق والألم .

إن هداية النوع الإنساني في الدنيا وتحقيق الاخوة العامة والأعمال الخالدة
التي تحقق هذه الأهداف العليا لا تتم إلا بإرضاء الرغبة في معونة المساكين
والبر بالمحتاجين .

إن أكبر هداة البشرية هو أعظم محسن إلى الدنيا ولم يكن سوى محمد
 صلى الله عليه وسلم وقد نعمة الله بما لا يبلغه البشر نعتا ولا ثناء «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
 مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ»
 ولقد كان والد إقبال ذا قلب فياض بالحنان فغرس في نفس ولده منذ
 شب عن الطوق العقيدة التي تذكر المسلمين بشهادة ربهم لنبيهم الكريم «وإنك
 لعلى خلق عظيم» وكان يطبع ولده على غرار هذا النور المحمدي ويربى في كيانه
 الانسان الشاعر بآلام الآخرين .

ففي كتاب أسرار الذاتية يقول إقبال : وقع على بابنا سائل وقوع القضاء
 ورفع صوته كأنه نعيم غراب وأخذ يهز الباب ولما آتني تصايحه وإلجافه خرجت
 إليه فأهويت على رأسه بضربة بعثرت ما بيده مما جمعه طوال يومه فلما رأى
 والدى ذلك اصفر وجهه الأحمر وانحدرت الدموع نهراً على خديه وقال :
 اذكري يا بنى جلال المحشر .
 يوم تجتمع أمة خير البشر .

وأرجع البصر ككرة إلى الحيتى البيضاء .
 ونحول جسمى المرتعش بين الخوف والرجاء .
 كن يا بنى من البراعم في غصن محمد .
 وكن زهرة يحميها نسيم ربيع المصطفى .

والذين شهدوا إقبالا بعد ذلك ولمسوا معاملته للبائسين يشهدون أنه كان
 مثلاً عالياً في البر بهم والعطف عليهم . وفي الحادثة التالية مثل حي لما كان
 يتحلى به إقبال من هذا البر .

أقام أحد أصدقائه الأغنياء بلاهور ولية عرس وألح عليه في قبول دعوته للحضور، وفي نفس اليوم أعد أحد عارفيه من الفقراء ولية وأعز أمانيه أن يلي إقبال دعوته ويحضر وليته فلم يتوجه إقبال إلى مائدة ذلك الثرى بل ولى وجهه نحو صاحبه الفقير ليكمل أفراحه ويضفي على منزله الهناءة والسرور، ولما كان قصر ذلك الثرى يقع على مدرجة الطريق إلى منزل الفقير فقد عرج عليه وقال له : لقد قبلت دعوتك في كرامة صديق الطاهي .

وهذا مثل آخر يزيد القاري إيماناً بهذا الخلق عند إقبال ؛ كان يوجد في مقاطعة البنجاب مصارع محترف فقير ، فبدا له أنه لو أعلن عن حفل عام للمصارعة، وذكّر في إعلانه أن إقبالا سيشهد مع كبار المدعويين ليختتم الحفل بإلقاء محاضرة في المصارعة فما من شك في أن هذا الحفل سيصدر عليه أرباحاً طائلة تعالج من فاقته وتفرج من ضائقته وما لبث المصارع الفقير أن بكر إلى إقبال منذ الصباح بفكرته العجيبة . ولكن ما شأن إقبال وتلك المصارعات والملاكمات على أن إقبال ما تريث ولا استأنى بل قال في الحال إن كنت تثق بأن هذا الإعلان سيحقق الراجح لهذا الحفل ويزيد دخلك فلك ما أردت . وهكذا أعلن المصارع عن حفله وألقى إقبال محاضرة عن المصارعة استلهم أفكاره من ذلك النجاح الذي لقيه الحفل ومن شعوره الإنساني استمد القدرة على طرق موضوع لم يكن يظن أنه سيدعى يوماً للخطابة فيه .

لم تكن نظرة إقبال إلى البر بالفقراء نظرة فردية بل كانت نظرة اجتماعية عامة ففي إحدى مقالاته التي كتبها بعنوان « نظرة عمرانية إلى أحوال الأمة

البيضاء» قال : « من ذا الذى لا تدعى كبده ويذيب نياط قلبه قلة ما يناله
المسامون من الكسب ، ومن ذا الذى لا يستنفد ماء شؤونه دماً قانياً ضالة
مساكنهم القدرة وظلمة حجراتهم الخائفة ومنظر أطفالهم الذى يجرح شعور
العزة والإباء ببطونهم الخاوية الضامرة الخالية المنطوية على الخمصة والجوع
فما عرفت الشبع قط ، وإذا نظرت إلى أحد أزقهم المظلمة فى واضحة النهار المبصر
فإنه لا يكسر طلسم خيالك إلا صياح اليتامى وبكاء العراة الضامرين وأنين العجائز
المتألمات . وفى جحور هذه الأزقة الملتوية ترى مئات من رجال ونساء كانوا قد
رأوا دنيا الأحياء فى أحد الأيام وأضحوا اليوم فى حاجة إلى أن يروا كسرة
من الخبز . فهل أحست جماعاتنا وهيئاتنا ومحافلنا هذه المفاخر الألية فأضافت
إلى برامجها المنسقة فى مدح العطاء وتمجيد الشخصيات وحبك أ كاليل التكريم
وتقديم طاقات الأزهار لمن يستحق ومن لا يستحق فصلاً ختامياً فى البحث عن
رفع مستوى الحياة بين هذه الأحياء الإسلامية .

فالمسلم الذى يريد أن يقف حياته نهضة المسلمين يجب عليه أن يواجه الحالة
الاقتصادية ويقارن بينها وبين مشيولاتها فى العالم ليتبين وجوه النقص ووسائل
العمل المنتج المفيد .

والذى يحاول أن يضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة عليه أن يطهر قلبه
من أدران العصبية وأن يعاود فوق الخلافات المذهبية غير موجه همه إلى تأييد
فريق بعينه فإن النجاح الاقتصادى لا يتحقق إلا فى ظل ارتباط الجميع

البر بالفقراء والرابطة الإسلامية

عندما رأى إقبال حالة مسلمى الهند ورأى تقلب السياسة الهندوكية وأمعن النظر فى الحالة الاقتصادية عند المسلمين بدأ ينشد للمسلمين الحرية الاقتصادية ليفك أسارهم من سلاسل يهود الهند فبدأ يضع مشروعا للدويلات الإسلامية الحرة التى تسكنت أخيراً وأطلق عليها اسم « باكستان » ومن ثم التقى إقبال والقائد الأعظم محمد على جناح فى الغاية وأخذت الرابطة الإسلامية بالهند شكلا جديداً أنسع نطاقها فى إنشاء باكستان وفيما بلى رسالة إقبال إلى القائد الأعظم فى مسألة الفقراء :

لاهور ٢٨/٥/١٩٣٧

عزيزى جناح :

أشكركم على رسالتكم وقد اغتبطت كثيراً عندما علمت أن كل ما تقدمت به إلى مقامكم بشأن تغيير مشروع الرابطة الإسلامية وأنظمتها قد نال اهتمامكم وتقديركم . ولست أرتاب فى أنكم تحسون بجميع مشاعرهم إلى أى درك من الخطورة انحدرت إليه حالة المسلمين فى الهند وقد جاء الوقت الذى يتحتم فيه على الرابطة أن تقول كلمتها فى هذه المشكلة . أكل أمرها أنها تمثل الطبقة الممتازة العليا أو هى تحمل العلم نهضة الجميع من المسلمين ان جماهير المسلمين قلما يتجهون بقلوبهم إلى هذه الرابطة ومعذرتهم فى ذلك ما يخامرهم من الاعتقاد بأن الرابطة ليست لهم وإنما هى للطبقة الراقية . وإننى لعلى يقين من أن جميع المنظمات والهيئات السياسية التى لا تضع فى مناهجها وأهدافها تنظيم مصالح المسلمين على سواء بينهم ستبقى عاجزة عن اجتذاب القلوب إليها .

إقبال

العشق والجمال

من كتاب روح إقبال

ليس من المستطاع تعريف الجمال وتحديدده إذ هو مليء بالأسرار التي تفوق حدود التعبير ورسوم التعريف .

هناك كثيرون تتيح لهم تجاربهم الفردية أن يشعروا بمعنى الجمال على أنك لو طلبت إليهم الإبانة عن مكنون شعورهم لتحيروا وضربوا أخماساً في أسداس .
فهذا الجمال الذي أثار عواطفهم وألهب مشاعرهم وأثر في نفوسهم لا يجدون في أنفسهم المقدرة التي يستطيعون معها الإفصاح عن آثاره وكنهه .

والجمال على حقيقته كامن في عين من يحس به لافي المناظر المشهودة والصور المحبوبة ولا علاقة للجمال والعشق بمظاهر الحياة بقدر ما لهما من علاقة ثابتة بالمشاعر الباطنة وهذا الجمال من أكبر خصائصه التغير والزوال فالذي يبدو اليوم حسناً وجميلاً قد لا يبقى فيه بعد حين حسن ولا جمال والذي يفتح صورة خيالية فإنه في الوقت ذاته يصور نفسه ويندفع نحو الصور المتشابهة لما ارتسم في خياله .

وكان الله أودع في الفطرة سراً من الكمال يستحيل النظر إليها وتستشير حب مشاهدتها كما أن هذه الفطرة تنشد على الدوام إظهار تأثير جمالها باستهواء الأفتدة إليها واجتذاب الأفكار لما فيها من روعة وإبداع ثم هي بعد ذلك تبقى

عارية من الجمال حتى يخلق فيها نظر الإنسان جمالا ولعل المرء لا يدرك الجاذبية في الشفق حتى ينظر إليه الفنان ويصيح انظروا ما أجمل الشفق .

إن دنيا اللون والعطر بستان حياتنا الجميل . إن هذه الدنيا منفصلة عنا ولكنها مرتبطة بنا خلقت من أجلنا . إن القلوب تصل إليها من منافذ خفية وكل موجود مدين في عرفان الجمال للأناظر المشاهدة فلولم ير الجمال أحد لبكى حسرة وألما والعيون التي نفذت بأشعتها على مواطن الجمال هي التي عرفتنا كنوز الحسن في البحار والجمال . فالعالم من غير تجلياتنا عليه محو وهباء وجلوة النور والصدى بغير تجلياتنا عدم وفناء .

قد يكون من أعمال الفطرة أن تخلق التراحم وتضع العوائق والعقبات في سبيل الكمال الإنساني ثم يكون فضل الإنسان الحقيقي في أن يذللها ويزيلها ويسخر جهات الكون لتحقيق مثله العليا وكأن الفطرة بهذا العمل العكسي هي التي تساعد الإنسان وتحفزه على التشييد والتجديد وعلى الابتكار والخلق والتعمير والعشق هو الذريعة الوحيدة لإحكام الذاتية وبقوته يثور الإنسان وتفور عزيمته طيرانا وتحليقا في سماء النمل العليا الرفيعة ومن ثم يسيطر على جميع العوائق والعقبات وهذا هو الذي تختلف فيه التعابير لتلتقي عند معنى واحد يعبر عنه بالسكر أو التفاني أو الجذبات الكلية .

وفكر الإنسان وفطرته العليا قوتان تجتازان به حدود الزمان والمكان وتحطمان من طريقه سلاسل القهر والجبر وبدون هذه المعاني لا يتاح لأحد أن يظفر بآماله

أوبيلغ شاطىء حرته. ومن أهم ميزات العشق الرجاء القوى الدائم الذى لا ينقطع ولا يضعف .

إن إقبالاً يعد العقل من خدام الحياة ويرى أن للعقل عليها أيد وحسنات ولكنه ليس كل شئ فيها وليس من الحكمة أن يكون التعويل عليه وحده بل وأن تنتهى مراحل عند غاية محدودة ومن دلائل عجز العقل وانحصاره فى نظر إقبال قلة الجرأة وانعدام المخاطرة التى تكتسح أمامها كل شئ فالعقل وحده لا يحقق أترام الخلق والتكوين ولا يبلغ معنى من الابتكار إلا بمؤازرة العشق والوجدان والعقل كثير التردد قليل التقدم وبينما العقل فى تبلبل واضطراب يعوقه نرى العشق يعلو بقافلة الحياة إلى السحاب والتاريخ الإنسانى شاهد بأن أكبر الحوادث ومعظم الأمور الجسيمة التى غيرت حياة الشعوب والأقوام كانت جميعها فى الأكثر الأعم مدفوعة بتيار المشاعر والعواطف لا بعقل العقول والأفهام واستنباط النتائج من المقدمات .

يشكو إقبال العقل تقيده بالظن والتخمين ويرى أنه لا نتيجة ترجى من ذلك إلا فقد الاستعداد وانهيار قوى العمل فى حياة الإنسان وإقبال يسلم بأن العقل يصل بالقوافل الذاتية فى سيرها إلى المنازل المنشودة كما يصنع العشق ذلك ولكن شتان ما بين الطريقتين فالعقل يوصل إلى الغايات بالخداع والحيلة والمكر والعشق يدفع الركب نحو الغاية بقوته القاهرة .

كلاهما يسرع نحو المنزل وكلاهما أمير القافلة

العقل يقود بالحيلة والعشق يدفع بالقوة

إذا اصطحب العقل حرارة الذوق صار قلبا وإذا فقد القلب حرارة الشعور فهو لا يفضل التراب .

والعشق هو الذى من أجله نشأت الحرارة فى الذرات وظهر ميل العناصر وانجذابها للاتصال بأمثالها وأشباهاها وامتزاج ذرات المواد بما يماثلها لإحكام وجودها من أمتع البحوث فى علوم الطبيعة .

قال ديكارت إننى أفكر إذن فأنا موجود ولكن إقبال يخالفه فيقول « إننى عاشق إذن فأنا حى » وليس العشق ضمانا للحياة وحدها بل هو ضمان لها وللخلود معها والفكر يثير الشك فى الوجود والعشق يجعل الوجود نفسه مؤمنا .

أنا موجود أو غير موجود هكذا كان العقل يتساءل فى حيرته ولكن صوت العشق نادى فى إيمان إننى موجود .

العشق ينشئ ثباتا فى الحياة وثقة فى البقاء بعد الرحيل من الدنيا والزمان أسير العشق لأن العشق أعلى منه وقد كان العشق وسيدبقى أبدا وهو الجوهر الحقيقى للروح .

خلود الحياة في فلسفة إقبال

كان شبح الموت الخفيف الرهيب يبدو أمام الناس جسما عظيما وبقدر ما كانت جسامته وخطره كان يبدو في عين إقبال ضئيلا متلاشيا . لعله كان يرى أن العقبة السكود في طريق رقي المسلمين الحرص على الحياة ، ومخافة الموت . أو كما عبر عنه الرسول الأعظم «حب الدنيا وكرهية الموت» وقد وجد أن خوف الموت ليس معناه إلا أمر واحد وهو ترجيح حياة الذلة والعبودية على موت الشرف والكرامة . فحاول أن ينتزع هذا المرض النفسى من صدور أهل الإسلام مبينا أن خوف الموت والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد وأن الذين تسنموا غارب العزة والشرف هم الذين يحملون رؤوسهم على أكفهم في ميدان الكفاح لا تنخلع قلوبهم فرقا ولا ترتعش عزائمهم جبنا . وإنما يُقبِلون على الموت إقبالهم على العرس ويفرحون بالتضحية فرحهم بالنصر مؤمنين بالفوز في الدنيا والسعادة بقاء الله (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) فإما النصر وإما موت فيه الفخر .

ثم يذكرنا إقبال بأسلافنا الماضين الذين ملوكوا الممالك وأدالوا الدول ووطئت خيولهم القلاع والحصون وما اشتروا هذا المجد إلا بدمائهم . فهو في قصيدته الشكوى يذكرنا بهذه الحقيقة في جلاء حيث يقول :

بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا لم نخش يوما غاشما جبارا
وكان ظل السيف ظل حديقة خضراء تنبت حولنا الأزهارا
ثم يقول :

لو ان آساد العرين تفرغت لم يلق غيرُ ثباتنا الميدان
وكان نيران المدافع في صدو ر المؤمنين الروح والريحان

ويصف ذلك المسلم الذي يطلق كالسهم النافذ إلى العدو بعد أن يكبر
تكميرة الجهاد في الميدان فيقول :

ذلك المؤمن المجاهد يغشى غمرة الحرب والردى يخشاه
تحت ظل السيوف ماض قوئ درعه لا إله إلا الله

يبين لنا بعد ذلك أن الحالة قد تغيرت وأن سنة الأوام قد تبدلت واستحكم
الجن في قلوب الكثيرين من المسلمين وأصبحت وجوههم تصفرّ اصفرار الشمس
عند الأصيل إذا ذكر الموت أو الحرب ثم يخاطب الذين يتقاعسون عن الجهاد
ويتخلفون عن النضال قائلا : « إن خطباء منابرهم ووعاظ أنديةكم أصبحوا
غير نافعين ولا مغنين عنها » .

ثم يقول :

لم يبق في يد مسلم درع ولا سيف يصول به ليوم جهاد

ولو انه وجد السيوف فهل له ذوق الخلود وحب الاستشهاد
من كان يجزع من منية كافر هل يستطيع مصارع الأجداد

إذا كان المرء مخلصاً لله حق الإخلاص وإذا كان واثقاً بأن الموت ليس
إلا العقبة الأولى التي يجتازها المرء إلى الحظيرة الأبدية والمتعة ببقاء الله . أقول
إذا كان الإيمان هكذا فلا محل للخوف من الموت . أما أولئك المضطربون
الخائفون فهم أولاً شاكون في لقاء الله وفي الخلود . وثانياً فهم يعبدون المال
ويؤثرون الحياة الدنيا ويظنون أن هذه الحياة المادية هي المرحلة الأخيرة للسعادة
لذلك يخشون أن يموتوا فيُحرموا . وإقبال يحكم على هؤلاء بأنهم فقراء وأن
نارهم لا تساوى التراب . وهم على كل حال سيموتون طوعاً أو كرهاً :

المؤمن الحق كان الله غايته	والله كان لديه السمع والبصر
والآن أضحي إله المال كعبته	وخوفه الموت أفناه وما شعرا
سيان في الشرك هذا عابد ذهباً	يسعى إلى جمعه أو عابد حجراً
يا مؤمناً ببقاء الله مالك في ذعر	من الموت قد أشبهت من كفرا
قد عاد قلبك ميتاً بين أضلعه	كأنه في حنايا الصدر قد قبرا
من كان يحسب أن الموت هاوية	وأنه عدم يستأصل البشر
فنفار آماله ينحط عنصرها	إلى التراب ويلق الموت محتقرا

لما كان سم الموت سارياً في كل الدماء البشرية فقد حاول إقبال أن يوجد
من نفس السم ترياقاً؛ وكيف استطاع أن يصل بمهارة إلى استخلاص هذا الدواء
الغريب ؛ انه عمد إلى تذكرنا بأن الموت أمر محتوم وأن لكل إنسان أجلاً

محدودا وإذا كانت هذه النهاية قضاء نافذا في الخلائق فالخوف منها لا يجدى
فتيلا ومحاولة الفرار مع كونها جبنا وانحطاطا في الوجدان فهي مخالفة لحكم
العقل وصواب التفكير أيضا . فالعاقل لا يفكر في النجاة من القضاء المبرم
كما لا يفكر في أن ينفذ من أقطار السموات والأرض وهو في هذه الحالة
إلى الجنون أقرب وبالمجانين أشبه . ولهذا عرض لنا عدة صور تمثل فناء هذا
الكون وهى صور من حوادث الطبيعة تحمل إلينا فناً بديعاً في منظرها الرهيب
الخيف وتذكرنا عند مطالعتها بعوالم السموات والأرض جميعا في طريقها إلى
الانتقال أو الزوال . وكما أنها تعالج فينا خوف الموت فهى كذلك تنبهنا من غفلتنا
وترفع عن أعيننا أغشية الغرور والركون إلى زهرة الدنيا وفتنتها :

تحت نور الأفلاك عيش جميل	وأرى النور ينطق ويحول
وعلى كاهل المساء ترى للشه	س نعشا بكى عليه الأصيل
فى سنا البدر للكوأ كبأ كفان	توارى بها الشعاع النحيل
بينما هذه الجبال حصون	وإذا صخرها كثيب مهيل
وتقيم الأمواج فى البحر أبرأ	جا ومن أوجها الرفيع تزول
ورياح الخريف تكمن للزهر	وفى ثغره ابتسام بليـل
ثم تأتية ساعة يذهب الزهر	هشما وقد طواه الذبول
ليس زاد المسافرين سوى الخو	ف من الموت والحياة رحيل
رب لحن فاق البلابل سحرا	فى ضمير الأوتار مات جنينا
هرر النار قبل أن يبلغ المهـد	توارى تحت الرماد دفينـا

قطرات الندى على الورد تجرى
لؤلؤا سائلا على مرجان
لم تسكد تسعد النواظر ، حتى
بدد الريح شملها فى ثوان
إن كأس الردى تطوف على الدن
ما وتسقى أبناءها أجمعينا
وبلا موعد ودون انتظار
تبغت الأولين والآخرينا
عالم الكون كله عالم ال
محوالذى فيه مصرع العالمينا

وقد حاول أن يبدد من النفوس استسلامها إلى الدنيا وإخلادها إلى نعيمها
الزائل ودعانا إلى الحذر منها والاحتياط فيها فقدم هذا التشبيه الرائع فى هذه
الآيات :

مثل الحياة كطائر مترنم
غنى فأرقص حوله الأزهارا
ما كان أعذب لحنه لكنه
كالحم حلق فى الفضاء وطارا
لا يعلم الإنسان كيف أتى الى
دنيا المتاعب أو متى يترحل
مانحن فى الأكوان غير حديقة
أزهارها عما قليل تذبل
يأبىها الحرص أبك فى الدنيا دما
دنياك ليس بها لحي منزل
ان الحياة شرارة لم تبتسم
إلا لتجعلنا لها أخطايا
فى عرس دنيانا ما تم للردى
تضوى شيوخا فى البلى وشبابا
والمرء لم يبرح أسيرا حاراً
ما بين سر الأمس أو لغز الغد
ان الحياة على الأنام بخيلة
بدوامها والعيش غير مخلد
الموت فيها هين كنسيمها
والعيش أصعب من منال الفرقه

الله تم الى هو المفرد بالبقاء وجميع العالم لا بد أن يفنى وتفسير حلم
الموت جرى في حياة الملوك والصعاليك والعظماء والسوقة . أما خلود الإنسان
فهو من تقدير الله في الأزل إلا أن هذا الهيكل الترابي الناقص لا بد أن يمر عليه
الموت ولا بد أن يمر الإنسان من هذا العالم المملوء بالحوادث التي لم تترك صحراء
ولا مدينة ولم ينبج منها بر ولا بحر وفي ذلك يقول : —

الرعد والبروق والزلازل	والقحط والآلام والنوازل
بنات دنيانا التي لا تلد	إلا خطوبا جمرها متقد
في الكوخ والقصر وفي الصحراء	والمدن المنيعـة السماء
وفي رياض البلبـل الرنان	وفي تلال البؤم والغربان
يقتحم الموت بجيش القدر	حصون فخفور وبطش القيصر
إذا رأيت الموج في البحر سكن	فالموت كامن لإغراق السفن
لا نغم العود ولا شكوى الحزين	ولا ابتسام البشر أو دمع الأنين
ولا امتشاق السيف بين الدارعين	ولا صدى التكبير بين الهاتفين
يعيد نبض القلب في الصدر الخراب	أو يرجع النفس إذا حان الذهاب

وتعد هذه الصور الشعرية التالية نغرا لكل لغة ونفعا شجيا لكل لسان
فهو يوضح لنا أن الآلام لا بد منها لتحجيص الإنسانية وعلى نيرانها تنضج الأرواح
القوية ولا يمكن الوصول إلى الأفراح إلا بعد الأحزان ولا تنقش الحكمة على
القلب إلا بحروف من دمه . والبلبل الذي لم يعرف قسوة الخريف لا يحسن
استقبال الربيع والآلام هي الطريق إلى النور والدرجات العالية في معراج

العظمة . والذي لم يعرف أنين المساء والعاشق الذي حُرْم في هواه من حسرة جواه
وقاطف الزهر الذي حافظ على يده سليمة من الشوك والذي قضى طول عمره
في الرفاهية والترف لم يكدح في تحصيل علم ولم يكدّ في اقتناء فن وإحياء عبقرية .
أولئك جميعا محرمون إلى الأبد من الإحاطة بكنوز أسرار الحياة واستخلاص
الذهب من مناجمه العميقة . يقدم لك هذه الأمثال الجميلة في هذه القصيدة :

إن كانت الحياة خمرًا صافيا	يغمرنا من رأسنا إلى القدم
ففي الدموع للحياة جدول	تصفو به النفس وتنبت الهمم
إن حباب خمرة الآمال لا	يرقص إلا فوق أمواج الألم
والله في حكمته علّمنا	أن انشراح الصدر قبل ألم
عواصف الخريف في ليل السهاد	علمت البلبل ترجيع النغم
دم الأمانى فيه للشعر مداد	وفي خطوط الدهر أسفار الحكم
نشيد هذا الكون يبدو ناقصا	حتى يتم الدمع ألحان النشيد
ما أيقظ الشباب من سكر الهوى	إلا الأسى ينبه العقل الشريد
يارب شاك صاغ في آلامه	جواهر الألحان من بحر الأنين
قد كان مثل العود في أحلامه	فأيقظته ضربات العازفين
آلامنا إلى العلا أجنحة	نعلو بها فوق مطارات النسور
الروح سرّ والحياة ظلمة	وشعلة الآلام للأرواح نور
في خفقان القلب لحن صامت	لم تحكه على غصونها الطيور
إن الذي لم يدرك أنات المساء	ولم تسامر عيئته نجم السماء

ولم يحطم جام قلبه الأسى
والسادر اللاعب طول عمره
والعاشق المحروم فى غرامه
ومجتنى الزهر الذى لم تحتضب
جميع هؤلاء مهما سعدوا
فإن أسرار الحياة تختفى
ولم ينز ظلام ليله البكاء
لم يستمع إلا إلى عذب الغناء
من لوعة الذكرى وحسرة الجفاء
يداه فى الشوك بمحمرة الدماء
من نعم الدنيا بأمن ورخاء
عنهم وهم عنها دوا ما فى اختفاء

وإنه ليلسكك العجب إذا رأيت الشعراء جميعاً فى ناحية وإقبالاً وحده فى ناحية
أخرى فهم يتغنون بالوصال ويذمون الفراق ويتبرمون بالأسفار ويحمدون الإقامة
الهائلة بينما هو يحب الرحلة والتجوال ويطرب لدممة الرعود وأزيز المراحل
وصخبية الأمواج فيقول :

الوصل فى الحب غال
الوصل حلو ولكن
فى القرب موت الأمانى
والبعد فيه حياة
إن اتقادا الأمانى
وضجة الخلق سعيًا
والسحب حين تراها
والموج فى البحر يملو
وقيمة الهجر أغلى
عواقب الهجر أحلى
والعيش فيه فناء
يذكر ضيائها الرجاء
وحسن شدو الطيور
فى العالم المعمور
تسقى الربى واليباب
حتى يفوق الهضاب

وكل ما في البرايا من روعة وجلال

لولا يد الهجر فيه لم يزدهر بالجمال

يحدثنا إقبال عن الظواهر الكونية بلغة ساحرة ويبين لنا مرارا أن الربيع لا تتفتح أزهاره ولا تنضج أغصانه ولا يبدو كل ذلك جميلا في الحقائق إلا عند ما تتساقط كل الأوراق بعواصف الخريف وتبدو الطبيعة جافة صامتة نائمة حتى يُوقظها ذلك الربيع بتغريد أطياره كما مر في الصور السابقة فيقول لنا إن ظواهر الحياة تعطينا درسا بليغا فليس الموت إلا غروبا لشمس الروح ثم تسطع بعد ذلك فيصبح الخلود الذي لا فناء بعده :

يزعم الجاهلون أن المنايا مغرب فيه للحياة انقضاء

أفلم ينظروا إلى الشمس يبدو نورها بعدما طواها المساء

تغرب النفس ثم يشرق صبح فيه للنفس بالخلود ارتقاء

عند ما أريد بناء مستشفى في الحجاز أراد إقبال أن يقدم إلينا من سحره بلسم يهون صدمة الموت ويوضح أن المرء بعد اجتياز تلك المرحلة يحيى حياة هائلة لا يحياها الخضر في عمره الطويل. ثم يهون احتمال الصدمة الأخيرة بعبارة سما فيها خياله وتصويره. فأنت ترى أن الشاعر ينظم القصيدة فإذا لم يجد لها ملائمة لطبيعة روحه حذف منها أشياء وأثبت غيرها جديدة وأعمل فيها التغيير والتبديل. كذلك الرسام والمهندس والكاتب وكل الفنانين الذين نشاهد مبتكراتهم أمام أعيننا. والقدرة تبداع في فن الإنسان وترقى به تحسينا وتجيلا. وليس الموت إلا حالة يراد بها إصلاح النفس وأعلىها وتجلي لك هذه الحقيقة

واضحة في هذه الآيات :

يا أساة الحجاز هل لآعلم	أن بُرء الحياة أرض الحجاز
إن سر الحياة يكمن في الموت	فيحكي حقيقة في مجاز
فرح المؤمنين في سكرة الموت	بقرب المهيمن المتعالى
هو أسمى من عيشة الخضر	في الدنيا طوال الدهور والأجيال
لم جئتم للمؤمنين ببرء	إن إيمانهم يداوى الجريحا
والذي ذاق من يد الوحي كأسا	ليس يحتاج للدواء مسيحا
كل كون أبلته أيدي الليالي	أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعد حين لينى	منزلا عاليا وقصرا مشيدا

في أحوال عديدة وبأساليب مختلفة يبين شاعرنا أن الحياة تختفي ضعيفة لتظهر قوية فلا خوف من ذهاب شيء لأنه سيظهر بصورة أجمل وأحسن كما مر في الصورة السابقة ، وفي هذه القطعة يتحدث لنا عن تزلزل الحياة واضطرابها الدائم ليزيدنا يقيناً بها :

في خضم الحياة يضطرب المو	ج ولا يستقر في أى حال
ثوران الحياة في الكون باد	كل شيء به رهين انتقال
كل ذرات هذه الأرض دوما	في احتدام وثورة واشتعال
لا يغرنك في الجبال سكون	قد يحى السكون بالزلال
ليس ذاك الثبات في الفلك الـ	دائر إلا من خدعة الأنظار
لا تنى في المسير قافلة الكون	ولا تنتهى من الأسفار

عالم دائم التجدد موّار الـ خُطى' ليس فى الطريق بوان
لا عمل التغير إلا خمول ليس يدرى مائدة الطيران
الحياة الجهاد والجد والوث بة والعزم ماضياً والبكور
يُقطف الزهر فى الفروع والكن فوق تلك الفروع تنمو زهور

إقبال يعرف هذه الحقيقة ويخلق لها من الطبيعة أجمل الصور وأحدث
التشبيهات لينزل اليأس المظلم بنور الأمل المشرق . وفى هذه الأبيات دقة هذه
المعانى متجلية تريك الحياة ماثلة فى تغيرها من جميل إلى أجمل ومن حسن إلى
أحسن . فهو يخاطب النجم الذى يلمع فى ظلام حالك مضطرباً فى القبة الزرقاء
قائلاً : لعلك تحشى فناء حياتك بإشراق الصباح ، فذلك تقضى ليلك فى فزع .
ويقول للمسافر فى رحلة الدنيا : إن موت البراعم حياة للزهور :

فناء ملايين النجوم مبشّر بأنوار شمس فى السماوات تولد
ونوم الردى سكر سيعقب نشوة بخمر حياة فى الخلود تُجدّد
وتوديع أيام البراعم مؤذن بخلق الزهور بالاسمات جمالا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر فإنى أرى فيه السكون محالا
وليس سوى التغير فى الكون ثابت يغيرّ حالا ثم ينشئُ حالا

فى هدوء المساء يقف إقبال فى عالم سكينته وأحلامه على شاطئ نهر
(راوى) ناظراً إلى منار قصر الملك الجفتائى الذى يُسمعه قصة انقلاب الزمن
ثم يتأمل إلى سفينة تجرى بسرعة فى البحر ثم تغيب عن الأنظار فيتترجم عن
فكره النير بهذا البيت :

سفينة عيش المرء تبدو وتختفي ولكنها في الموج لا تتحطم
وقد تحدث إقبال في صور مختلفة عن خلود الحياة الإنسانية والآن : تأمل
إلى النهر الذى ينحدر من القمم المرتفعة فى ملاءة البيضاء هابطا كسلاسل
الفضة مُرسلا من خريزه نغما شجيا يتعلم منه البلبل ترجيع ألحانه حتى إذا هبط
إلى السفوح والوديان تفرقت قطراته كما يتفرق الآلاف وكأنك لا ترى الآن
من ذلك الماء السلسال شيئا فإذا سرت قليلا بعد ذلك بين الرمال رأيت النهر
متجليا فى حلاه الفضية يسقى من حوله الغابات والأعشاب . كذلك نهر الحياة
يهبط من سمائها ثم يغيب حيناً ليظهر منسقا فى مجرى الخلود . ويقدم لنا هذه
الصورة الأنيقة :

من رؤوس الجبال ينحدر النهر	طروب الأمواج عذب الأغاني
ينقل الطير عنه بين الروابي	ما يث الفصون من ألحان
كخدود الحور الحسان تراه	فى صفاء البلور حلو الخريف
ثم تمضى تلك المياه ضياءاً	فى تلال منثورة وصخور
قطرات من النسيم طوها	فى ثنايا الرمال أيدى الفراق
ثم تجرى بها الينابيع فى الأرض	فتحظى بعد النوى بالتلاق
فإذا النهر بعد ذلك فى	مجره يحى الزهور والأعشابا
فضة تنبت الزمرد فى	الأرض وتسقى النخيل والأعشابا
وحياة الإنسان نهر سماوى	توالت بسيره الأقدار
كلما غاض مأوه عاد فياضا	فما ينقضى له تيار

شعلة النفس لا تصير رمادا ضوءها خالد على الأزمان
كل شئ يمضى وكل حياة تنقضى غير جوهر الإنسان
ويطالعنا إقبال بيهان عميق يحملنا على الإذعان والتصديق ويزيد الإيمان
في أنفسنا جلاء ووضوحا وذلك أنه لما كان الحرص على الحياة وتنازع البقاء
مما هو مركز في جميع طباع الأحياء مستقر في غراز الكائنات وكأن القدرة
بذلك نقشت سر الخلود في حب الحياة . وعموم الموت وشموله يدلنا على أنه
لا يؤثر في حقيقة الوجود وأنه لا يزيد عن كونه أمرا عرضيا كالنوم الذي لا يؤثر
في حيوية النائم وإلى هذا المعنى يشير بقوله :

سر الخلود جرى مع الدم في العروق وخالط الأرواح والأحياء
لم يُحِينَا الرحمن في الدنيا سدى وهو الحكيم مشيئة وقضاء
لما رأيت الموت يشملنا علما مت بأنه لن يستحيل فناء
الموت مثل النوم يبدأ سكا رةً ويعود صحوا دائما وبقاء
لا توجد في علوم الطبيعة قيمة خاصة للحياة الإنسانية وليس للمعاني
الإنسانية العليا شأن خاص في هذه الكائنات ولكن الدين يعلمنا أن
الإنسان أشرف المخلوقات بل ان هذه الكائنات خلقت لأجله .

وإذا كان هذا صحيحا فتأملوا إلى تلك النجوم التي تنير منذ ملايين السنين
التي تسكب العقول دون حساب أعمارها فلنوازنها بالإنسان الذي هو أبعد نظرا
وأعلى قيمة وشرفا من النجوم ومما وراء الأفلاك . وليست السماء في سعة فطرته
إلا نقطة ومقصد حياته أعلى من مقامات الملائكة ومن أنفاسه يتجلى النور في

محافل القدرة وقد حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها. فهل تحيا هذه النجوم كل هذا العمر الطويل والإنسان الذي يسامياها بقلامة ظفره يفنى في لحظة ؟ . وهل هو أقل من هذه الذرات اللامعة حتى تبقى هي في لمعانها ثم يمحي ضوءه في لحظة ؟ . :

يا أيها المسلم إن الأرض والسماء لك
ضياؤك القدسي أعلى من شرارات الفلك
ما جمّت في الدنيا لتفنى وهي بالخلد تدوم
هل تصبح الشمس أقل قيمة من النجوم

تأملوا إلى حقيقة البذور عند ما غطيت بتراب الأرض وهي لم تضمحلّ تحت الثرى ولم ينضب معين حيويتها وهي دفينة في ترابها. بل كانت في تفاعلها مضطربة للنشوة والنماء وشعلة الحياة المستورة في وجودها لم تنطف من تلك الظلمات حتى نمت وترعرعت وفتحت أكامها بالزهور الباسمات عن أجل الألوان وأعطرت النسيم حتى أوحى إلى نفس الشاعر هذه الأبيات :

لقد دفنوا في التراب البذورا فلم تفن في لحدها الهامد
ولم تنطفئ نارها في الحياة على طول مرقدها البارد
لقد نسجت للحياة القباء وصاغت من الزهر أبهى حُلاه
نما غصنها زاهرا واستعادت من الموت تجديد ذوق الحياه

الشاعر الواحد يعبر عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة ولا ضير عليه من تكرار المعنى الذي تفتن له في تجديد الحلة وتجميل الأسلوب وهذا هو شأن

إقبال . فقد عبر لنا عن مساء الموت وصبح الخلود فى الصور السابقة ثم هو يعيد هذا المعنى فى ثوب آخر حين يعرض علينا الصبح مقبلا فى حالته الباهرة فيوقظ العالم لاستقبال الحياة بنشوة وأمل وما الموت إلا صورة لهذا المشهد الطبيعى الجميل وإليك هذه الأبيات :

حينما يسفر الصبح نديًا ناصعا فى مواكب الإشراق
يغسل النور فى المشارق أدران الدياجى عن حلة الآفاق

ويطير الكرى وينتبه العشب وتصحو عزائم الكائنات
ويهبُّ الأحياء فى البر والبحر ر ليستقبلوا عروس الحياة

وإذا كان للخلائق ناموس يرينا الصبح بعد المساء
فكنا تذهب الحياة ولكن بعد ليل الحمام صبح البقاء
ليست حلقات الحياة الإنسانية ضيقة إلى حد أن ترتبط بالهيكل الترابى وجودا وعدما .

ثم ان الدنيا أول المنازل وليست آخرها . هذه القبة الزرقاء ليست نهاية وجودنا وليست الأجسام إلا وكرًا لهذه الأرواح فإذا ذهب الوكر يخلق وكر آخر . هذا هو عمل الفطرة التى لا تتقيد بسلسلتى الليل والنهار . وقد حدثنا إقبال عن هذا العمل أحسن الحديث وبين أن المسلم عظيم الشأن فى الخلود وأنه أقوى وأعظم من هذا الكون المحدود :

فوق السماء أيها الحرّ سماوات آخر
بعد الحياة أيها المسلم تبدأ الحياة
إن البرايا دول بها الفضاء حافل
وكم وراء عالم الألوان من عوالم
كل الذي تعرفه ليس نهاية الوجود
إن هُدم العرش ففي البستان تنشأ الكور
فبعد هذا الظل يا بلبل ماء وهواء
الليل والنهار للآمال لا يتسعان

تذهب الأفراد ويبقى النسل والأمة . ويجب على المسلمين أن يذكروا أن
بقاءهم في هذه الدنيا ضروري لتكميل حكمة الله، والرسالة التي لم تتم في أمّتي
الخليل والكليم يتمها أذان المسلم . إن النسيم العليل يمرّ على البراعم ولكن
الزهور لا تستكمل نموها حتى تُدْمَى يد البستاني أغصانها وأشجارها بالتشذيب.
والصاعقة تسقط على وكر القمري فيموت والبلبل يقع فريسة في شرك الصياد
ولكن رونق الربيع باق. وآلاف الطيور تقبل وتنشد ألحانها وتطير والبستان
لا يزال قائماً :

إذا سقطت زهرة في الربيع
وياربّ أولؤة حطموها
فكم في بساينه من زهور
لترُفع في التاج أو في النحور

يغيب الصباح من المشرقين ويمضي المساء من المغربين
وما زال يقبل هذا وذاك جديدين في حلة النيرين

مئات السفين مضت في الحياة وما استنفدت بحر أزمانها
وكم أفرغ الشاربون الكؤوس وما زالت الخمر في حانها

وكم زال أمس فوافي غد وكم أشرق النور بعد الظلم
يزول عن الأرض أفرادها وتبقى الشعوب بها والأمم

المسلم آية من آيات الله ، وآيات الله لا تزول . المسلم باق ليرفع العلم ويتسنى
خلافة الأرض . وأعداء الإسلام يحاولون أن يسقط هذا العلم وأن يذهب
المسلمون ولكن هؤلاء الأعداء أنفسهم كثيرا ما يشاهدون نور الإسلام
فيصبحون في طليعة أنصاره وحماة فينقلب عدوانهم حماية ورعاية . وإذا سقطت
بعض مواطن المسلمين فالمسلم سيديق والإسلام لن يفنى :

ذلك المسلم من أندلس سيعيد العزم في الشمس مكانه
من سقاء العشق يوما خمره لم يعد في السكر محتاجا لحانه

والليالي علمتنا عبرا في الذي مرّ به غزو القطار
كفروا ثم اجتعلوا نور الهدى فاهتدوا لما رأوا ذاك المنار

عرفوا الإسلام فانقادوا له وغدا أعداؤه ركن حماء
عزت الكعبة وانهار الصنم وهوى الشرك بتوحيد الإله

إن هذا العصر ليل فائز أيها المسلم ليل الحارين
وسفين الحق في لج الهوى لا يرى غيرك ربان السفين

أنت كنز الدر والياقوت في موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى صوتك العالی وإن لم يسمعوك

ليس في الوقت فراغ فاعتزم واملأ الدنيا بأعمال شريفه
أنت نور الأرض تهدي أهلها لن يرى غيرك في الأرض خليفه

ما زال المسلم ممتحنًا بالشدائد والحوادث الجسام . ولقد انهالت على المسلمين
مصائب الزمن ورأوا من البلايا ماضع بمثله ملك جميع الأمم السابقة من إغريق
ويونان ورومان وفراعنة . ولكن الحوادث ارتدت عن المسلم كما تردت الحصباء
عن القلعة الشامخة . وكل مصيبة تنزل بالمسلم تصير عاملا على إسماعده وسببا في رقيه :

نحن نهدي الخلق زهرا وثمرا وسوانا يبعث النار ضراما
كل نمرود إذا أوقد نارا عادت النيران بردا وسلاما

نحن بالإيمان بنى عزنا لا نبالي الهول أو نخشى الصعاب

وإذا الباغي رمى في غرسنا جذوة الظلم جعلناها ترابا

ذهب اليونان والرومان والفرس قدما وفراعين الزمان
وهدى الإسلام ما زال على قمة الدنيا يدوي بالأذان
وهاهو يذكرنا بأن الممثل لوجود الملة هو الأمة، وأما الأفراد فهم زائلون،
بهذا يدعو المسلم إلى أن يبذل نفسه فرداً لكي يحيا دولةً وشعباً، ثم يذكره
بأصله الأزلي وفرعه الأبدي ويضع نار اليقين في صدر المسلم محمولة إليه في ثفايا
هذه الآيات :

معيشة الفرد خيال والبقاء للأمم
فكن فداء المبدأ الـ أعلى إذا نادى العلم

منزلك العلو لا تحجب صرحه الغيوم
أنت من الجيش الذي غبار خيله النجوم

في العالم الأول من مطالع الأنوار كنت
والناطق الأخير في رسالة الرحمن أنت

قم وانشر التوحيد في الدنيا ووحد الأمم
فأنت خير من دعا وأنت خير من حكم

المنظر الذى يروع الإنسان هو حركة الموت التى تسكن بعدها الأعضاء وتبرد الحواس ، فحينما يراك إقبال مرتعدا مذعورا لهذا المشهد الرهيب يضع على قلبك برد العزاء ويبين لك أن ملك الموت لا يميت الأرواح وإن أفنى عالم الأشباح :

يعصف الموت بالجسوم ولكن ليس يُفنى من قوة النفس شيئا
تصعد الروح للخلود ويبقى عالم الغيب والشهادة حيا
لا تمت من مخافة الموت جهلا فبغير الأنفاس روحك تحيا
ليس الإنسان من هذا العالم فى شيء فجميع ما حوله من المظاهر المادية
تضمحل وتذهب مع الهشيم ويبقى بعد ذلك جوهر الإنسان ساطعا . يحدثننا
عنه إقبال :

هوى سرير « كيقباد »^(١) وانطوى إكليل « جم »
وأصبح الكل رمادا مثل هيكल الصنم

أما أنا فلست أدرى أين يعلو نظرى
أنا تراب غير أن الـ شمس دون جوهرى
فى سكون السحر تنفتح قلوب الشعراء كما تنفتح الأزهار لتحتضن النسيم
وتستقبل الندى وتضى مشاعر ذلك القلب على الأحياء وغير الأحياء حتى تتسع

(١) كيقباد وجم من ملوك الفرس القدماء .

للووجود كله بما فيه من ماضٍ وحاضر فينظر إلى تل من الرماد فيسمع من صمته
حزن الماضي ويقول إننى كنت شجرة مشتعلة يأوى المدج إلى نارى ثم أطفأتنى
عواصف الصحراء . هكذا سمع إقبال وسرعان ما تلفت فإذا نهر «الसार»^(١) قد
صفت مياهه كأنها مرآة لنجوم السماء فعادت نفسه الحزينة إلى الأمل بعد اليأس
والرجاء بعد الخوف وحدث عن هذه المشاعر بقوله :

قد تغنى قلبي فأسمع أذنى نغما فاق رنة الأوتار
وكأنى رأيت نهر حياتى نابعا من صفاء عين السار

أزلى بمنصرى أبدى منزلى فى الخلود فوق المنازل
إن جسمى من التراب ولكن روحى البحر ماله من ساحل
ما دام المرء لا يقف على حقيقة نفسه ومادام يقيس الجوهر الإنسانى بالهيكل
الترابى فإنه كل وقت مستهدف للخوف من ساعته الأخيرة . وإقبال يندد
بهؤلاء ويصفهم بهذا البيت :

يلازم خوف الموت كل مضلل يرى أن مقياس الحياة ترابها
إن الذى يحافظ على كمال ذاتيته يحيا بكل شئ حتى بعوامل الموت نفسها هذه
الكواكب والأقمار تزول ولكن نشوة الذاتية لا يخبو لمعانها إلى الأبد .
والذى تمكن من كمال ذاتيته ونضج إيمانه لا يخاف من الموت القادم . وقد أفهمنا
إقبال مرارا أن ارتكاب أقبح الذنوب أساسه الخوف ولا سيما خوف الموت . هذه
الخشية وما يتبعها من يأس وقنوطية أم الخبائث كالنخر التى تخدر الأعصاب

وتذهل الروح عن مقاومة الصعاب . وكثيرا ما وازن بين القلوب الفزعة
المضطربة والقلوب الآمنة الثابتة وبين أن الواثق بنفسه يهجم على الأسد كأنه
من المعز والخائف يفر من الغزال كأن أسدا تعقبه . ولو لم تكن في قلوبنا شائبة
الوجل لعبنا البحر كأنه صحراء . وأما الفزع فيرينا في كل موجة تمساحا :

يعلمو على الموت من تسمو إرادته	وفي عزيمة صدق وإيمان
عمر السكوا كب محدود وأنت إلى	غير انتهاء بكأس الخلد ريان
يرى الجبان غزال القاع مرتعدا	كأنه أسد في القاع ضرغام
والحر يلقى سود الغيل مبتسما	حتى كأن أسود الغيل أغنام
إن الشجاع يخوض البحر ممتحما	كأنما الموج أزهار وأدواح
وموجة النهر في عين الجبان بها	غول وحوت وتنين وتمساح
ويقول :-	

المؤمنون على عنا	ية ربهم يتوكلون
لا خوف يفرعهم ولا	هم في الحوادث يحزنون
لو مر أضعفهم على	فرعون يجتز الرؤوسا
لأراك في الإفصاح ها	رونا وفي الإيمان موسى
إني رأيت الخوف في الـ	دنيا عدوا للعمل
هو مطلق نور الرجا	وسالب كنز الأمل
يرى الإرادة بالتزا	زل والعزيمة بالخور

ومن احتواه الخوف لا
 المؤمن الوثاب تع
 والخائف الهيب يغرق
 تلقاه عند شبابه
 وتعترت قدماء قب
 في السلم قبل الحرب مس
 الصبر عنه نافر
 أعداؤكم يخشون سي
 ومرامهم أن تسرعوا
 حتى تروا نظراتهم
 وهناك يقتطفونكم
 الحق والكذب الصرا
 واليأس والجبن المذ
 تلك الرذائل في شعو
 لولا المخاوف ما سمع
 الشرك يصنع من خيوط
 لولاه لم نسمع بكف
 المؤمنون لهم من المولى
 بلغوا الكمال فهم عن ال
 يجنى من الروض الثمر
 صمه من الهول السكينة
 وهو في ظل السفينة
 هرما قد انحطت قواه
 ل الخطو وارتعشت يداه
 لوب الشجاعة حائر
 واللب منه طائر
 ف يقيفكم قبل السيوف
 بالخوف من قبل الختوف
 مثل الخناجر في الصدور
 من أرضكم قطف الزهور
 ح وكل مكر أو دهاء
 ل وكل غش والتواء
 ب الأرض أبواب الفناء
 ما باسمها تحت السماء
 الخوف أشراك البلاء
 ر أو نفاق أو رياء
 أمان الأولياء
 دنيا العريضة أغنياء

ثقة الكريم بنفسه تعلو به فوق الزمن
والحزن سم قاتل لا تشربوا سم الحزن
الموت والحرية الشما والشرف المكين
هى خير ما نحيا به وهى الغنى للمؤمنين
أما المفضض والمذه ب والمفوف والنضيد
فلقد تركناها رُم بّاد الخطام وللعبيد

القلب المحيط بأسرار الطبيعة لا يأخذه هلع ولا يشك فى أن وراء سكون
الجسم محشراً جديداً للخلود وفى صمت الليل تكمن أحلام لثورة الغد :

فى سكون الماء يختبئ الفجر وصمت الظلام حُلم النهار
وسكون القبور يرقب للبعث قدوما فى موكب الأقدار
وعلامة المؤمن الحق أن يرضى بحكم الأجل بل يتسامى إلى أكثر من
ذلك فيرى فى لقاء الله سعادة يتقسم لها كما ابتسم إقبال قبل موته بهذه الكلمات :

آية المؤمن أن يلقى الردى باسم الثغر سرورا ورضا
لا أرى مؤمناً يخالجه الخو ف إذا أقبل القضاء عليه
يتلقى الردى بصبر جميل وابتسام الرضى على شفقيه

كان خالد بن الوليد يعرض عند موته أكثر من مئة وعشرين إصابة وهو
فخور بتلك الجروح إلا أن فخره هذا كان ينقصه الاستشهاد . فإن عظيم
النفس لا يموت موت الحشرات فى مساربها بل موت الأسود مناضلة عن عرينها .
وقد كان إقبال يرثى أحد الذين ماتوا بعد أن خلدوا لأنفسهم ذكراً عاطراً تحت
السما وكانه يصف نفسه حينما قال : —

مات ولكن لم يمت فهو غمد الثناء
له من الذكرى حياة لا يشوبها الفناء
إن شئت فاحي مثله قبل نهاية الأجل
إن الحياة في الجها د والخلود للعمل

توجهت قافلة من قوافل الحجيج من مكة إلى المدينة ففاجأها قطاع الطريق.
فاستولى على رجال القافلة الرعب وسقطوا فريسة النهب والسلب إلا فتى بخاريا
صمد للموت ولكنه نجى وسار وحيدا يناجى أشواقه إلى المدينة فكان صداها
هذه الأبيات : —

هل أنا كم حديث قافلة الحجاج إذ غالها عدوٌّ مريد
في طريق المدينة انتهب الركبان والمنزل المراد بعيد
يسأل العابرون عن ساحل الصحراء والجو موخش عرييد
فتلقَّتهم المخاوف بالموت و ضلت بهم فياف وييد
غير ذاك الفتى البخارى لم يبرحه إيمان قلبه الوثاب
يتمنى في الشوق سم المفا يا كتمنى الظمان برد الشراب
ملء جنبه للمدينة شوق يتغنى بنشوة التوحيد
ويرى الخنجر المصو ب بالموت إلى صدره هلال العيد
كان خوف الردى يقول له ارجح ويقول الإيمان سر في أمان
ومضى آمنا وحل كريما وتلقته روضة الرضوان
قد يسير الحجيج في الحمل الشامى في مأمن من الأخطار

ونعيم الأشواق يعرفه من ذا قمرٍ الأخطار بين القفار

يخسر العقل نوره حين يأوى قانعا بالهوان خوف الحسارة
إن في لذة المتاعب ربها معنويا يفوق ربح التجارة

كل أمة عظيمة لم تكتب عظمتها إلا بالتضحيات والدماء الغالية . فاسمع
إقبالا يمين لنا أن ديباجة الكعبة مخضبة باللون الأحمر . فهي قصة تبدأ بالدم
وتنتهي به . بدأت أولا بإسماعيل الذي أراد أن يضحي نفسه في مقام التسليم لله
والطاعة لأبيه، فهي قصة دامية وإن لم تُرَق فيها الدماء . وكذلك انتهت بذكري
الحسين الذي جاءت إلى الحرم تقطر دما من كربلاء :

في الكعبة العليا وقصتها نبأ يفيض دماً على الحجر
بدأت بإسماعيل عبرتها ودم الحسين نهاية العبر

إن إرواء الشجرة القومية لا يكون من ماء البحر بل من دماء صدور الشهداء
الأبطال . وشرف الملة يتلأأ في ذلك الجام الذي امتلأ بدم الشهداء :

ارفعوا الورد والشقائق اكليل ثناء على ضريح الشهيد
ذاك لون الدم الذي أنبت المجد وروى به حياة الخلود

كانت إحدى بنات العرب واسمها فاطمة تسقى الغزاة ماء في حرب طرابلس
ثم استشهدت . فهو يلقب هذه المجاهدة بلا سيف ولا ترس شرف أمة الإسلام .
كانت عينه تسكب دموع الشعر في هذه الحادثة ولكن ماتها الحزين كان يبعث

أيضا سحر النشيد في البستان الذي أذبلت عواصف الخريف بأغصانه عادت
إحدى البراعم الساقطة فنمت وتفتح زهرها الجميل بعد أن ظن أنها جفت وماتت:

في ثنایا الودیان تختبئ الغز لان خلف الشعاب مخفيات
والبروق اللوامع استترت خلف ضباب السحاب الممطرات

وبعد أن كشف في جملة أشعاره تلك الحقائق الجليلة بين أيضا أسرار الموت
والحياة في كتابه « جاويدنامه » على لسان الملك الشهيد « تيبو » الذي يُسمع
قصةً بحرو يرى^(١) حيث يوضح أن الحياة أصل الحقيقة وأن الموت خدعة عارضة.

وأن الحياة محرمة على الأذلاء الذين استعبدتهم خوف الموت :

إن الجبان يموت في أوهامه حذر المات وخوفه يفنيه
والحر تسعده المواطن كلها بالعيش حتى موته يحيه
وأرى المنايا كالحياة تفاوتت في سؤوقها الأقدار والأرواح
لا يستوى قتل الحسين وغيره هل يستوى المصباح والإصباح

ليس الموت إلا سما حياة الذلة. وفقد الرؤوس في الفضال مع الشرف لا يقل

قيمة عن البقاء الدائم . فلحظة من عمر الأسد خير من حياة الشاة مائة عام :

العمر لا يقاس بالأعوام والعقل لا يقاس بالأجسام
واليوم من عمر أسود الأجم بألف عام من حياة الغنم
الخضر قد قال له الإسكندر مقالة على الزمان تؤثر :
عش ساعة في لجج البحار ومت شهيد الموج والتيار

ولا نعيش دهر كعيش الخامل مقيّدا بين صخور الساحل
الموت في الوغى وفي الميدان ولا حياة الأسر والهوان
ليست قيمة الحياة بقصرها أو بطولها ولكن قيمتها في أعمالها ولذتها في
جهادها . فالفرش يمدل الحياة رخيصة في لذة لحظة يطوف بها حول السراج حتى
يفنى في ناره المتوجهة :

رأيت الفراشة حول السراج تحوم على ناره بالجنّاح
فحاولت انقاذها فانثنت تعاتبني في مقال صُراح
هبوني من دهر كم لحظةً أموج بها في اللهب اضطرابا
أنال بها شرفا في الجهاد واصبح من بعد هذا ترابا

أحبّ احتراقى بنارا شتياقي ولا أرتضى عيشة الخاملين
فناء الفراشة في النار يعلو حياة الجبان طوال السنين
الأعمال كثيرة والأوقات قصيرة لا يهمنا أن نعيش طويلا ولكن يهمنا
أن نعمل عملا جليلا . إن الأحياء الحقيقيين هم الذين جاهدوا وهم الذين صور
لنا جهادهم إقبال وضرب لنا منهم الأمثال .

ووقف إقبال على قبر نابليون وقفة المستعبر مفكراً يقول : إن هذا وإن نام
في راحة الأبد ولكن لا يزال أمام أعيننا ذلك الوقت الذي زلزل فيه العالم ،
ثم يكشف أسرار الموت والحياة وهو قائم على ذلك القبر . ويترك لنا رسالة الحياة
والعمل ، ويقول لنا إن الدنيا لحظة أو لحظتان وبمدها نوم القبر الطويل في منازل

الصامتين فارم سهمك إلى قبة الفلك :

إذا كانت الأقدار سرا محجبا فإن جهاد الحر يجلو لنا القدر

جهاد الفتى يعلو به فوق قدره وفوق الأمانى والمواهب والفكر

لقد بلغ الإسكندر القمة التى يقصر عن أدنى مواقعها الصقر

رأى جبل الألوند أسياف جيشه فأذعن حتى ذاب من رعبه الصخر

وتيمور بين الفاتحين مضت له وقائع لم يسمع بهن زمان

يمزق شمل السهل والوعر جيشه كما انساب فى شلاله فيضان

بنور الجهاد الحى سار محمد بجيش على رايته الفوز إكليل

يكبر جند الله حول ركابه فيهتف بالبشرى وبالنصر جبريل

أرى فرصة الأعمال ومضة بارق يضى ثنائها لمحبة ويزول

إلى الفوز جاهد ما استطعت ولا تنم فى القبر نوم بعد ذاك طويل

منازل وادي الصامتين على الملى ستبقى بها حتى النشور مقيا

إذا العزم نادى فارم سهمك صاعدا على قبة الأفلاك وامض عظما

شكوى وجواب شكوى

قصيدتان تمدان في طليعة ما نظم إقبال في اللغة الأردنية حاول بهما أن يستحث همم المسلمين إلى طلب الرفعة والطموح إلى المجد واستخلاص تراث الماضي من بين برائن الدهر والعودة بالركب الإسلامي إلى قافلة الحياة الدائمة في سيرها صوب الكمال . أما أولاهما فقد اتجه بها إلى الله تعالى شاكياً ما أصاب المسلمين من الأحداث والغير التي تخلفت بهم عن ركب الحضارة وهم الذين حملوا شعلتها ورفعوا مصباحها لعصور الدهر وأجياله .

نراه في مطلع شكوى يصور أشجانه وآلامه ثم يوجه العتب المرير إلى نفسه واستسلامها للمحن ويقول لماذا أبقي بقاء الزهرة الخرساء ولا أحلق كالطير المغرد .. ثم يستأذن على عتبات المقام الإلهي وفي فمه التراب ليعلن صرخة المسلمين ويحجّر بدعواتهم ولم لا وقيشارته مملوءة بالأنين والأشجان تريد أن تنطق على شفتيه بأنفاسه المتصاعدة .

رباه إليك شكوى عبيدك الأوفياء الذين لم يتعودوا إلا إزجاء الحمد وترتيل الثناء .

لقد كانت الدنيا قبل هذا الدين الإسلامي عالماً من الظلام تسوده الوثنية وتحكمه الأصنام وفي بقاع هذا المعمور كانت سجدات الإنسان لا تعرف غير الأوثان ولم يكن الإنسان يعبد غير التماثيل المنحوتة من الأحجار والصور المصنوعة من الأشجار وحارت فلسفة اليونان وتشريع الرومان وضلت حكمة

الصين في الفلوات . ولكن ساعد المسلم القوى اقتلع من الأرض شجرة الإلحاد وأطلع على الإنسانية نوراً من التوحيد وظلا من الاتحاد .

رباه ! لقد كانت بساتين هذا الكون بغير أنغام وأزهارها خالية من العطر وكان هواؤها دوى العاصفة ونسيمها دمدمة الرعود حتى إذا جاء رسول مكة الأُمى علم أهل الأرض حياة أهل السماء ودلّ سكان عالم الفناء على طريق عالم البقاء .

نحن الذين نشرنا في الروض العبير ومحونا آية الليل بآية الصبح المنير ؛ أصبح إيماننا جنون عشق فوجهنا الإنسانية بنورك في مثل كرة الطرف إلى معرفة الحق والنور والجمال .

لقد كانت الدنيا عامرة بشعوب وممالك وكان بها السليجوقي والتوراني والصيني وكان بهاملك ساسان وبقايا الرومان واليونان فرفعنا علم التوحيد وجمعنا أبناء البشر وأجياله أسرة مؤمنة بك موحدة لك . أصلحنا الفاسد وقومنا المعوج وناضلنا في البر والبحر وارتفع صوتنا بالأذان فوق معابد أوروبا وارتسمت سجداتنا على رمال الصحراء في أفريقيا لم نخش عسف الأكاسرة ولا طغيان الجبابرة ولا سلطان الأباطرة وأسمعنا العالم كله كلمة التوحيد . وصليل السيوف المشرعات كان يدوى مع الهاتفين لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك القدوس العزيز الحكيم لم نكن نحصر على الحياة ولكن كنا نجاهد من أجل دينك ليحيا إلى الأبد في تقانينا وما بعنا الأرواح لدينا نشترها بل كنا نطوف حول الكرة ورؤوسنا على أكتفنا لنجعل اسمك الأعلى مناراً ونحن نحطم في تطوافنا

الهياكل والأصنام جاعلين فضتها ونضارها تراباً تحت الأقدام . ولو أن أقدام
الأسود تزلزلت من هول الميادين فلقد كانت أقدامنا على الشوك والنار لا تأذن
لشمس النهار أن تغرب حتى يضيء لنا هلال الانتصار . لقد نقشنا توحيدك على
كل قلب والإيمان بك في كل ضمير . نرحب بالحنوف ونرى الجنة تحت ظلال
السيوف؛ من الذي جعل درعه يوم الجهاد باب خير؟ ومن الذي حمل مصباح الحق
إلى مدينة قيصر؟ من قبلنا هدم الثمانييل وقوض صرح الأباطيل .. من الذي
رد جيوش الكفار وأبطل في الفرس عبادة النار؟ .

أما أيقظنا الكون الهاجع بصوت الأذان .. ألم نقيم الصلاة تحت الأسنة
في الميدان؟ حتى سجدت لك على الأرض الأوثان وسمع تكبيرنا في الجنة
رضوان .

لقد كانت وجوهنا إلى الكعبة وعزائمنا إلى الميدان وقلوبنا إليك وصلى بين
يديك السوقة والأمير والغنى والفقير ووقف محمود الغزنوي الملك وعبداه إياز وجسمها
في الهند وقلباها إلى الحجاز، كنا ندور بكأس الإيمان في محفل الكون والمكان
لم نقف عند الصحارى والقفار بل امتطينا النجائب من أمواج البحار حتى
استضاءت النيرات بوجوه مجاهديننا في بحر الظلمات ومحونا الباطل من كتاب
الدهر وحررنا المستعبدين وملأنا بجباهنا بيتك المعمور وجعلنا آياتك مصحفاً
في الصدور .

إنى لأرى فى شعوب المدنية الزائفة من يجترئون على الخطايا ويقتحمون حرم الفضائل والآداب وفيهم سكارى الخمر وسكارى الإلحاد ، ولكن الدنيا ترسل عليهم السحب أمطارا وتمطر أرضنا صواعق ونارا .

نظرت إلى الأوثان والطواغيت فإذا هى راقصة فى ملاعب الأهواء ، إنها ساهرة منا وما أمرٌ سخريه الأعداء ، أقول إن المؤمنين قد انتثروا وكاد المخلصون أن يندثروا ولم تعد الصحراء ترى حداة القوافل ولا المتعبدى فى المنازل .

ونحن لا نشكو أن فاضت خزائن الكفار بالانضار ولكن الشكوى أن يصيبنا الفقر والقصور حتى لا نجد للجنة صدق الحور ولا ثمن القصور .

يارب رحماك هب لنا ما عودنا فضلك من نصر وتأيد فقد دارت بنا الكواكب فى أفلاكها دورة العكس .. إن قدرتك هى قدرتك وما لفضلك حد ولا لنعمائك عد .. لو شئت أجريت النهر فى الصحراء أو رفعت الجبال من الماء . لم يبق لنا يارب من ثروة سوى الفقر ولا من قوة سوى العجز إن ذهاب المسلمين من الدنيا هو ذهاب الدنيا بأسرها وما نطلب البقاء فيها لحظة إلا للفناء فى حبك يا أرحم الراحمين .

لقد ذهب الأغيار بما كان فى أيدينا وبقيت قلوبنا عامرة بك وما بقاء الدين إلا ببقاء أهله والجام بما فيه لا يبق بغير ساقيه رباه أين محافل العشاق ! أين الذين توضعوا للصباح بمدامع الأشواق ؟ أين الذين اقتبست الشمس من وجوههم الإشراق ؟ .

لقد مضى زجل المسبحين وخفت أنين المستغفرين وخلا ضمير الليل من
دعوات المتبتلين وبكاء المصلين وهبوك قلوبهم يارب وفازوا بأجر العاملين
وأصبحت الأرض بعدهم خالية والديار خاوية فكأنهم ما سلموا حين قدموا أو
كانهم ما أقاموا بعد أن سلموا .

من لى بنور محمد لى يكون مصباحى حين أنقّب عن حقلهم الذهب ونورهم
الغارب... لالا.. إني لن أصغى إلى أنات قلبى المحزون فما زال من الدنيا سحر
ليلى ولا غرام قيس وما برحت صحراء نجد مرتعا للمها والغزال ومبعثا للهوى
والدلال ولن يزول جلالها حتى تزول الجبال .

إن جمال أمة محمد لا يزال يجتذب قلوب الكون بإشراقه الساطع فأنتقدنا
من ظلمة هذا اليأس المميت .

ما زال فى قلوبنا وفاء الصديق وعدل الفاروق وفى كل قلب للقرآن مصحف
عثمان ولا زالت قلوبنا عامرة بتقوى على وسلمان وصوت بلال فى الأذان لم نفقد
الإيمان القويم ولا قياس طرق التسليم . أيقظنا يا رب بصلة الجرس الأول
وأحيينا بقانون الوفاء . لقد أكملت الدين على قمة فاران وأنرت قلوب العاشقين
بجذوة الإيمان فأحرق متاع حب دنيانا بذلك الشرر من وميض محبتك .

لقد طرب أعداؤنا بين الجداول وسكروا بالأنعام فى ظل الشجائل وهم فى
الأوطان ونحن خارج البستان فأرسل فراشك مرة أخرى يطف حول نار حبك
ومر البرق القديم بإحراق القلوب الجامدة .

رب اهد القلوب إلى قبلة الحجاز وأعطاها جناحا من الإيمان لتعرف قوة
الطيران. ان العبير حار بين البراعم والأزهار والأنغام محتبسة في الأوتار والطور
في شوق إلى تجلى أنوارك وإقبال أسرارك .

ربنا وأنت الحكيم القادر احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ألهم النملة
الضعيفة حكمة الإيمان حتى تضع يدها على ملك سليمان وافتح العيون على ضياء
الحق للعالمين حتى نرى براهمة الهند مسلمين إن عطر الأزهار قد باح بسر
البستان ونمت الصرخات عما في الوجدان .

أعد الطيور المغردة إلى أغصان الصنوبر فقد فرت من روضها إلا بلبل
يحمل في قلبه ضجة القيامة وهول المحشر .

أعد الأوراق الذابلة إلى روضها الأخضر وجدد في المسلمين ظمأهم إلى
حياض الكوثر.

يارب إني بلبل تحررت من موسم نيسان لأرسل أنغامي طليقة بالشكوى
في مسمع الزمان فاجمل ندائي قبسا من وحي الإيمان ان خرى حجازية وإن كنت
أعجمي الدنان ونغمي من الهند ولكن صوتي من عدنان .

شكوى

شكواى أم نجواى فى هذا الدجى
أمسيت فى الماضى أعيش كأنما
والطير صادحة على أفنانها
قد طال تسهيمدى وطال نشيدها
غالى متى صمتى كأنى زهرة
ونجوم ليلي حُسدى أم عودى
قطع الزمان طريق أمسى عن غدى
تبكى الربى بأنينها المتجدد
ومدامى كالطل فى الغصن الندى
خرساء لم ترزق براعة منشد

قيثارتى ملئت بأنات الجوى
صعدت إلى شفتى بلابل مهجتى
أنا ما تعدت القنائة والرضا
أشكو وفى فى التراب وإنما
يشكو لك اللهم قلب لم يعيش
لابد للمكبوت من فيضان
ليبين عنها منطقى ولسانى
لكما هى قصة الأشجان
أشكو مصاب الدين للديان
إلا لحمد علاك فى الأكوان

قد كان هذا الكون قبل وجودنا
والورد فى الأكام مجهول الشذى
بل كانت الأيام قبل وجودنا
لما أطل محمد زكت الربى
وأذاعت الفردوس مكفون الشذى
روضاً وأزهاراً بغير شميم
لا يرتجى ورد بغير نسيم
ليلاً لظالمها والمظلوم
واخضر فى البستان كل هشيم
فإذا الورى فى نضرة ونعيم

من قام يهتف باسم ذاتك قبلنا
عبدوا تماثيل الصخور وقدسوا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة
هل أعلن التوحيد داع قبلنا
كنا نقدم للسيوف صدورنا

قد كان في اليونان فلسفة وفي
لم تغن عنهم قوة أو ثروة
وبكل أرض سامري ماكر
والحكمة الأولى جرت وثنية
نحن الذين بنور وحيك أوضحوا

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اس
كنا جبالا في الجبال وربما
بمعابد الأفرنج كان أذاننا
لم تنس افريقيا ولا صحراؤها
وكان ظل السيف ظل حديقة

لم نخش طاغوتا يحاربنا ولو
ندعو جهارا لا إله سوى الذي

من كان يدعو الواحد القهار
من دونك الأحجار والأشجار
لم يبلغوا من هديها أنوارا
وهدى الشعوب إليك والأنظارا
لم نخش يوما غاشما جبارا

رومان مدرسة وكان الملك في ساسان
في المال أو في العلم والعرفان
يكفي اليهود مؤونة الشيطان
في الصين أو في الهند أو توران
نهج الهدى ومعالم الايمان

مك فوق هامات النجوم منارا
سرنا على موج البحار بحارا
قبل الكتائب يفتح الأمصارا
سجدتنا والأرض تقذف نارا
خضراء تنبت حولنا الأزهارا

نصب المنايا حولنا أسوارا
صنع الوجود وقدر الأقدارا

ورؤوسنا يارب فوق أ كفننا
كنا نرى الأصنام من ذهب
لو كان غير المسلمين لحازها
كنزا وصاغ الحلى والديفارا

كم زلزل الصخر الأشم فما وهى
لو أن آساد العرين تفزعت
وكان نيران المدافع فى صدو
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه
من بأسنا عزم ولا إيمان
لم يلق غير ثباتنا الميدان
ر المؤمنين الروح والريحان
نورا تضىء بصبحه الأزمان
فى الكون مسطورا بها القرآن

من غيرنا هدم التماثيل التى
حتى هوت صور المعابد سجدا
ومن الألى حملوا بعزم أ كفهم
أمن رى نار المجوس فأطفئت
ومن الذى بذل الحياة رخيصة
كانت تقدسها جهالات الورى؟
لجلال من خلق الوجود وصورا
باب المدينة يوم غزوة خيبر؟
وأبان وجه الحق أبلغ نيرا؟
ورأى رضاك أعز شىء فاشتري؟

نحن الذين استيقظت بأذانهم
نحن الذين إذا دعوا لصلاتهم
جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكبروا
دنيا الخليفة من تهاويل الكرى
والحرب تسقى الأرض جاما أحمر
فى مسمع الروح الأمين فكبرا

محمودٌ مثل اياز^(١) قام كلاهما
العبد والمولى على قدم التقى
لك بالخشوع مصلياً مستغفراً
سجداً لوجهك خاشعين على الثرى

بلغت نهاية كل أرض خيلنا
في محفل الأكوان كان هلالنا
وكان أبجرها رمال البعيد
بالنصر أوضح من هلال العيد
في كل موقعة رفعنا راية
أمم البرايا لم تكن من قبلنا
إلا عبيداً في إيسار عبيد
من بعد أصفاد وذل قيود
بلغت بنا الأجيال حرياتهما

رحماك رب هل بغير جباهنا
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفنا
عرف السجود ببيتك العمور؟
يحوى جلال كتابك المسطور
إن لم يكن هذا وفاء صادقاً
ملاً الشعوب جفاتها وعصاتها
فاذا السحاب جرى سقاها غيته
واختصنا بصواعق التدمير
من ملحدات ومن مغرور
فأخلق في الدنيا بغير شعور

قد هبت الأصنام من بعد البلى
والكعبة العليا توارى أهلها
واستيقظت من قبل نفخ الصور
وغدت منازلها ظلال قبور
وقوافل الصحراء ضل حداثها

(١) السلطان محمود الغزنوى واياز خادمه .

أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا
بل محنتي ألا أرى في أمي
في أنعم ومواكب وقصور
عملا تقدمه صداق الحور

لك في البرية حكمة ومشية
إن شئت أجريت الصحارى أنهرها
أعيت مذهبها أولى الأبواب
مأزاهي الإسلام في أبنائه
أوشئت فلأنهار موج سراب
فتراؤهم قفر ودولة مجدهم
حتى انطوا في محنة وعذاب
عاقبتنا عدلا فهب لعدونا
في الأرض نهب ثعالب وذئاب
عن ذنبه في الدهر يوم عقاب

عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم
الدين يحيا في سعادة أهله
لموت بين الذل والإملاق
أين الذين بنار حبك أرسلوا
والكأس لا تبقى بغير الساق
سكبوا الليالي في أنين دموعهم
أنوار بين محافل العشاق
والشمس كانت من ضياء وجوههم
وتوضأوا بمدمع الأشواق
وتهدى الصباح طلائع الإشراق

كيف انطوت أيامهم وهم الألى
هجرنا الديار فأين أزمع ركبهم
نشروا الهدى وعلوا مكان الفرقد
ياقلب حسبك لن تلم بطيفهم
من يهتدى للقوم أو من يقتدى
فازوا من الدنيا بمجد خالد
إلا على مصباح وجه محمد
ولهم خلود الفوز يوم الموعد

يارب ألهمنا الرشاد فالنا في الكون غيرك من ولى مرشد

وربوع ليلى في ربيع جمالها	ما زال قيس والغرام كعهده
وظباؤها الخفرات ملء جبالها	وهضاب نجد في مراعيها المها
يتحفز التاريخ لاستقبالها	والعشق فياض وأمة أحمد
رقت على شمس الضحى بهلالها	لو حاولت فوق السماء مكانة
وتصددها الأيام عن آمالها	ما بالها تلقى الجود عواثرا

وأصابهم بتصرم الآمال	هجر الحبيب رى الأحبة بالنوى
رحماك يا امرأة كل جمال	لم يبق في الأرواح غير بقية
أن نستكين إلى هوى وضلال	لو قد مللنا العشق كان سبيلنا
حاشا الموحّد أن يذل لمال	أو نصنع الأصنام ثم نبيعها
وتقى أويس في أذان بلال	أيام سلمان بنا موصولة

فبعثت نور الحق من فاران	ياطيب عهد كنت فيه منارنا
وسقيتهم راحا بغير دنان	وأسرت فيه العاشقين بلمحة
إيمان لا بتلهب النيران	أحرق فيهم قلوبهم بتوقد الـ
لم تحظ من نار الهوى بدخان	لم نبق نحن ولا القلوب كأنها

إن لم ينر وجه الحبيب بوصله فكان حزن القلب كل مكان

يا فرحة الأيام حين نرى بها روض التجلى وارف الأغصان
ويعود محفلنا بحسبك مسفرا كالصبح في إشراقه الفينان
قد هاج حزنى أن أرى أعداءنا بين الطلا والظل والأخان
ونعالج الأنفاس نحن ونصطفى في الفقر حين القوم في بستان
أشرق بنورك وابعث البرق القدير م بومضة لفراشك الظمان

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت كحين مغترب إلى الأوطان
إن الطيور وإن قصصت جناحها تسمو بفطرتها إلى الطيران
قيثارتى مكبوتة ونشيدها قد مل من صمت ومن كتمان
واللحن في الأوتار يرجو عازفا ليموح من أمراره بمعان
والطور يرتقب التجلى صارخا بهوى المشوق ولهفة الحيران

أكبادنا احترقت بأناث الجوى ودماؤنا نهر الدموع القانى
والعطر فاض من الخمائل والربى وكأنه شكوى بغير لسان
أوليس من هول القيامة أن يكون ن الزهر نماما على البستان
التمل لا يخشى سليمانا إذا حرست قراه عناية الرحمن
أرشد براهمة الهنود ليرفعوا السلام فوق هياكل الأوثان

ما بال أغصان الصنوبر قد نأت
وتعرت الأشجار من حلل الربى
يا رب إلا بلبلا لم ينتظر
أحمانه بحر جرى متلاطما
يا ليت قومي يسمعون شكاية
هي في ضميري صرخة الوجدان
عنها قاريتها بكل مكان
وطيورها فرّت إلى الوديان
وحى الريح ولا صبا نيسان
فكأنه الحاكى عن الطوفان

إن الجواهر حيرت مرآة هـ
أسمعهمو يا رب ما ألهمتنى
وأذقهم الخمر القديمة إنها
أنا أعجمى الدن لكن خمرتى
إن كان لى نغم الهنود ولحنهم
هذا القلب فهو على شفا البركان
وأعد إليهم يقظة الإيمان
عين اليقين وكوثر الرضوان
صنع الحجاز وكرمها الفينان
لكن هذا الصوت من عدنان

جواب شكوى

أما القصيدة الثانية فهي جواب الشكوى تخيلها إقبال صوتاً سماوياً يدوى بصيحة الحق جواباً لهذه الشكوى التي تبدو في صرخاتها المتململة المضطربة كأنها خيال جائر لا يقوم على الحجة والبرهان ولا يستقر على دليل من الواقع. قال إقبال : كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره في القلوب ، والأفكار الصادقة لا أجنحة لها ولكنها تسبق الطيور . وكل كلام قدسى المنبع فهو أبداً يتجه إلى العلا ومن عجب أنه نجم من التراب ومتى صعد كان أول منازل السحاب .

كان عشق فائقاً ساحراً جموحاً فشق ستار السماء بأنين لا يتهيب ولا يرتعد، ولما سمع شيخ السماء زفرات الشكوى والبكاء قال إنه « في مكان ما كائن يتكلم » فتساءلت النجوم والسيارات في عجب وإنكار « وكيف اقترب هذا الكائن من بساط العرش الرفيع » فقال القمر « إنه إنس من أهل الأرض » وقالت المجرة « عجبت لهذا الإنسان كيف يستقر عن العيون ويختفي عن المادة خلف الظنون » .

هكذا كان الجميع يشتجرون في أمرى فلا يهتدون ولئن كان من بينهم من فهم الشكوى وعرف النجوى فهو رضوان إذ قال « إنه ذلك الذى أخرج

أبواء من الجنة .. وهو قوي العنصر رفع الله مكانته ، وأسجد له ملائكته .

وسأل سائل : كيف تعلمت هذه القبضة من التراب أن تخرق من العناصر

كل حجاب .. حقا إن سكان الأرض المستخلفين فيها لمخلوقات جامعة ..

هذا هو نفس آدم ما أقدره في علم الكيف والكم ولكن ما أجهل
بأسرار العجز والفناء .

وأخيراً دوى صوت تفزع له الجنيات واخترق بجلجلته ذرات الفيرات :

« يا هذا ! إن قصتك محزنة شائكة وقدحك ملىء بدموع مضطربة حيرى

ولقد أطافت صيحتك بالسموات ، فما أبعد قلبك المجنون عن قرار السكون ،

ولكنك على كل حال أعلنت شكواك فأثبت قدرة الخالق فيك » .

لقد مددنا بساط الكرم فأين السائلون ومهدنا الطريق إلى المجد فأين

السالكون .

لقد أنزلنا الأنوار على الفطر ولكن الجواهر ظلت غير قابلة ، وكان هذا

التراب ليس الذى جبلت منه البداية الأولى للإنسانية العالية .

إن الإنس كما ترى قد نسوا ناموس فطرتهم وتغير تراثهم ولو أنهم أدرخوا

سر خلقهم وحكمة وجودهم لأعطوا فوق ما يطلبون ونالوا من العظمة فوق

ما ينشدون . ولكن الأداة أدرکہا الفساد ومالت القلوب إلى الإلحاد .. وهؤلاء

المتأخرون في هذه الأمة قد أصبحوا خجلا لماضيها وتوهينا لعظمتها . لقد انقرض

الذين هدموا الأصنام وجعلوها جذاذا تحت الرغام . أما هؤلاء فقد جددوا لها

البنيان وأصبحوا صناعاتها في هذا الزمان . كانوا هم أبناء إبراهيم غير أنهم أقرب إلى آزر القديم .

الشارب والخمر جديدان والدين أيضاً جديد وها هي أصنام جديدة تطبع الأجيال الحديثة على غرارها .

لقد انطوى عهد أولئك الذي لهم من سمات الجلال ما هو خليق بالدلال .
انهم كانوا مرآة متاع العظمة وصفاء موسم الورود وشقائق نعمان الصحراء وأغنية أحلام البيداء .

ويومئذ تفانى كل مسلم في الله وكان يوم محمد المحبوب مهرجاناً للشعوب .
هل لكم في عهد جديد تكونون فيه عبيداً لله وجنوداً للحمد وجواهر في عقد الملة ...

أتى وقد أصبح عسيراً عليكم وثقيلاً على أجفانكم أن تستقبلوا نور الصباح بتكبيرة صلاتكم وصحو حياتكم لسكان الطبائع فقد نامت مع الأجفان وما أشبه نهار المنام بليل الظلام .

أليس رمضان يقيد حريتكم ويخالف مدينتكم ... فاشهدوا على أنفسكم
أهذا هو الوفاء لماضيكم وملتكم .

إن وجود الشعب من وجود الملة ، والدين في الأمة هو قوام الدولة فإذا ذهب الدين فما أنتم بياقين .

الدين هو الذي يجمعكم صفاً واحداً ولولا التساند بين السكواكب لم ينعقد حفل النجوم ولم يسطع جمال القمر الساحر .

من هؤلاء الذين ضاعت علومهم وفنونهم من الدنيا ومن أولئك الذين أصبحوا لا يبالون أن يعيشوا بلا مأوى. بل ما هذا البيدر الذى لم تجد الصواعق مكانا تستقر فيه نيرانها سواه... ثم من هؤلاء الذين يبيعون تركة الآباء ويحاولون الشهرة بتجارة القبور، لعلكم تستطيعون بأنفسكم أن تدرکوا الجواب عما تسألون فأى هذه الحقائق تنكرون ومن أولئككم الأبرار الأخيار الذين محوا الأباطيل من صحائف الأجيال والأمصار.

من الذين حرروا شعوب الإنسانية من الذل ومن الذين عمروا الكعبة بجباههم ومن الذين ضموا القرآن إلى صدورهم... أليسوا آباءكم وأجدادكم وقد بقيتم بعدهم تضعون يدا على يد، وترتقبون ما يأتىكم به الغد.

لقد وعد المسلمون جمال الحور ونعيم القصور ووعدوا خلافة الأرض وأن تدين لهم الدنيا بكنوزها والأرض بخيراتها والسماء بنجومها وملأكتها والآخرة بجنتها ونعيمها هاهى الدنيا، قد أفلتت من أيديكم لأن أيديكم قد أصبحت طليقة من سنن الفطرة ومن عروة الدين أليس ربكم هو الذى يقيم العدل والحق وهو أحكم الحاكمين.

أكنتم تنظرون أن يعمل أعداؤكم فى الأرض وأن يتخلقوا بأخلاق أسلافكم فى الجهاد وينفقون أوقاتهم فى الزراعة ثم يحرمون الحصاد.

لقد سار الكافر فى طريق المسلم الأول فأعطى حظا من الدنيا ولكنكم لا تنشدون اليوم محاسن الحور ولا كنوز القصور... ألا لقد يفنى تجلى النور ولكن ذهب

الكليم من الطور أن أمر المسلمين في الخسارة والربح واحد والذي يقع لأقصاهم
ينال أدناهم ... أليس نبي الجميع واحداً وكذا الدين والإيمان والحرم
والقرآن ؟.

والهكم إله واحد فهل كان من الصعب أن تحيوا متحدين .
نار العصبية هنا وجذوة الجنسية هنالك فحدثوني عن قوم أدر كوا نجاحهم
بالفراق ونالوا سعادتهم بالشقاق .

لقد تركتم القرآن وجعلتم مقياس رقيكم صلاحية الزمان واتخذتم من المدنية
كل شعار واتبعتم سبيل الأغيار فلم يبق في القلوب مذاق ولا للوعة احتراق .

ها هي مساجد الله لا يعمرها غير فقرائكم فهم الصائمون والمصلون وهم
العابدون والذاكرون وهم الساترون لعيوبكم وأنتم بهم ترحمون .
أما الأغنياء فهم في سكر غفلتهم معرضون .

ومن عجب أن الملة البيضاء ما تزال قويمة البناء ممتدة النماء بجمرة أنفاس
الفقراء .. ولقد فقدتم القوة في سحر الكلام ومررتم بالمواعظ مر الكرام
ولولا روح من بلال مابقي للأذان جمال .

مساجدكم تبكي قلة صفوفها والمحراب موحش من المصلين والمنابر ساخرة
من سيوف تحول حديدتها إلى خشب لا يقاوم النار .

أما دياركم فقد امتلأت بالمفاخر والرتب والألقاب فاليرزا في إيران وفي

غيرها صاحب والخان ولكفنا ننشد رتبة المسلم في هذه الأوطان .

عندما كان المسلم ينهض إلى طلب المجد فكم اقتحم الصعاب وعزمه غير هيب
وكم كان عدله ميزانا للصواب لم يلوته رياء ولم يفسده دهاء تخطى بشجاعته الأوهام
وفاق الأحلام ... كان خاليامن المقاصد الشخصية والمتع النفسية مثل الكأس
المليئة بالشراب وشرابها غيرها .

كان المسلم مشرطا لعروق الباطل وكان العمل في قانون حياته هو الجوهر
لا العرض معتمداً على قوة ساعده بعد ربه ... وإذا كنتم تخافون الموت فقد
كان خوفه من الله الذي خلق الموت والحياة .

أين فيكم دولة عثمان ورفده وفقر على وزهده ... وما الذي بقي لديكم من
فضائل المسلمين الأولين وراث المؤمنين السابقين لقد أصبح بعضكم يبغى على
بعض بينما هم كانوا هم متراحين .. كم تخطئون وتغتابون الصالحين .. وكم ستروا
عيوب الخلق وهم أئمة المتقين .

أيطمع كل امرئ منكم أن يبلغ أوج الثريا بلا عزم قويم ولا قلب سليم
لقد ملكوا عرش (كسرى) وسرير (كيقباد) وتاج (حقور) وعظمة
القياصرة أما أنتم فقد اقتنيتهم الكلام وأكثرتهم الأوهام . لقد كانوا حكام
أنفسهم قبل أن يكونوا حكام الخلق وكانوا بناء الأخوة والاتحاد في الأمة وأنتم
تفقدون المودة حتى في الأسرة . كانت حياتهم عملا وأصبحت حياتكم أملا
تبحثون عن الزهرة فلا تجدونها أما هم فقد كان لهم من الدنيا بستانها وصار لهم

من الآخرة رضوانها لا تزال الشعوب تؤلف من مجدهم الأنعام ولا تزال عاطرة
بذكرهم الأيام .. فهم نجوم الآفاق ونور الأخلاق .

عاشوا حياتهم أحرار القلوب وبراهمة بيت المحبوب ... ابتعدوا عن الأوكار
وهجروا الديار وأقاموا على النجوم المطار. أما شباب اليوم فالعطلة والفقر والشقاء
وينسبون إلى الدين ما لحقهم من بلاء . ومنهم بليتهم ولكن لا يشعرون ...
لقد أطلقهم المدنية من القوانين . فعاشوا مستهترين صنعت لهم هيكل الصنم
فألهتهم عن جلال الحرم ... فلم يبق قيس يحن إلى ليلي بين الشعاب ... بل يتمنى
في حرية العشق أن يرى ليلي بغير حجاب وأن يشهد جمالها بغير نقاب .

هذا الشباب يستطيع لو شاء في عهد جديد أن يجدد قوة الإيمان وأن يحمل
شعلة الهداية يوقدها من تعاليم خاتم الأنبياء والرسل فتنتشر في الربوع إيمان
إبراهيم ... فالنار قد تحرق وقد تنضج أيها الشاكي الوهان ... لا تحزن من رؤية
البستان . وقد فقد زاهي الألوان فسرعان ما تلمع الأزهار من كواكب البراعم
ويبتلاّ دم الشهداء على شفاه الورود ... ألا ترى السماء بلونها العنابي أليس هذا
لمعان الأفق يستقبل اليوم الجديد ويستبشر بالشمس الطالعة ...

انظر إلى الأرض ... هلا ترى قوما يلتقطون الثمار وآخرين في البوار ألا ترى
مئات النخيل خاوية الأعجاز بينما مئات أخرى في باطن الأرض في طريقها إلى
ربيع الحياة فلو سقيناها من تعاليم الملة السمحة لأينعت ونمت فنخيل الإسلام
أنموذج للإثمار والنماء .

واستطرد إقبال يبين أن المسلم لا وطن له ولا مكان ولن يفنى مسلم بفناء
الأمزنة والأوطان إذ لا علاقة بين الكأس وسكر الشراب . ولقد تعرضت
الأوطان الإسلامية لهجمات القنارات وما حدث من غوغاء إثر حملات البلقان وكان
كل ذلك امتحانا لذاتية المسلم فما ارتاع ولكن بقى الإسلام والمسلم فى كل البقاع .
فلهذا إذن يرتاع مسلم اليوم من صهيل خيل الأعداء . ولن يطفى ذلك
نور الحق الوضاء .

فهيا أظهر حقيقةك للأقوام والشعوب فمحافل الأكراد فى حاجة إليك
ترنو إلى حرارة أنفاسك ومضاء عزمك .. فلتندفق دماؤك بالحرارة ليحيا الدهر
فى حماية دينك .

إن خلافة الأرض لك فكن بها خليقا ... وقم لتثبت وجودك فيتم بك
نور التوحيد ... فإنك عطر ولكن حبستك عن العالم براعم وزهرات ... فقم
واحمل الأمانة فى عنقك وانشر أنفاسك حتى تعطر نسيم البستان .

لا تكن كنغمة الأمواج حبيسة الشواطئ ولكن كن فيضانا بالعمل
وانشر جناحك حول الآفاق وأنر الدهر بنور إيمانك وأرسل الضياء بقوة يقينك
وباسم نبيك .

فلو لم يكن الزهر فى البستان ما تغنى قمرى على الأغصان وما صدحت العنادل
بأعذب الألحان ولو لم تبسم البراعم بين الأوراق مارأيت ابتسام الزهر فى حديقة
الدهر . ولو لم يكن اسم محمد لما نبض الوجود بالحرارة .

جواب شكوى

كلام الروح للأرواح يسرى
وتدركه القلوب بلا عناء
هتفت به فطار بلا جناح
وشق أنينه صدر القضاء
ومعدنه ترابي ولكن
جرت في لفظه لغة السماء
لقد فاضت دموع العشق مني
حديثا كان علوى الفداء
خلق في ربا الأفلاك حتى
أهاج العالم الأعلى بكأى

تحاورت النجوم وقلن صوت
بقرب العرش موصول الدعاء
وجاوبت المجرة علّ طيفا
سرى بين الكواكب في خفاء
وقال البدر هذا قلب شاك
يواصل شدوه عند المساء
ولم يعرف سوى رضوان صوتي
وما أحرأه عندي بالوفاء
الم أك قبل في جنات عدن
فأخرجني إلى حين قضائي

وقيل هو ابن آدم في غرور
تجاوز قدره دون ارعواء
لقد سجدت ملائكة كرام
لهذا الخلق من طين وماء
يظن العالم في كيف وكم
وسر المعجز عنه في انطواء

وملء كؤوسه دمع وشكوى وفي أنغامه صوت الرجا
فيا هذا لقد أبلغت شيئاً وإن أ كثرت فيه من المراء

عطايانا سحائب مرسلات ولكن ما وجدنا السائلينا
وكل طريقنا نور ونور ولكن ما رأينا السالكينا
ولم نجد الجواهر قابلات ضياء الوحي والنور المينا
وكان تراب آدم غير هذا وإن يك أصله ماء وطينا
ولو صدقوا وما في الأرض نهر لأجرينا السماء لهم عيونا

وأخضعنا لملكهم الثريا وشيدنا النجوم لهم حصونا
ولكن الحدوا في خير دين بنى في الشمس ملك الأولينا
تراث محمد قد أهملوه فعاشوا في الخلائق مهملينا
تولى هادمو الأصنام قدما فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيم لكن أرى أمثال آزر في البنينا

وفي أسلافكم كانت مزايا بكل فم لذكراها نشيد
تضوع شقائق الصحراء عطرا بريها وتبتسم الورود
فهل بقيت محاسنهم لديكم فيجمل في دلالكم الصدود
لقد هاموا بخالقهم فناء فلم يكتب لغيرهم الخلود

وكوثر أحمد منكم قريب ولكن شوقكم عنه بعيد

وكم لاح الصباح سنا وبشرى وأذنت القمارى والطيرور
وكبرت الخائل فى رباها مصلية فجاوبها الغدير
ونوم صباحكم أبدا ثقیل كأن الصبح لم يدركه نور
وأضحى الصوم فى رمضان قيدا فليس لكم به عزم صبور
تمدن عصركم جمع المزايا وليس بغائب إلا الضمير

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء وكيف ينال عهدى الظالمينا
إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا
وفى التوحيد للهمم اتحاد ولن تبسوا العلا متفرقينا
تساندت الكواكب فاستقرت ولولا الجاذبية ما بقين

غدتكم فى الديار بلا ديار وأنتم كالطيور بلا وكور
وكل صواعق الدنيا سهام لبیدركم وأنتم فى غرور
أهذا الفقر فى علم ومال وأنتم فى القطيعة والنفور
ويبع مقابر الأجداد أضحى لدى الأحفاد مدعاة الظهور

سيمعجب تاجرو الأصنام قدما إذا سمعوا بتجار القبور

من المتقدمون إلى المعالي على نهج الهداية والصواب
ومن جهاتهم أنوار يدي وفي أخلاقهم يتلى كتابي
أما كانوا حدودكم الأوالي بناة المجد والفن العجيب
وليس لكم من الماضي تراث سوى شكوى اللغوب والا كمتاب
ومن يك يومه في العيش يأسا فما غده سوى يوم العذاب

أتشكو أن ترى الأقوام فازوا بمجد لا يراه الزاعمونا
مشوا بهدى أوائلكم وجدوا وضيتهم تراث الأولينا
أبحرم عامل ورد المعالي ويسعد بالرق الخاملونا
أليس من العدالة أن أرضى يكون حصادها للزارعينا
تجلى النور فوق الطور باق فهل بقي السكيم بطور سيدنا؟

ألم يبعث لأمتكم نبيا يوحدكم على نهج الوثام
ومصحفكم وقبلتكم جميعا منار للأخوة والسلام
وفوق الكل رحمن رحيم إله واحد رب الأنام
فما النهار أفتكم تولى وأمستيم حيارى في الظلام
وحسن اللؤلؤ المسكنون رهن بصوغ العقد في حسن النظام

وكيف تغيرت بكم الليالى
تركتم دين أحمد ثم عدتم
ضحايا للهوى أو للهوان
رقى الشعب قد أضحى لديكم
تقرّره صلاحية الزمان
وكيف تقاس أوهام ولغو
بحكمة منزل السبع المثاني
أرى ناراً قد انقلبت رمادا
سوى ظل مريض من دخان

أرى الفقراء عبادا تقاة
قياما في المساجد راكعينا
هم الأبرار في صوم وفطر
وبالأسحار هم يستغفروننا
وليس لكم سوى الفقراء ستر
يوارى عن عيوبكم العيونا
أضلت أغنياءكم الملاهى
فهم في ربهم يترددونا
وأهل الفقر ما زالوا كنوزا
لدين الله رب العالمينا

أرى التفكير أدركه خمول
ولم تبق العزائم في اشتعال
وأصبح وعظكم من غير سحر
ولا نور يطل من المقال
وعند الناس فلسفة وفكر
ولكن أين تلقين (الغزالي)
وجلجلة الأذان بكل أرض
ولكن أين صوت من بلال
منائرهم علت في كل حي
ومسجدكم من العباد خالى

فأين أئمة وجنود صدق
تهاب شعبة عزمهم الحراب

إذا صنعوا فصنعهم المعالي وإن قالوا فقولهم الصواب
مرادهم الإله فلا رياء ونهجهم اليقين فلا ارتياب
لأمتهم وللأوطان عاشوا فليس لهم إلى الدنيا طلاب
كمثل الكأس تبصرها دهاقا وليس لأجلها صنع الشراب

جهاد المؤمنين لهم حياة ألا إن الحياة هي الجهاد
عقائدهم سواعد ناطقات وبالأعمال يثبت الاعتقاد
وخوف الموت للأحياء قبر وخوف الله للأحرار زاد
أرى ميراثهم أضحى لديكم مضاعفا حيث قد ضاع الرشاد
وليس لوارث في الخير حظ إذا لم يحفظ الإرث اتحاد

لأى مآثر القوم انتسبتم؟ لتكتسبوا نثار المسلمين
فأين مقام ذى النورين منكم ودولة عزه دنيا وديننا
وفقر على الأبواب هلا ربحتهم فيه كنز الفاتحين
أقم في الذنوب وفي الخطايا وتغتربون حتى الصالحينا
وهم ستروا عيوب الخلق فضلا وإن كانوا أبرّ المتقين

أريكة قيصر وسرير كسرى قد احتميا بملوكهم العمى
وأنتم تطمحون إلى الثريا بلا عزم ولا قلب سليم

تضيعون الإخاء وهم أقاموا صروح إخوانهم فوق النجوم
طلبتهم زهرة الدنيا وعدتم بلا زهر يضوع ولا شمим
وكان لديهم البستان محضا وهم أصحاب جنات النعيم

يعيد الكون قصتهم حديثا وينشئ من حديثهم الففونا
فكم زحوا عن الأوكار شوقا إلى التحليق فوق العالمينا
ويأس شبابكم أدى خطاهم فظنوا فيه بالدين الظنونا
هى المدنية الحمقاء ألتقت بهم حول المذاهب حائرنا
لقد صنعت لهم صنم الملاهى لتحجب عنهم الحرم الأميننا

لقد سئم الهوى فى البعيد قيس ومل من الشكاية والعذاب
يحاول أن يباح العشق حتى يرى ليلاه وهى بلا حجاب
يريد سفور وجه الحسن لما رأى وجه الغرام بلا نقاب
فهذا العهد أحرق كل غرس من الماضى وأغلق كل باب
لقد أفنت صواعقه المغانى وعانت فى الجبال وفى الهضاب

هى النار الجديدة ليس يُلقى لها حطب سوى المجد القديم
خذنوا إيمان إبراهيم تنبت لكم فى النار روضات النعيم
ويذكو من دم الشهداء ورد سنن العطر قدسى النسيم

ويلمع في سماء الكون لون
فلا تفزع إذا المرجان أضحى
من العناب مخضوب الأديم
عقوداً للبراعم والكروم

فكم زالت رياض من رباها
ولكن نخلة الإسلام تنمو
وكم بادت نخيل في البوادي
ومجدك في حمى الإسلام باق
على مر العواصف والعوادي
وانك يوسف في أي مصر
بقاء الشمس والسبع الشداد
تسير بك القوافل مسرعات
يرى كنعانه كل البلاد
بلا جرس ولا ترجيع حادي

ضياؤك مشرق في كل أرض
بغت أمم التتار فأدركتها
لأنك غير محدود المكان
وأصبح عابدو الأصنام قدما
من الإيمان عاقبة الأمان
فلا تجزع فهذا العصر ليل
حماة الحجر والركن اليمان
ولا تخش العواصف فيه وانهمض
وأنت النجم يشرق كل آن
بشعلتك المضيئة في الزمان

أعد من مشرق التوحيد نورا
فكيف تعيش محتبسا دفيئا
وأنت العطر في روض المعالي
ولا تحمل غبار الخاملينا
وأنت نسيمه فاحمل شذاه
وأسل شعلة الإيمان شمسا
يتم به اتحاد العالمينا
وصُغ من ذرة جبلا حصينا

وكن في قمة الطوفان موجا ومزنا يطر الغيث الهتنا

فباسم محمد شمس البرايا أقيمت خيمة الفلك المغير
تلا في الرياض وفي الصحارى وفوق الموج والسيل المغير
ونبض الكون منه مستمد حرارته على مر العصور
ومن مُرّا كش يغزو صداه ربوع الصين بالصوت الجهير
وما مشكاة هذا النور إلا ضمير المسلم الحر الغيور

ورفع الذكر للمختار رفع لقدرك نحو غايات الكمال
فكن إنسان عين الكون واشهد مقامك عالما فوق المعالي
بخنجر عزمك الوثاب لاحت على الأعلام أنوار الهلال
نداؤك في العناصر مستجاب إذا دوى بصوت من بلال
وعقلك في الخطوب أجل درع وعشقك خير سيف للنضال

خلافة هذه الأرض استقرت بمجدك وهو للدنيا سماء
وفي تكبيرك القدسي يبدو صغيرا كل ما ضم الفضاء
فيا من هب للإسلام يدعو وأيقظ صدق غيرته الوفاء
سترفع قدرك الأقدار حتى تشاهد أن ساعدك القضاء
وقيل لك احتكم دنيا وأخرى وشأنك والخلود كما تشاء

فاطمة الزهراء

نسبُ المسيح بنى لمريم سيرةً
بقيتْ على طول المَدَى ذِكراها
والمجدُ يُشرقُ من ثلاثِ مطالع
في مهد « فاطمة » فأعلاها
هي بنتُ مَنْ؟ (١) هي زوجُ مَنْ؟ (٢) هي أمُّ مَنْ؟ (٣)

من ذا يُداني في الفخار أباهَا
(١) هي ومضةٌ من نور عين المصطفى
هادى الشعوب إذا تروم هُداها
هو رحمةٌ للعالمين ، وكعبة الـ
أمال في الدنيا وفي أُخراها
من أيقظ الفطر النيام بروحه
وكأنه بعد البلاء أحيأها
وأعاد تاريخ الحياة جديدةً
مثل العرائس في جديد حُلاها
(٢) ولزوج فاطمة بسورة «هل أتى»
تاجٌ يفوق الشمس عند ضحاها
أسدٌ بحصن الله يرمي المشكلا
ت بصيقل يعجو سطور دُجاها
إيوانه كوخٌ وكنز ثرائه
سيفٌ غداً يمينه تياها
(٣) في روض فاطمة نما غصنان لم
ينجبهما في النيرات سِواها
فأميرُ قافلة الجهاد ، وقطب دا
رّة الوئام والاتحاد ، ابنأها
أمسى تفرقها يحلّ عراها
ترك الإمامة ثم أصبح في الدنيا
ر إمام ألفتها وحسن علاها

و«حُسَيْن» في الأبرار والأحرار ما
فتعلموا رىّ اليقين من الحسيد
وتعلموا حرّية الإيمان من
الأمهات يلدن للشمس الضياء
ما سيرة الأبناء ، إلا الأمهات
أزكى شمائله وما أنداهما
ن إذا الحوادث أطمأت بظاهها
صبر الحسين وقد أجاب نداها
وللجواهر حسنها وصفها
ت فهم إذا بلغوا الرقى صداها

هي أسوة للأمهات وقُدوة
لما شكا المحتاج خلف رحابها
جادت لتنفذه برهن خمارها
نور تهاب النار قدس جلاله
جعلت من الصبر الجميل غذاءها
يترسم القمر المنير خطها
رقت لتلك النفس في شكواها
يا سحب أين نذاك من جدواها
ومنى الكواكب أن تنال ضيائها
ورأت رضى الزوج الكريم رضاها

فمهما يُرتل آى ربك بينما
بلت وسادتها لآلى دمعها
جبريل نحو العرش يرفع دمعها
لولا وقوفى عند أمر المصطفى
لمضيت للتطواف حول ضريحها
يدهم تدير على الشعير رجاها
من طول خشيتها ومن تقواها
كالطل يروى فى الجنان رباها
وحدود شرعته ونحن فداها
وغمرت بالانبيلات طيب ثراها

صوت إقبال إلى الأمة العربية

أمة الصحراء يا شعب الخلود
أى داعٍ قبلكم فى ذا الوجود
من سواكم فى حديث أو قديم
هانفاً فى مسمع الـكون العظيم
أطلع القرآن صبحاً للرشاد
ليس غيرُ الله ربّاً للعباد
قدّم الحكمة قوتاً للفطن
أنزل الله فأصبحتم لمن
يا مصاييح التآخى والتفانى

وابل من فيض أسمى القلب
أنبت الزهرَ بـصحراء العرب
الكريم الفرد فى كل الكرام
بهدى الحرية العُلىـما أنار
بل سقى فى القفر بستان الوئام
فهى روض مونق من غرسه
لم ينر إلا بذكرى أمسه
صاغ فيه للعُلا قلباً جديداً
بعد ما علّمه النهج الرشيداً
صار من عزمته تحت الثرى
بنـداه اخضرّ حتى أثمر

لا تسلى الآن عن ثورته
 في أبى بكر وفى صاحبه
 سيف أيوب وتقوى بايزيد
 أسكر الدنيا بجام واحد
 ها هنا الحكمة والدين القويم
 كل قلب فيه للمجد الصميم
 إنها ميدان بدر وحسين
 فى على ثم فى صبر الحسين
 فيهما مفتاح كنز العالمين
 فحوى الدنيا وضم المشرقين
 وهناك الحكم للدنيا يقام
 ثورة تملو به فوق المرام

لا تقل أين ابتكار المسلمين
 دولة سار ملوك العالمين
 دولة تقرأ فى آياتها
 وكنوز الحق فى طياتها
 أرسل الشكر إلى غير انتهاء
 أشعل الإيمان نارا بالعراء
 وحباه الله من عليائه
 ركب الناقة فى صحرائه
 كبروا لله فى ظل الحروب
 ضجة دانت لهم فيها الشعوب
 وسل الجراء واشهد حسن تاج
 نحوها طوعا يؤدون الخراج
 مظهر العزة والمالك الحصين
 دونها حارت قلوب العارفين
 لنبي الله قدسى الجباب
 أوقد النور بكف من تراب
 عزمة فل بها سيف الغير
 سار فيها راكبا خيل القدر
 وصفوفاً تحت ظل المسجد
 وارتقوا فيها مكان الفرقد

وَيَ كَأَن لَّمْ تَشْرُقُوا فِي الْكَائِنَاتِ
وَنَسِيتُمْ فِي ظَلَامِ الْحَادِثَاتِ
كُلُّ شَعْبٍ قَامَ بَيْنِي نَهْضَةً
فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ كُنْتُمْ أُمَّةً
كُلٌّ مِنْ أَهْمَلِ ذَانِئَتِهِ
لَنْ يَرَى فِي الدَّهْرِ قَوْمِيَّتَهُ
فَكَّرُوا فِي عَصْرِكُمْ وَاسْتَبَقُوا
وَأَمَلُوا الصَّحْرَاءَ عَزْمًا وَاخْلَقُوا
بِهْدَى الْإِيمَانِ وَالنَّهْجِ الرَّشِيدِ
قِيَمَةَ الصَّحْرَاءِ فِي الْعَيْشِ الرَّغِيدِ
وَأَرَى بُنْيَانَكُمْ مِنْقَسِمًا
لَهْفَ نَفْسِي كَيْفَ صَرْتُمْ أَمَّا
فَهُو أَوْلَى النَّاسِ طَرًّا بِالْفَنَاءِ
كُلُّ مَنْ قَادَ عَيْشَ الْغُرْبَاءِ
طَالَمَا كُنْتُمْ جَمَالًا لِلْعُصْرِ
مَرَّةً أُخْرَى بِهَا رُوحَ عَمْرِ

فتر الصّاحين

يا عبيدَ الماء والطين اسمعوا
هو عرفان طريق العارفين
ذلك الفقرُ عزيزٌ في غناه
يرعش الدهر إذا دوى صداه
خاشعٌ لله ذِيّك الفقير
حاله شوقٌ وذوقٌ ورضا
ياله فقراً به الكون صفا
ليله المظلمُ للمجد سراج
ربما غيّرَ ناموس الفلك
ذلك المسكين في رقعته
صامتٌ ليس يُطيل الكلاما
جعل العصفور نسرأ في الفضاء
مسلم دولته فوق الحصير
يتلاشى الجرُّ في نيرانه
لم يحد شعب عن النهج المنير
فامتحن وجهك في مرآته
ما هو الفقر الغنيُّ الأرفعُ؟
وارتواء القلب من عين اليقين
هامة الجوزاء من أدنى خطاه
ليس غير الله في الكون إله
وإليه خاشعاً يسعى الأمير
ثم تسليمٌ بما الله قضى
فهو ميراث النبيّ المصطفى
يصنع الجوهر من أدنى زجاج
وازدهى من نوره نور الملك
يسعُ العالم في مُهَجَّتِهِ
وهو بالصمت يربّي الأمما
فبدا للأرض تفسير السماء
كان يخشى بأسه ألفُ سرير
ويخاف البحر من طوفانه
ولديه مثل ذِيّك الفقير
علّه يحميك من آياته

ليس سُكر النفس في موت الرجاء
 فقرُّنا معناه تسخير الوجود
 يخجل الشمس ويُزرى بالقمر
 إنه زلزال تكبير الحسَّين
 إن كَأْسِي ليس يروى العابثين
 فهو لا يعلم ما نسج الحرير
 ثم لا يصيح للضم غلاما
 لا ولا للص فينا مأرب
 وراث المال قد أُمسَى ضياعا
 ماله يسكن في وكر الغراب
 فالتمس عَشَّك في أعلى الشجر
 وهو في ركن من البيت مقيم
 قم وأسمعه البرايا أجمعين
 أسمع النمرود توحيد الجليل
 فهو من جبريل في الدنيا قريب
 لم أذلَّ النفس يوما لأحد
 لست أرجو من سُليمان عطاء
 عُد إلى الحقّ تَجِدُ نور الصفا

فقرنا ليس برقصٍ أو غناء
 فقرُّنا معناه تيسير الجهود
 فقرنا العادي سراجٌ لو ظهر
 إنه إيمان بدر وحنَّين
 صاح دَعْنِي أَكْتَمِ الهمَّ الدفين
 من تكن همُّه نسج الحَصِير
 فليكن يوسف للذئب طعاما
 ليس للشيطان فينا مطلب
 فكنوز الدين قد طارت شعاعا
 منزل الشاهين في أوج السحاب
 لم يزل في الرَوْض ظلٌّ وثمر
 أيها الشادي بقرآنٍ كريم
 قم وأبلغ نوره للعالمين
 إن تكن في مثل نيران الخليل
 من له من ثروة الهادي نصيب
 حينما آمنت بالله الأحد
 إن أكن في صورة النمل خفاء
 يا غريباً عن مقام المصطفى

تصور الألم وتجديد الأمل

شعر رمزي يصور لنا فيه إقبال عظمة الفطرة الإنسانية ومقام المؤمن في تقدير ربه وإقبال في هذه القصيدة يدعو إلى الوحدة الإسلامية ويخوف المسلمين من شبح الفرقة الرهيب الذي مزق ألفتهم وأضعف من قوتهم وقد تناول ذلك كله في شعر رمزي يلمع فيه إلى الأشياء إلماعاً مستنهضاً عزيمة المؤمن منها إدراكه إلى ما في الوحدة الإسلامية من سعادة ينعم في ظلها الجميع قال :

يا أرض إني من ترابك قبضة وترى الكواكب أننى مرآتها
أنا من غبار الشعب أم اسكندر عندى الحياة وفي دمي ثوراتها

الأرض لا تخفي حقيقة جوهرى أنا مقصد التقدير في الأكوان
وحقيقتي نور فمالي ساج في لجة الظلمات والأشجان

أنا في رمال البيد كنز مخف حجبت نضارى هذه الصحراء
لم أحن رأسى خاشعاً إلا لمن يمينه الإحياء والإفناء

فقري لخلاقي غنى عن خلقه فأنا الغنى وإن غدوت فقيراً

وأرى فناء العيش خيرا للفتى من أن يعيش على الفناء أسيرا

أنا أمة فيما أريد لأمتي ولايتي دنيا من الأجيال
وأرى بمنظار الحقيقة كلما يمدية في الحق الصريح خيالي

قم أنقذ الوطن الكريم ولا تم هذى الحوادث آذنت بدخان
إني لألح في السماء تأمرا وأرى طلائع وابل النيران

...

فاخلق لروحك من زئيرك نشوة في المجد تهرب في العرين أسودا
واجعل نشيدك قول ربك لا تخف حتى يخاف البرق منك رعودا

وليمد في الأكوان قدرك عاليا وليعل صوتك في السماء رفيعا
لتراك أنظار الخليفة كلها فوق الكواكب والنجوم جميعا

دنياى آلام تذيب حشاشتى لا تمنعوني أن أثبت جروحي
إني سأوقد في القلوب شموعها وأزيد شعلتها بجذوة روجي

اليوم أسمعك احتدام مشاعرى وصراخ إيمانى وصوت منياى
المستحيل بدا لعينى ممكنا سارى الخليفة مارأت عيناى

وعدًا سآجع ذلك الحب الذي نثرته في ظلماتها الأهواء
لأرده عقدا سليما حاليا * تغنو لحسن نظامه الجوزاء

لم لم يعرف قلبك المجد الذي لم يزدهر إلا بأصلك في القدم
وبقيت في أرض المذلة لا ترى كالعين إلا مثل آثار القدم

أتميش بين المؤمنين مفرقا للمسلمين وتدعى التوحيد
وتظن ذكرك طاعة وعبادة وهواك صار إلهك المعبودا

فإذا بدا لك في الحياة تغير فاعلم بأنك أنت قد غيرتها
صور مشوهة تراها باكيا أنسيت أنك هكذا صورتها

من نور عينك أرسل الضوء الذي تهفو الفراش لناره وتخلق
من دمع عينك أرسل الغيث الذي من فيضه يجري السحاب المندق

...

الشمس لم ترفع بمشرق نورها ورق الغصون الخضر في الأشجار
من كان معدنه الرق فإنه مثل الندى يعلو مع الأنوار

...

وشرارة الحب المقدس تجعل الـ قلب المعذب شعلة من نور

والقلب في خمر الصبابة يزدهي خصبا وينبت فيه نخل الطور

حرية الأوطان ينمو غرسها في الاتحاد على هدى الإيمان
أما امتياز أنا وأنت فإنه شرك الردى والذل والحرمان

من يجنى أشجار الخلاف فإنما يجنى الضريع ويحصد الزقوما
قد مزقت أجيال آدم بعدما أقصته من غرف الجنان قديما

لم ألقَ في هذا الوجود سعادة كمودة الإنسان للإنسان
لما سكوت بخمرها القدسي لم أحتج إلى تلك التي في الحان

معنى احتراق القلب في الإخلاص أن القلب يصبح كله أنوارا
ولقد تحولت الفراشة شمعة لما أن احترقت فأضحت نارا

—————

عزيمية المسلم

يبتسم المسلم في ساهمه	عن رقة الماء ولين الحرير
وتبصر الفولاذ في عزمه	إذا دعا الحرب ونادى النفير
يمشى على الأشواك والفا	روالسيف ويمضى ساخرًا بالعذاب
فهو ترابي ولكنه	حر طليق من قيود التراب
المسلم الصادق في عزمه	ينازع الأقار تاج الفلك
لا يجعل العصفور صيدا له	لكنه يرقى لصيد الملك

النشيد الإسلامي

الصِّينُ لَنَا وَالْعَرَبُ لَنَا وَالْهِنْدُ لَنَا وَالْكُلُّ لَنَا
 أَضْحَى الْإِسْلَامُ لَنَا دِينًا وَجَمِيعُ الْكَوْنِ لَنَا وَطَنًا
 تَوْحِيدُ اللَّهِ لَنَا نُورُ الْكَوْنِ يَزُولُ وَلَا يُمُتَحَى
 بُنِيتْ فِي الْأَرْضِ مَعَابِدُهَا هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ نَحْفَظُهُ
 فِي ظِلِّ السَّيْفِ تَرَيْنَا عِلْمَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْآيَا
 بِرِيسَالِ النَّصْرِ يُضَى لَنَا وَأَذَانُ الْمُسْلِمِ كَانَ لَهُ
 قُولُوا لِسَمَاءِ الْكَوْنِ لَقَدْ يَا دَهْرُ لَقَدْ جَرَّبْتَ عَلَى
 طُوفَانِ الْبَاطِلِ لَمْ يُغْرِقْ فِي الْخَوْفِ سَفِينَةَ قُوَّتِنَا
 أَعْدَدْنَا الرُّوحَ لَهُ سَكَنًا فِي الدَّهْرِ صَحَائِفُ سُوءِ دِنَانَا
 وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ كَعْبَتِنَا بِحَيَاةِ الرُّوحِ وَنَحْفَظُنَا
 وَبَنِينَا الْعِزَّ لِدَوْلَتِنَا مِشْعَارُ الْمَجْدِ لِمِلَّتِنَا
 وَيُمَثِّلُ خَنْجَرُ سَطَوَاتِنَا فِي الْغَرْبِ صَدَى مِنْ هَمَّتِنَا
 طَاوَلْنَا النَّجْمَ بَرَفَعَتِنَا نِيرَانِ الشَّدَّةِ عَزَمَتِنَا
 فِي الْخَوْفِ سَفِينَةَ قُوَّتِنَا

يَا ظِلَّ حَدَائِقِ أُنْدُلُسٍ أَنْسَيْتَ مَعَانِي عِشْرَتِنَا
وَعَلَى أَغْصَانِكَ أَوْكَارُ عَمَرْتَ بِطَلَائِعِ نَشَاتِنَا
يَا دَجَلَةً هَلْ سَجَّلْتَ عَلَى شَطِّيكِ مَا ثَرِ عِزَّتِنَا
أَمْوَاجُكَ تَرَوِي لِلدُّنْيَا وَتُعِيدُ جَوَاهِرَ سِيرَتِنَا
يَا أَرْضَ النُّورِ مِنَ الْحَرَمِ نِ وَيَا مِيلَادَ شَرِيعَتِنَا
رَوْضُ الْإِسْلَامِ وَدَوْحَتُهُ فِي أَرْضِكَ رَوَّاهَا دُمْنَا
وَمُحَمَّدٌ كَانَ أَمِيرَ الرَّكْ بِ يَقُودُ الْفَوْزَ لِنُصْرَتِنَا
إِنَّ اسْمَ مُحَمَّدٍ الْهَادِي رُوحَ الْأَمَالِ لِنَهْضَتِنَا
دَوَّتْ أُنْشُودُهُ «إِقْبَالِ» جَرَسًا يَحْدُو فِيهِ الزَّمْنَا
لِيُعِيدَ قَوَافِلَنَا الْأُولَى فِي الْمَجْدِ وَيَبْعَثَ أُمَمْنَا

نشيد الأخوة الإسلامية

قاله الأستاذ الشيخ الصاوى شعلان أحد المترجمين

في عهد إنشاء جماعة الأخوة الإسلامية بمصر

بُنُورِ الْوِثَامِ وَبُشْرَى الْإِخَاءِ	نَزِفُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ النَّدَاءُ
هَامُوا جَمِيعًا فَرَبُّ السَّمَاءِ	بِتَوْحِيدِهِ وَحَدَّ الْمُسْلِمِينَ
أُخُوَّتَنَا بَيْنَ كُلِّ الْقُلُوبِ	كَقَبْلَتِنَا فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ
تَلَاقِ الشَّمَالُ بِهَا وَالْجَنُوبُ	مَعَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فِي كُلِّ حِينٍ
تَوَحَّدْنَا فِي الصُّفُوفِ الصَّلَاةِ	وَيَجْمَعُنَا فِي الْجِهَادِ الْحَيَاةِ
إِلَى الْإِتِّحَادِ دَعَانَا إِلَهِ	لِإِنْشَاءِ دُنْيَا وَإِعْلَاءِ دِينٍ
لَقَدْ خَلَدَ الدِّينُ فِينَا مِثَالًا	نَزِيدُ بِهِ أُلْفَةً وَاتِّصَالًا
فَأَخِي صُهَيْبًا وَآوَى بِلَالًا	وَنَادَى بِسَلْمَانَ فِي الْأَقْرَبِينَ
حَيَاةُ الْأُخُوَّةِ مَجْدٌ رَفِيعٌ	وَعَيْشُ التَّفَرُّقِ مَوْتُ سَرِيعٌ

لِدِينِ الْجَمَاعَةِ نَادُوا الْجَمِيعَ وَعِيشُوا بِإِيمَانِكُمْ أَجْمَعِينَ
بَيْنَنَا الْإِخَاءَ كُلَّ الدِّيارِ عَلَى أُلْفَةٍ أَيْبَعَتْ بِالْفَخَارِ
كَمَا يَنْظُمُ الرَّوضُ كُلَّ الثَّمَارِ كَمَا تَجْمَعُ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ
فَهَيَّا ارْفَعُوا لِلْإِخَاءِ الْعِلْمَ وَسِيرُوا بِهِ جَبْهَةً فِي الْأُمَمِ
بِصَفْوِ التَّآخِي وَصِدْقِ الْهِمَمِ نُعِيدُ السَّلَامَ إِلَى الْعَالَمِينَ

الكتاب الثاني
في
المتفرقات

أعئلة من شعر إقبال

امصاحب السعادة الدكتور عبد الوهاب بك عزام
رئيس جامعة الأخوة الإسلامية بمصر سابقا

(١) الحياة

بكي سحاب الربيع في جنح الليل فقال : هذى الحياة بكاء مستمر فتلا
البرق الخاطف :

الكتاب الثاني

قد أخطأت لأنها لم تأب
الحديث فهو حوار مستمر بين الندى

في المتفرقات

سمعت المرأة تقول : لست كائنات ينال الناس شرها ؛ ولست كالقراشة
تسقط بئار غيرها .. أنا أشتغل بنفسى ولا أحل لأحد منّا إذا صار الليل أحلك
من عين الطلي أرت بنفسى لنفسى العاريق .

(٢) الحقيقة

قالت العقاب بعيدة النظر للعقواء : إن الذى تدركه عينى سراب .. أجابت
العقواء : أنتى روين ذلك ، ولكنى أعلم أنه ماء . فتادت السمكة من لجة البحر :
عنا وجود لاشك فيه وهو فى هياج واضطراب .

أمثلة من شعر إقبال

لصاحب السعادة الدكتور عبد الوهاب بك عزام
رئيس جماعة الأخوة الإسلامية بمصر سابقا

(١) الحياة

بكي سحاب الربيع في جنح الليل فقال : هذى الحياة بكاء مستمر فتلا
البرق الخاطف :

قد أخطأت ! إنها لمحات من الضحك . ليت شعري من روى للبستان هذا
الحديث فهو حوار مستمر بين الندى والورد .

(٢) اليراعة

سمعت اليراعة تقول : لست كالنملة ينال الناس شرها ؛ ولست كالفراشة
تصطلي بنار غيرها - أنا أشتغل بنفسى ولا أجهل لأحد منّا إذا صار الليل أحلك
من عين الظبي أنرت بنفسى لنفسى الطريق .

(٣) الحقيقة

قالت العقاب بعيدة النظر للعنقاء : إن الذى تدركه عينى سراب - أجابت
العنقاء : أنتِ ترين ذلك ، ولكنى أعلم أنه ماء . فنادت السمكة من لجة البحر :
هنا وجود لاشك فيه وهو فى هياج واضطراب .

(٤) الحكمة والشعر

ضلّ أبو علي في غبار الناقة ، وأمسكت يد الرومي ستر الهودج هذا غاص
حتى ظفر بالجواهر اللآلئ ، وذلك دار مع الغناء على وجه الماء - الحق إن لم
تكن فيه حرقه فهو حكمة ، وهو شعر اذا قبس من القلب ناراً .

(٥) الوحدة

ذهبت إلى البحر فقلت للموج المصطبغ : أنت في سمي دائم فما خطبك ؟
في جيبك آلاف اللآلئ فهل في صدرك جوهر من القلب كالذي في صدرى
- فاضطرب وجزر ولم يحر جواباً .

ذهبت إلى الجبل فسألت : ما هذا الجمود ؟

الايغال سمعك صيحات المكرويين وآهات المحزونين ؟ إن يكن العميق
الذي في أحجارك قطرات من الدم فحدثني فإني محزون .
فانقبض وصمت ولم يحر جواباً .

قطعت طريقاً بعيدة ... وسألت القمر : يا جواب الآفاق ! هل قدر لك
في سفرك قرار ؟
العالم حديقة ياسمين من شعاع وجهك ، فهل نور وجهك من قلب يتجلى ؟
فرأى رقباء بين الأنجم فلم يحر جواباً .

تخطيت القمر والشمس إلى حضرة الخلاق فقلت ليس في عالمك ذرة تعرفنى .
العالم خلو من القلب وأنا قبضة من التراب ، ولكنها كلها قلب . إن هذه
الروج جميلة ولكنها ليست أهلاً لنعماى - فتبسم ولم يحجر جواباً .

(٦) نسيم الصباح

إنى آتية من صفحات البحار وقم الجبال ولكن لست أدرى من أين أهب
إنى أبلغ الطائر المحزون رسالة الربيع وأنثر فى داره فضة الياسمين . وأنقلب فى
المرج وألتف على أغصان الشقائق فأبعث اللون والرائحة من مسامها ، وأتعلق
رفيقة بأوراق الورد والزهر حتى لا أثقل على أغصانها ، وإذا رأيت شاعراً
هاجته هموم العشق خلطت بنغماته نفساً بعد نفس .

(٧) العشق

عندى خبر هذه الكلمة الأخاذة للقلوب التى هى سر وليست بسر . أنا
أنبئك من سمعها وأين سمعها ! استرقها الندى من السماء فأوحاها إلى الورد ،
وأخذها عن الورد البلبل ونقثها عن البلبل ريح الصبا .

(٨) نعمة حادى الحجاز

يا ناقتى الخطارة وظيبتى المعطارة

وعدتى والشاردة

والمال والتجارة يا دولتى السيارة !

حُثِي الخطي قليلا منزلا قريبا

جميلة الرواء مطربة الرغاء
محسودة الحسناء وغيرة الحوراء
بنيّة الصحراء

حُثِي الخطي قليلا منزلا قريبا

كم غصت في الشراب في وقدة اليباب
وسرت لم تهابي في الليل كالشهاب
والنوم عنك نابي

حُثِي الخطي قليلا منزلا قريبا

قطعة غيم غادي سفينة الرواد
كالخضر في البوادي تمضين في سداد
فلذة قلب الحادي

حُثِي الخطي قليلا منزلا قريبا

هيامك الزمام وسيرك الأنعام
يتعبك المقام لا الجوع ولا الأوام
والسفر المدام

حتى الخطى قليلا منزلا قريب

مسمية في اليمن مصبحة في قرن

ترين حزن الوطن كالخز تحت الثفن

إيه غزال الختن

حتى الخطى قليلا منزلا قريب

بدر السماء نعسا خلف التلال خنسا

والصبح قد تنفسا مزق هذا الغلسا

والريح ترجى نفساً

حتى الخطى قليلا منزلا قريب

لحنى دواء السقم والروح ملء نغمى

يحدو الركاب كللى من جارج وجلهم

هلم بنت الحرم

حتى الخطى قليلا منزلا قريب

ومن كلامه في « نقش فرنك » وهو القسم الرابع من « پیام مشرق » .

(٩) جمعية الأقباط

يريد المرزأون أن يستنوا سنة جديدة ليمجوا آية الحرب من هذا المحفل العتيق .
فأعرف قبل اليوم أن جماعة من سُراق الأكلان ألفوا جماعة لتقسيم
القبور .

(١٠) نيتشه

خفق قلبه لضعف عناصر الإنسان ، وخلق فكره الحكيم صورة أحكم
وأمتن ، فأثار بين الفرنج هياجاً بعد هياج : مجنون ولج مصانع الزجاج - إذا بغيت
نعمة ففر منه ، فليس في نايه إلا قصف الرعد قد دفع مبضعه في قلب الغرب
واحمرت يده من دم الصليب - هذا الذي بنى معبداً للصنم على قواعد الحرم ،
قد آمن قلبه وكفر دماغه .

(١١) جلال الدين الرومي وهيجل

كنت ليلة أحاول أن أحل عقد الحكيم الألماني ذلك الذي خلع فكره
على الأبدى كسوة الآنى ، والذي أخجل العالم إذ ضاق عن سعة خياله - فلما
نزلت في بحره صارت سفينة العقل طوفانا ، ثم سحرني النوم فأغمضت عيني
عن الفانى والباقي ، وازداد شوق وقدة فتجلى لى وجه الشبح الإلهى : الشمس
التي أضاءت آفاق الشام والروم ، والذي وضع شعلته مصباح هدى في هذه الدنيا

المظلمة ، الذى تنمو المعانى من كلماته كما تنمو شقائق النعمان . قال لى كيف تنام
استيقظ ، إنك تجرى سفينة فى سراب . إنك تجتاز طريق الفسق بالعقل .
إنك تبحث عن الشمس بمصباح .

(١٢) نهر الكنج وهملايا

قال نهر الكنج يوماً لجبل همالايا وهو يجرى فى سطحه ! أيها المتوج بالبرد
من فجر الخليقة والمنطق بالأنهار الجارية، جعلك الله نجى السماء، ولكن حرملك
التبختر فى العراء، ماغناء الرقاد والرسوخ والرفعة، وقد سلبت الحياة والحركة؟
الحياة سعى دائم كاللوج : وجوده حركته الدائمة - فلما سمع الجبل تعبير النهر
أرسل أنفاسه بجراً من نار وقال : يا من اتخذت صفحة مرآتى أ كنت مئات
من مثاله فى صدرى - هذا التبختر زينة الفناء ! من ذهب عن نفسه فقد حرم
البقاء - قد غفلت عن مقامك ونفرت بزوالك يا وليد الفلك الرفيع : إن خيراً
منك الساحل الوضيع - قدمت نفسك قرباناً للمحيط ، ونثرت روحك لقاطع
الطريق - كن فى بستانك ورداً ولا تذهب وراء القاطف لتنشر عبيرك - إن
الحياة أن تنمو فى مكانك وأن تنشر العبير فى بستانك .

خلت القرون وأنا فى طينتى ثابت القدم ، وتحسبني إلى الغاية لم أتقدم كلاً
قد عظمت حتى بلغت السماء ، واستراحت على سفحى الجوزاء - ضل وجودك
فى البحر الخضم - وصارت ذروتي مسجد الأنجم - عيني بأسرار الفلك بصيرة،
وأذنى بطيرانه خبيرة - احترقت بنار السعى الدائم - فجمعت فى صدرى الجواهر

« فى صدرى حجارة ، وفى الحجارة النار ، وليس الماء إلى هذه النار سبيل »
 - إن كنت قطرة فلا ترق نفسك بيدك ، بل جاهد اللجة وحارب اليم لحياتك -
 كن جوهرأ لألاء ، يزيد جيد الحسناء ضياء أواسم بنفسك وأسرع المطار ، وكن
 سحاباً يرمى البروق ويمطر البحار ليستجدى البحر إحسانك ويشكو ضيقه عن
 إنعامك ويرى نفسه أقل من موجة لديك ، ويرتمى على قدميك .

(١٣) قصة الطائر الذى أنهكه العطش

بلغ العطش من طائر جهده فاضطرب نفسه موجة من الدخان فى صدره ،
 فأبصر فى بستان شذرة من الماس الوضاء نخيل إليه العطش أنها ماء ، وخدعت
 الطائر المجهود هذه الشذرة المتلألئة كالشمس فتوهم الحجر الصلب ماء سائلاً ،
 وغره من هذا الجواهر بريقه فضرب بمنقاره فلم تنقع غلته - قالت الماسة : أيها
 الطائر المسحور ! لشد ما ضربت بمنقار الغرور ! لست قطرة من الماء ، ولا مشربة
 للظماء ليست حياتى من أصل غيرى - إن محاولة التقاطى جنون وغرور ، وغفلة
 عن الحياة الذاتية الظهور - إن مائى يكسر من الطير منقاره - ويصدع من
 الإنسان جوهر روحه - خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاء ،
 وانقلب الأمل فى صدره حسرات ، واستحالت أئيناً هذه النغمات - ثم بصر
 بقطرة من الطل على فنن من الورد تتلألأ كدمعة من عين البلبيل ضياؤها
 أفناناً فى وهج الشمس وهى من خوف الشمس فى رعد كوكب ولدته السماء
 فلبت لمحة فى نشوة الظهور والضياء ، وخدعته ألوان الأكام والأزهار فلم يأخذ

من الحياة نصيباً كدمعة العاشق الليل ، زانت الهدب لتسيل .
ويسرع الطائر إلى فنن الورد فيلتقط قطرة الندى — أيها المبتغى نجاة من
الأعداء ! خبرني أجوهر أنت أم قطرة من ماء . ألم تر إلى الطائر حين أذاب
العطش مهبته ، كيف وقى بحياة غيره حياته ؟ لم تكن القطرة في صلابة الجوهر
ولكن كانت الماسة صلبة المكسر . فلا تغفل عن حفظ الذاتية لحة ، وكن
قطعة ماس لا قطرة .

كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال وتحمل بحاراً من السحاب المطال .
وجد نفسك تقوى نفسك واستحل فضة بجمود زئبقك . أظهر نعمة الذاتية
من أوتارها ، وتجل للناس بأسرارها .

(١٤) في الكلام على الوقت

اسمع نكتة تضيء كالدر ، لتعرف فرق ما بين العبد والحر : العبد ضال
في الليل والنهار ، والزمان في قلب الحرّ ضال . العبد ينسج من الأيام كفته
ويخيط الليل والنهار على نفسه ، والحر يخلع نفسه من الطين ، ثم ينسج على
الزمان محرابه المتين . العبد طائر في شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه لذة
الصبح في الهواء ، وصدر الحر الهمام ، قفص طائر الأيام . فطرة العبد تحصيل
الحاصل وخواطره تكرار قاتل . مقامه من الجود واحد ، وصوته بالليل والنهار
راكد . والحر كل حين خلاق ، يسكب نغمة مجددة في الآفاق . فطرته لا تحتمل
التكرار ، وليست طريقه حلقة البركار ، العبد في سلاسل من أيامه ، والقضاء

والقدر ورد لسانه ، وهمة الحر مثيرة على القضاء قصور يده الحادثات ، كإتشاء .
 الماضي والآتى مائلان لديه ، والآجل عاجل بين يديه ... نضر الله عهداً كان
 سيف الزمان ، حليف أيدينا على الحدثنان ، فبذرنا الدين في أرض القلوب ، ورفعنا
 الحجاب عن وجه الحق المحجوب ... وحلت عقدة الدنيا أناملنا ، ونضر وجه
 الأرض سجدونا ، وشربنا الصهباء من دنّ الحق ، ثم سرنا بنشوته بين الخلق .
 يامن أترعت كأسه الخمر المعلقة ، وأذابت كأسه الصهباء المحرمة ، وملاءه الكبر
 والغرور ، فغيرنا بالفقر والمتربة . لقد كانت كأسنا كذلك زينة المحافل ، يوم كنا
 وصدرنا بالقلب أهل ، وثار من غبار أقدامنا عصر جديد - ينجلي بكل أمل
 بعيد ، ورويت مزرعة الحق بدمائنا ، وسعد عبّاد الحق بملائنا ، ودوّى العالم
 بتكبيرنا ، وعمرت كعبات من ترابنا . وأنزل الحق كلمة « اقرأ » فينا ، ثم قسم
 رزقه بأيدينا . فإن يكن ذهب منا الخاتم والتاج ، فلا تحقر ذلك الفقير المحتاج .
 إن نكن بزعمك مفسدين ، وبالأفكار العتيقة مغرمين ، فنحن لانزال الأحرار
 أنصار التوحيد ، قوامين على العالمين والله شهيد .

فرغنا من غم اليوم والغد ، وحالفنا الله الأحد ، فنحن في قلب الحق سر
 مكفون ، ونحن ورثة محمد وموسى وهارون ، لا يزال نورنا في الشمس والقمر
 مصوناً ولا يزال سحابنا بالبرق مشحوناً . إن ذات المسلم مرآة الحق ، وإن
 وجود المسلم من آيات الحق .

في حفلة الذكرى

لحضرة صاحب السعادة محمد علي علوبة باشا

سفير مصر في الباكستان

رأيت له لأول مرة في القدس من عشرين عاما مضت أيام كنا وكيلين للمؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد هناك للدفاع عن فلسطين ولقد كنا نحن الاثنين من خطباء هذا المؤتمر . كنت أعرفه قبل ذلك بالاسم ، فلقد سبقته شهرته إلى الأقطار العربية كشاعر ، ومفكر ، وفيلسوف . ولم أكن أعرف عنه غير ذلك ، لأن قصائده ، وأفكاره ، وحكمه ، وعظاته ، كانت كلها باللغة الفارسية أو الأوردية ، فلم يصلني من معانيها سوى القليل النادر الذي لا يكفي لإعطاء حكم صادق على الرجل ومقدرته ، فذلك يستدعي الإحاطة بتجاهاته ، وبما يرمى إليه من أهداف - فهل كان شاعراً للشعر ، ومفكراً يمتحن إبراز جوامع الكلام في ثوب قشيب يشعر بأدبه وبلاغته فحسب ؟ وهل كان هدفه أن يترك للناس نماذج من حسن البيان يتغنون بهافي الحب أو الوصف ، وفي المديح أو الهجو ، وفي الحماسة أوفى الدعة والسكون ، وفيما إلى ذلك مما تركه لنا رهط من الشعراء الأولين ، أو كان أكثر عمقا وأبعد غورا ؟ لم يكن لدى من المعرفة ما يسمح لي أن أحكم عليه ، ولم أكن لأتمكن كذلك من الحكم عليه بمجرد التعارف ، والمحادثة ، وإطراء المعجبين

به ممن عاشروه واستساغوا قليلا ، أو كثيرا من شعره —

رأيت ، فوجدته متوسط القامة ليس رابى الجسم ولا ضامره . كان هادئا ، قليل الكلام ، كثير التفكير ، تعلوه سمات العلماء المتواضعين — فما ان أتى دوره فى الخطابة وألقى كلمته بالأوردية وبها حديث نبوى شريف ألقاه بالعربية ، وسأحدث عنه فى كلمتى هذه — وفهمت من بعض أصدقائى مغزاها ، حتى فهمته هو ، وأهدافه بمض الفهم ، ثم أحببته وشرفت بصداقته —

وبعد قليل ، رحلت إلى البلاد الهندية ، وبقيت فيها أربعة أشهر ونصفا ، وحظيت ببقاء هذا الصديق مرة أخرى فى مدينة لاهور الزاهرة ، فأخذنا نتحدث فيما يجب أن يعمل للأخذ بناصر فلسطين منكودة الحظ وها أنذا أرجع اليوم إليكم ألتفت بمنة ويسرة للقاء هذا الصديق العظيم ، لأستمع بأحاديثه العذبة ، وعظاته البالغة فلا أجد له حسا ، وأجد نفسى واقفا — والأسى يملأ فؤادى والألم يقض مضاجعى — أتحدث فى رثائه ، ورثاء الرجولة والطهر فيه ، وكأن الله جلت قدرته أراد أن يرتفع بهذا الرجل الكريم عن هذه الأرض الفانية التى دنسها الشهوات الوضيعة ، فلا يشهد بعينيه ، ولا يسمع بأذنيه ، ماحلّ بفلسطين من مأس فاجعات .

وإن عزاءنا فيه هو أن روحه الطاهرة تطلّ علينا الآن من جنات الخلد تبارك شعب الباكستان ، وتدعوه لتحقيق آماله فيه وما كان ينادى به فى حياته وما ضحى به فى سبيله من راحته ومن دنياه .

رأيت وصداقته ثم فهمت شيئا من خبايا نفسه التى بدت فى شعره فعمجبت

كيف لهذا الجسم المحدود أن يضم هذا العقل الجبار والخيال الخصب والثروة الضخمة في البيان وفي الفلسفة والنفس الثائرة التي لا تعرف هواناً ولا تؤمن بمحدود في سبيل النهوض بالمسلمين وإرشادهم إلى الطريق السوي الذي رسمه الإسلام ؛ وفي سبيل تعريفهم كيف يكون الإيمان وكيف يكون شرف الإسلام وطهره وشهامته ونزاهته وجهاده وتضحياته في العمل على رفع شأن الفرد وشأن الجماعة .

لقد قرأت عنه كثيراً وسمعت الناس يتغنون بأشعاره في المديح وفي مجالسهم العامة والخاصة وأعجبني منه الكثير وسأعرض على المتكلمين بالعربية نماذج معربة من شعره لنرى كيف أنه نخر العالم الإسلامي كله وأنه ينبغي على البلاد الإسلامية أن تدرس ما خلفه من ثروة أدبية وفلسفية وأن تخلد ذكره بإنشاء كرسي باسمه في الجامعات الإسلامية اعترافاً بما أسداه للعالم الإسلامي من خير عظيم .

ويلوح لي أن فقيدها لم يكن ينبغي من وراء شعره أن يلعب بالقلوب والأحاسيس لكنه كان صريحا ماهرا وكان فيلسوفا مؤمنا مجاهدا جعل من نظمه قيامة توصل حكمة للقلوب فتغذيها وتهذب أذواقها وتهدي العقول إلى الوطنية والكرامة والإباء والإيمان والقوة والأمل وكان بالأحرى صاحب رسالة أدبية إنشائية ووطنية إسلامية في أرفع مظاهرها .

أود أن أتلو على مسامعكم الحديث النبوي الشريف الذي تلاه فقيدها العزيز

باللغة العربية في المؤتمر الإسلامي العام بالقدس الشريف فقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول للمسلمين : « أنا حظكم بين الأنبياء وأنتم حظى بين الأمم » . بيد أن فقيدنا العظيم لم يوجه كلامه هنا للعرب فحسب كما فعل في الشعر السابق بل وجهه إلى العالم الإسلامي كافة . ونحن إذا نظرنا إلى الشطر الأول من الحديث الشريف حق لنا أن نفخر بالانتساب إلى دين هذا النبي الأُمى الذى اختاره ربه خاتماً للأنبياء والمرسلين وأنزل عليه قرآناً عربياً مبيناً لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — قرآناً حول الجاهلين من الوحشية وفساد الخلق وعبادة الأوثان إلى وحدانية الله جل شأنه وطهر نفوسهم من رجس الكفر والضلال ورفعهم إلى أعلى درجات السكال الإنسانى من القوة والبأس والطهر والإباء والحرية — قرآناً سوى بين البشر فلم يعرف تفاوتاً بين الأجناس والألوان أو اللغات أو الأوطان بل جعل التقوى والعمل الصالح مدار التفاوت : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

هذا السمو في المبادئ هو الذى كان ينادى به الفقيد العظيم ، ويذكر به المؤمنين حتى يسيروا على هديه ويقهّموا دينهم فهماً صحيحاً يؤدى بهم إلى أن ينهضوا نهضة عامة من طهارة النفس وقوة الجانب وغزارة المعرفة والعلم فيرتفع شأنهم أمام من لم يعرفوا حقيقة الإسلام ويكونوا خير مثل خير هدى .

وإذا انتقلنا إلى الشطر الثانى من الحديث النبوى — وهو أن المؤمنين حظ النبي بين الأمم — لا نجد بداً من أن نتساءل : هل يرضى نبينا صلى الله عليه وسلم

يحظه منا نحن مسلمى الأجيال الحاضرة وبيننا ما بيننا من تنافر وتدابير وتنابد وفقر وجهل وعزوف عن أوامر الله ونواهيه ؟ وهل هو فى مضجعه الطاهر معتز بنا نخور بحظه منا أو انه يرثى لحال أولئك الذين يلتصقون بدينه اسماً وتشهد عليهم أعمالهم بالزور والبهتان ، ويبرأ إلى خالقه مما يعملون ويقتربون من تبديد أمانة الإسلام المودعة بين أيديهم والمعلقة فى أعناقهم ؟ وهل نحن - بالوضع الذى نحن عليه - مسلمون حقاً أو اننا جناة على الإسلام وغمءاء كغمءاء السيل وإن أخشى ما أخشاه أن تحل بنا نعمة الله فيعود الإسلام غريباً فى دياره .

أيها المسلمون فى بقاع الأرض كافة إننى أوجه إليكم نفثة مصدر كلمة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، ألا وهى : أننا باهالنا لديننا وبالبعد عن مبادئه قد أصبحنا فى حالة من الضعف والانحلال لا يليها إلا الهاوية : فليس لنا علم ولا قوة وليس لنا فى النهاية دين . فانهضوا وتعلموا وتضامنوا واعتبروا بما وقع عليكم وعلى من كان قبلكم من العقاب جزاء وفاقاً . اتعظوا بالأندلس وانظروا كيف ضاعت نتيجة الشقاق والأطماع الشخصية والبعد عن مبادئ الدين الحنيف وانظروا إلى محنة فلسطين واجعلوها عبرة العبر ، انظروا إلى ما بقى لديكم من تراث وكيف أنكم قد أصبحتم فى مشارق الأرض ومغاربها وفى شمالها وجنوبها فى حالة من الضعف والوهن إن لم نتدارك فيها أنفسنا أضعنا ما بقى لنا من تراث وأصبحنا سخرية العالمين ، وإن عزاءنا الوحيد هو فى رجاء أن تكون تلك اللحظة القائمة من تاريخنا لحظة الظلام الذى يسبق طلوع النهار والضيء المنتشر .

وأما أنت أيها الراحل الكريم فإنك بيننا حتى لم ترحل ولم تمت « فالملت

ميت الأحياء » لقد رفعك ربك يا إقبال إلى جواره واستجاب لدعائك بخلق
الباكستان فلتراقب روحك الطاهرة أعمال المسلمين في جميع أقطار الأرض .
راقب واشهد وأنت بجوار ربك وفي رحمته ورضوانه لترى هؤلاء الأحياء بعدك
هم الأموات أو أنهم سيعلمون أن الله سيبدل عسرهم يسرا حين يعدّون العدة
ويطيعون الله ورسوله ويغيرون ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم ، ويبدلهم من بعد
خوفهم أمنا ، ومن بعد ضعفهم قوة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا
ما بأنفسهم » فيحيوا حياة حقّة يرضون فيها دينهم ودنياهم .

ألا رحمة الله عليك يا إقبال فقد كتب لك الخلود بعد أن أفنيت جسمك
لدينك ولأمتك طيب الله ثراك وأنزلك منازل الصديقين والشهداء والصالحين
والسلام على من اتبع الهدى .

(من المحاضرة التي أقيمت في حفلة الذكرى بـ (بلاهور))

شِعْرُ إقبال

للأستاذ سميذ عبد الواحد مدير الغابات بالبها كستان

يقول الشاعر الأكبر محمد إقبال في قصيدة له إنه انما يتخذ من الشعر وسيلة
لهدى الناس إلى السبيل السوى ويدلهم إلى طريق الصواب، فهو يعتقد أن الشعر
إذا لم يثر في الناس الشعور بالصواب والحق لا يؤدي الغرض المتوخى منه، فالنظم
فن كسائر الفنون، غرضه الحقيقي هو أن يجعل الحياة غنية جميلة، وإذا أخفق في هذا
فلا فائدة فيه ولا جدوى ثم أن إقبالا يعتقد بأن الفنون إنما تمل محاولات الإنسان
لتفهم حقائق الحياة. وليس من المفروض في الفنانين أنهم يعدون أنفسهم
للإتيان بالماثر العظيمة لمجرد تسليمة الناس والترفيه عنهم بما يتدعون من الأعيب
فنية، وإنما أساس فهمهم هو الرغبة في حمل الناس على الاقتناع بتلك الحقائق
العظمى التي يؤدي فهمها إلى الترفيه عنهم وإلى ترقية حالهم، والغرض الرئيسى
من فن إقبال الشعرى هو أن يعين قراءه على الكفاح في الحياة، ولكي يدرك
هذا الغرض كان عليه أن يغنى بنشيد الحياة، ومما زاد في متانة شعره وجمال
فنه سعة علمه وعظم فهمه، فإننا لنجد في شعره مزيجا من سلاسة الشعر ووضوح
التفكير وعمق الفهم، صيغت كلها في قالب منسجم جذاب قل أن يوجد له نظير

في آداب اللغات الأخرى، نعم ان خياله الفياض قد جعل منه فناً عظيماً ولكنه لم يكن مجرد فنان يهوى الزخرفة والبهرج :

فلواقع أن الحافزين القويين الذين حفزاه على الأداء الفني هما إيمانه بقابلية الإنسان على الرقي والتقدم إلى ما لا نهاية لحده واعتقاده بما للإنسان من مقام منقطع النظير في هذا العالم، وقد أسبغ هذان الحافزان على فنه لوناً جذاباً تهواه النفوس في جميع أطراف العالم .

ولإقبال شعر كثير يتناول فنونا مختلفة، فقد خلف شعراً في لغتين (الفارسية والوردية) وكان يزعم الكتابة بلغة ثالثة لما اختطفته يد القدر، وماترك باباً من أبواب الشعر الاطرقه إلا الشعر الدراما طيق^(١)، فقد نظم الشعر الغنائى والشعر الفلسفى والشعر القصصى والشعر الوصفى، فكانت قصائده في جميع هذه الأبواب تفتضى تنوع الموهبة الفنية، وكذا كانت موهبة إقبال الفنية .

لا يتيسر لنا أن نتناول هنا شعره الفلسفى والقصصى، ونظمه فيما وراء الطبيعة، ولكننا سنويز ذكر أهم قصائده في هذه الأبواب، فإن تصنيف أبواب الشعر غالباً ما يكون محض اعتباط وتعسف، وليس من السهل تصنيف شعر إقبال حسب تلك الأبواب وكثيراً ما اختلف الكتاب في هذا التصنيف فلم تتفق كلمتهم . فقد يعتبر كاتب من الكتاب قصيدة ما من باب الفلسفة فيرى كاتب آخر أنها من باب القصص وهكذا .. ونذكر فيما يلي أشهر قصائده :

١ - أسرار خودى ... أى أسرار الشخصية .

٢ - رموز خودى ... أى رموز الشخصية .

٣ - كلشن زار جديد ... أى روضة الأسرار .

٤ - بندكى نامه أى رسالة العبادة .

٥ - جاويد نامه

وتعتبر أ كثر القصائد المذكورة أعلاه من باب الشعر الفلسفى ، وربما كان الأصح إدخال بعضها على الأقل فى موضوع ما وراء الطبيعة ، ويجدر بنا - ونحن نشير إلى الشعر الفلسفى - أن نتذكر أن الناس يميلون عن جميع أضرب الشعر الفلسفى أو قل الشعر المفروض فيه أنه فلسفى ، ولو أن هذا مما يعزى إلى سوء الفهم ، فالواقع أن فيصل التفرقة بين الشعر الوجدانى والشعر الفلسفى قليل طفيف لأن الشعر الفلسفى يصور كالشعر الوجدانى فرط عواطف الشاعر وأحاسيسه ولو بدرجة أقل مما فى هذا الضرب من الشعر . أما ما يختص بالفلسفة نفسها فلا يستطيع شاعر أن ينظم قصيدة عظيمة فيها ما لم يكن له ثمة أساس من العلوم والمعارف وما لم يدرك إدراكا تاما بمبادئها ومقوماتها . وقد قال روشكين الكاتب الروسى الشهير « إن أعظم فن هو الفن الذى ينقل للمتفرج بأى وسيلة من الوسائل أعظم عدد ممكن من أعظم الأفكار » . ولكننا ينبغى أن نتذكر أننا حين نقدر الشعر الفلسفى حقّه يترتب علينا أيضا أن نقدر قيم الأفكار الواردة فيه إلى جانب جمال النظم وحسن القافية . فالمراد من الشعر الفلسفى هو أن يصب الشاعر أفكاره الفلسفية فى قالب شعرى يستمد منه قراءه وأحاسيسه . وأول شعر فلسفى نظمه إقبال هو قصيدته « أسرار خردى » وقد أذيعت فى الناس سنة ١٩١٥ ، وتضمنت وصف المبادئ الرئيسية المؤثرة فى تطور

شخصية الإنسان ، فما ان نشرت وترجمت إلى الإنكليزية^(١) حتى شاعت في جميع أطراف العالم . ويقول الأستاذ نيكلسون في مقدمة ترجمته « إن أسلوب القصيدة الفني لما يدعو إلى الإعجاب لاسيما إذا علمنا أن اللغة التي نظمت فيها ليست بلغة الفاظم ، وقد بذلت غاية ما في وسعي للاحتفاظ بذلك الأسلوب بالقدر الذي تسمح به الترجمة الحرفية . وإن في القصيدة الأصلية أبياتا كثيرة من الضرب الذي إذا تلوته مرة علق في ذهنك ..

وقد وصف إقبال في « رموز خودي » المبادئ الأساسية التي ينبغي أن يقوم عليها المجتمع الأمثل ، ويتناول في قصيدة « كشن زار جديد » المشاكل الروحية الغامضة فيعالجها بالبحث ، إذ يوجه إلى نفسه تسعة أسئلة ثم يجيب عليها واحداً واحداً . أما قصيدته « بندكي نامه » فتتناول شرور العبودية وتهدف إلى إقناع قرائها بالحقيقة الأساسية القائلة بأن شخصية الإنسان لا يمكن أن تتقدم وترتقي إلا في جو الحرية ، فالعبودية في أى شكل من الأشكال . وسواء أكانت عبودية سياسية أم عبودية اقتصادية من شأنها أن تحول دون رقي البشر وتقتل فيهم الحوافز التي تدفعهم إلى الابتكار والانشاء ومن نتيجة ذلك أن تدخل في روح العبيد أفكارا وآراء خاطئة حتى فيما يختص بالفنون الجميلة .

أما قصيدته « جاويد نامه » فهي خيرة قصائده على الإطلاق ، فلم تمض على نشرها بضعة أعوام حتى أصبحت من القصائد الكلاسيكية الخالدة ، وفيها

(١) ترجمها الأستاذ آر . أي نيكلسون .

يرافق الشاعر الصوفي العظيم جلال الدين الرومي (الذي يقوم بالنسبة له مقام فرجيل بالنسبة للشاعر دانتي) فيطوف الكواكب والأفلاك ويقابل الشخصيات التاريخية ممن يصورون في حوارهم الحقائق الأزلية . وتعتبر القصيدة كلها من غرر الشعر الفارسي لما حوته من بلاغة في التعبير وجهال في الأسلوب ومتانة في النظم وغنى في الوصف ، وعند ما يطوف الشاعر في المريخ يلتقي بالزعيم المصري سميد حليم باشا ، فيأخذ بالمقارنة بين الشرق والغرب ويبين أن خلاص البشر يتوقف على التوفيق بين الحضارتين الغربية والشرقية أو على حد تعبيره بالتوفيق بين العاطفة (أو الحب) والعقل :

في الغرب : العقل مصدر الحياة
وفي الشرق : الحب قوام الحياة
وبواسطة الحب يحيط العقل بالحقائق

فيعزز شغل الحب
أنهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد .
بالتوفيق بين العقل والحب

وفي فلك من الأفلاك يلتقي بالشاعر غنى الكشميري ، فيشير هذا إلى بيع الإنكليز بلاد كشمير إلى مهراجا جولاب سينغ زعيم الدوجرا بثمان بخس لا يتجاوز السبعة الملايين روية :

إذا مررت يانسيم بجنيف
فاحمل هذه الرسالة منا إلى عصابة الأمم

باعوا الزراع والزرع والأنهار والأشجار

وبالجملة باعوا شعباً بأبْحَس الأثمان

لا يتسع المجال هنا لذكر جميع ما نظمه إقبال في باب الفلسفة غير أن من يتأمل في قصائده وأشعاره في هذا الباب يجد فيها كثيراً من الخواطر السامية والأفكار الدقيقة والحكم البليغة ، التي قلما توصل الشعراء إلى أمثالها أو نظموها في أشعارهم ما يضارعها .

على أن إقبالاً قد اشتهر بشعره الوجداني (الغنائى) أكثر مما اشتهر بشعره الفلسفى ، ولشعره الوجدانى سحر وموسيقى يأخذان بمجامع القلوب ، ولذا فقد ذاع فى الناس ذيوها واسع النطاق ، فكلفوا به أكثر مما كلفوا بضروب أشعاره الأخرى والسبب فى ذلك معلوم لا يحتاج إلى بيان . والواقع أن إقبالاً وسع مجال الشعر الوجدانى الغنائى (بالنسبة للغنمين الفارسية والأوردية) بأن نظم قصائد استحث فيها الناس على السعى فى الحياة والعمل على إدراك السعادة والعيش الهنىء ، مثيراً فيهم الهمم والغرائم ومندداً بأولئك الذين يقعدون عن السعى ويزهدون فى الحياة . فعنده أن الإنسان ينبغى ألا يقعد عن السعى فى الحياة لأن الحياة الحقيقية ما هى إلا آمال متجددة واعتبارات متواصلة وأغراض متعاقبة ، وإن نفس هذا التجدد والتواصل والتعاقب لما يجعل النفس تقيض بمواطن وأحاسيس دائمة الاستمرار دائمة الجيشان .

وينبغى لكمال الشعر الوجدانى توافر عاملين : العاطفة الرقيقة المرفهة وإجادة اللغة بالقدر الذى يستطيع فيه الشاعر أن يعبر عن خواجج أحاسيسه الرقيقة

المرهفة. وكان إقبال مرهف الحس مرهف الأذن لاستماع الألحان العذبة والإيقاع المنسجم ، فكان لا يتكلف في اختيار القوافي والأوزان وإنما يسترسل فيهما استرسالاً .

ثم إن لشعره الوجداني ميزتين تميزانه عن الشعر الوجداني الذي نظمه غيره من شعراء الأوردية والفارسية ، أولاهما : تصوفه ، وثانيتهما : نظريته في الجمال والحب . فأما ما يختص بالميزة الأولى فإن المعلوم لدى جميع الذين يدرسون الشعر الفارسي أن التصوف هو قوام هذا الشعر (وكذا هو قوام شعر الأوردية إلى حد ما) وقد انقسمت الأفكار الصوفية في الأدبين الفارسي والأوردي وإلى حد ما في جميع الآداب الشرقية الأخرى إلى قسمين أو مدرستين وكان الفارق الأساسي بينهما نظرية الوحدة . فالصوفيون المؤمنون بالوحدة زهدوا في كل شيء وسعوا للاتحاد بالله ، إذ رأوا أن جميع الجهود والمساعى لا تصدر عن ضمير مستقل لأن كل ما يصنعه المخلوق من خير أو شر إنما مبعثه في الحقيقة إرادة الله سبحانه عز وجل ، ويرى الفريق الثاني - وهو الذي ينتمي إليه شاعرنا - أن للسكون والخلية وجوداً حقيقياً إلى جانب وجود الله . وكان لهذه النظرية أثرها في شعر إقبال إذ مكنته من تصوير عواطف سليمة تروق النفوس السليمة في جميع بلاد الله . فأكثرية أشعار التصوف والتزهد في اللغتين الأوردية والفارسية لا تتضمن الوعظ والإرشاد فحسب وإنما تكثر فيها الشكاوى المرة من الزمن وأهله ، أما شعر إقبال فلا يحتوي على شيء من ذلك وإنما ينطق عن عواطف وأحاسيس تبعث على التفاؤل والأمل والرجاء .

أما الميزة الثانية في شعر إقبال الوجداني فهي نظريته في الجمال والحب ،
فقد كان إقبال يرى الجمال في كل شيء ، غير أن الجمال الذي راقه أكثر من
كل شيء هو جمال القوة والكمال ، فالجمال هو ما يراه الذهن لا الصفة الموجودة
في الشيء الجميل ، وضروب الجمال المختلفة تروق أعين ضروب الناس ، ويرى
إقبال الجمال في كل شيء قوى كامل ، وقد تركت هذه النظرية الجديدة في شعره
الوجداني طابعا فريدا تجلت فيه القوة والحياة بأجلى مظاهرها .

محدث اقبال شاعر الاسلام

ولمعة من تاريخ اللغة الأردية

محاضرة ألقاها الأستاذ الأعظمى أحد المترجمين فى مركز جماعة الأخوة الإسلامية بالقاهرة يوم تأبين إقبال ونشرت فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ بمجلة الأزهر :

ليس فى الناس من يجهل أن الهنود كانوا أسبق الناس إلى الشعر ، والشعر لا يجهل إلا إذا امتزج بالتصوف والحكمة ، وكلها وليدة الهند أيضا . وأقوى دليل على ذلك قول العرب : « الحكمة هندية » . والتصوف فى اعتقادى وليد الفلسفة ، وبعبارة أوضح : التصوف هو فلسفة الأديان والعقائد . وإنى لا أريد أن أفيض فى هذا الموضوع الآن .

كان قبل الإسلام فى الهند شعراء وفلاسفة ينظمون الأشعار باللغات الهندية القديمة ، وقد بقيت آثارها إلى الآن ، ويحفظ هذه الأشعار كثير من الهنود ، ولكنها غير مدونة فى دواوين . وقد دخل الإسلام الهند فى القرن الأول الهجرى على يد محمد بن قاسم بأمر الوليد ابن عبد الملك الأموى ، فإنه زحف أولاً على بلاد السند ، وجهزه ابن عمه الحجاج بستة آلاف مقاتل ، فحاصر محمد ثغر الديبل ومكانه الآن كراتشى ، واستولى عليه ، ثم واصل الفتح حتى بلغ نهر السند وقتل داهر ملك السند وهزم أتباعه ، وآثرت زوجة داهر وأتباعها

إحراق أنفسهم على الوقوع في أيدي المسلمين . وزحف المسلمون من السند على بلوچستان وحاصروا ملتان في جنوب بلاد البنجاب . ومن ذلك الوقت تأثرت اللغة السندية باللغة العربية . وكتابتها إلى اليوم بالعربية . وهذا أول أثر للغة العربية في اللغات الهندية .

وبعد ذلك حكم المسلمون الهند ، واستمرت دولتهم حوالي خمسمائة سنة ، وآثارها تظهر إلى الآن عظمة هؤلاء الملوك ، وذلك أنه في سنة ١٥٠٥ م . فرَّ « بابر » أحد زعماء المغول من سلالة تيمورلنك من موطنه الأصلي إلى سمرقند فنزل بها وكثر أتباعه ، ، فدانت له بعد ذلك بلاد أفغانستان ، ثم جاوزها إلى حدود الهند ، فطالب بملك البنجاب متخذاً له ذريعة هي أحد أجداده (وهو تيمورلنك) الذي كان قد فتحها منذ مائة وسبع سنين . ومالبث أن والى انتصاراته في أراضي البنجاب حتى جاوزها إلى ماوراءها ، وكانت بلاد الهند وقتئذٍ منقسمة على نفسها ، على استعداد لأن ترحب بأي فاتح يكفل لها الهدوء والسلام ولو كان هذا الفاتح أجنبياً لا يمت إليها بصلة . وظل بابر ردحا من الزمن كان النصر فيه تارة إلى جانبه وأخرى إلى جانب أعدائه من الوطنيين حتى جاء عام ١٥٢٥ م وفيها وقف وجهها بوجه مع سلطان دلهي ، أشد ملوك الهند مراسا . وكان ذلك أمام قرية « بانبيت » التي تبعد عشرة أميال عن دلهي ، فانتصر بابر بالرغم من قلة جنده الذي لم يزد على ٢٥ ألفا ، بينما بلغ جيش سلطان دلهي مائة ألف مزودين بعدد عظيم من الفيلة لا يقل عن ألف . وبانتصار بابر على سلطان دلهي دانت له بلاد الهند الشمالية : وأطلق على نفسه لقب امبراطور الهندوستان .

وبموت بابر (١٥٣٠) وقف تيار الفتوحات المغولية في الهند زهاء ربع قرن ، ولم يستعد المغول نشاطهم في الفتح والغزو إلا بعد أن تولى حفيده الأعظم أكبر جلال الدين عرش الأمبراطورية . وكان أكبر خان أعظم ملوك المغول في الهند ، وتملك كل الهند ، وكان عهده عهد ثقافة ورخاء ، وبقيت امبراطوريتهم إلى أن دخل الإنكليز في الهند . وتأثرت اللغة الأردية في عصر أكبر خصوصا وفي عصر ملوك المغول الآخرين عموما ، باللغة الفارسية والتركية ، وتلوّنت بلون جديد ، وانتشرت انتشارا عظيما .

اللغة الأردية:

اللغة الأردية فرع راق من اللغة الهندية الآرية ، وقد تكلم بها أهل الهند في القرن الرابع الهجري في وسط الهند كلغة مستقلة ، وبقيت على هذه الحالة حتى اختارها المسلمون في القرن السادس لغة واحدة لهم . ولما انتشرت في « دهلي » وجوارها ، دخلت فيها ألفاظ جديدة ، وتغيرت نوعا ما . وفي القرن نفسه صارت بعد إصلاحها لغة الثقافة . وفي القرن الثامن اختارها الملك أمير خسرو لغة للحكومة . ومن هذا القرن بدءوا استعمالها في النظم والنثر . فمن القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الهجري دونت فيها علوم كثيرة وآداب جمّة . وأما الشعراء فنظموا بها أشعارهم من القرن السابع . وفي القرن التاسع استعمالها الشعراء الفحول مثل كبير نانك ، وداوسورداس ، ونفداس ، وكوسواني ، وتلسي داس ، وكانت تسمى إذ ذاك الهندوستانية ، وبعد ذلك دخلت فيها الألفاظ العربية والفارسية والتركية في كثرة هائلة حتى ظهرت بلباس جديد

واسم جديد في سنة (١٦١٨) م حين شرع الملك شاه جهان الخامس من أسرة المغول تعمير « لال قلعة » (القلعة الحمراء) التي تم بناؤها بعد عشرين سنة . ويقال : إن جيشه وخدامه كانوا فوق العدّ والحدّ ، وهم من جميع الأقوام والبلاد وسكنوا في معسكر عظيم كان يسمى (أردو) ، ومعناه بالتركية الجيش . وكان في جوار هذا الجيش سوق يسمى « أردوبازار » (سوق العسكر) ، فكل هؤلاء من الهنود والفرس والأترّك والعرب تنافسوا في إدخال لغاتهم في هذه اللغة ، فامتزجت فيها ألفاظ منتخبة من العربية والفارسية والهندية الآرية والتركية ، وصارت زبدة اللغات الشرقية ، فيها لطافة الفارسية ، وبلاغة العربية ، وعمق الهندية ، وحماسة التركية ، حتى صارت لغة جديدة ، وسميت « أردو » ، لأنها تجددت في السوق المذكور ، وبقي هذا الاسم إلى قرننا العشرين . ولكن منذ سنة فقط بعد استقلال الهنود استقلالهم الداخلي وتشكيل الوزارات الهندية سميت مرة ثانية « اللغة الهندوستانية » لأنها قرّرت لغة للحكومة . والألفاظ العربية فيها تقارب نصفها ، والفارسية تقارب ربعها ، والباقي من الهندية الآرية والتركية ، ودخل فيها شيء من الإنكليزية منذ دخول الإنكليز في الهند . ولهذه اللغة كتب مدونة في النحو والصرف والقواعد والبلاغة . ومن أكبر محاسنها أننا نستطيع أن ندخل فيها ألفاظا من أية لغة على هيئتها . وهي الآن أكثر انتشارا من اللغة العربية والفارسية والتركية ، لأن عدد الذين يتكلمون بها يبلغ ثلثائة مليون في الهند ، ويفهمها أكثر من أربعمائة مليون . وهي تدرس تقريبا في كل العالم ، وعدد حروف هجائها واحد وخمسون حرفا .

المقاربه بين الأشعار الأردنية والعربية :

افتخر الفرس على سائر العالم بستين ألف بيت نظمها الفردوسي في شهامته، ولكنهم تجاهلوا أنه ألفت في الهند دواوين بهذا الحجم في الأفكار فقط . ونظم مهرة الفن مثل أنيس وديبر وتعشق وغيرهم مئات من الرائي ، وفي كل مرثية خمسمائة وستمائة مسدس ، وكل مسدس ثلاثة أبيات . وألفت كتب متعددة في نقد أشعارهم من الشرقيين والمستشرقين . ونحن لا نجد لهم نظيرا في غيرهم . وعلماء الفنون الحربية متجирون كيف قدر هؤلاء على نظم نكات غامضة من فنون الحرب بعبارة بديعة طريفة مع أنهم لم يخرجوا من منازلهم .

ومن أهم موضوعات اللغة الأردنية ، الأوصاف الجميلة ، والفلسفة والتصوف ، والتخيل والمرائي ، والغزل والقصة ، والمدح ، وغيرها . وبعض شعرائها الماهرين جمعوا دواوين على أسنة النساء وفي أفكارهن ، ولا يمكن أن يعرف القارى أنها للرجال . ومن يذكر من هؤلاء الشعراء من المتأخرين « سودا ، غالب ، ذوق ، مير ، أنيس ، دبير ، آتش ، مؤمن ، ظفر ، تعشق ، داغ ، نفيس ، أكبر ، حالى ، إقبال » وغيرهم . ومن المعاصرين « آرزو ، حسرت ، سياب ، جليل (أستاذ نظام حيدر آباد) أبجد ، ظفر على ، سالك ، صفى ، جوش ، أثر ، عزيز ، وحشت ، محشر ، جفر ، » وغيرهم .

وأهم سبب لا انتشار الشعر في الهند هو المشاعرة : أى المطارحة بالشعر ، وهى أكبر دعاية لنشر هذه اللغة أيضا . فنذ بدئها إلى يومنا هذا يحتفل الشعراء

بالمشاعرة ويشكلون لأجلها الأحزاب ، ويسمونها « بزم » حتى لا تجدد قرية
إلاؤها هذه الجماعات ، ينافس بعضها بعضا في الشهرة والتقدم ، وتقدم الجوائز
القيمة للسبق في مبارياتها ، فتجد الإعلانات المتنوعة في أكثر الجرائد الهندية
لهذه المشاعرات الطريفة كإعلانات الرياضة والألعاب في الجرائد المصرية. والهنود
يشتركون فيها أكثر مما يشترك إخواننا المصريون في الألعاب والرياضة البدنية.
وطريق مبارياتها أن شاعرا منهم مشهورا يقدم شطرا لبیت مع شروط ، وينشره
في الإعلانات والجرائد ، ويرسله أيضا إلى الشعراء المعروفين بتحديد ميقات
الاحتفال ، فكل من يريد الاشتراك في هذه المباراة من كل نواحي الهند ينظم
أشعارا حسب ذوقه وطبعه مراعىا الشروط ، ويحضر يوم المشاعرة ، ويسمع
الناس نظمه بصوته الجذاب ، ولهجته الخلابة ، والذي لا يستطيع الحضور لأمر ما
يرسل نظمه إلى سكرتير الجماعة ليسمعه أحد الحاضرين باسم الشاعر ، حتى مثل
إقبال وغالب وذوق وأنيس : أولئك الشعراء العظام ، كانوا يشتركون في هذه
الحفلات ويسمعون الحاضرين أشعارهم ، وكنت أشارك بنفسى فيها ، وما كنت
أقوم منها طول الليل إلا قرب طلوع الشمس ، وكنت أعدها أحب الليالى إلى
وهذه الجماعات أنواع ، فبعضها للأطفال ، وبعضها للشبان ، وبعضها للشيوخ ،
وبعضها للنساء . وإذا نظرت إلى كثرة الشعر والشعراء في الهند اعتقدت أن
أرض الهند كلها شعر ، فالأطفال من سن الثامنة ينظمون القصائد ، ولذا انتشر
في الهند مجلات وجرائد خاصة لنشر نتائج المطارحة ، وتجد أكبر عدد للشعراء
في العالم في الهند ، وتؤلف فيها كل يوم دواوين متعددة في المواضيع الطريفة

المتنوعة . ومعظم سلاطين الهند وحكامها وزعمائها شعراء ، ولهم دواوين ، ورؤسهم في هذا الفن نظام حيدر آباد ملك الدكن والبرار ، ويسمى سلطان العلوم ، وله دواوين الشعر كما لأبنائه دواوين . وهذا الفن خاص بالهنود .

وسبب آخر لا تنتشر الشعر في الهند : هو أنه لا توجد في اللغة الأردية لغة عامية كسائر اللغات ، بل لغة التخاطب والكتابة في الهند واحدة ، والهنود يتكلمون بها حسب قواعد ، وتختلف باختلاف الشعوب عمقا وسذاجة . فظهر من هذا أن للشعر مكانة خاصة في أرض الهند .

ومكانة السير إقبال بين هؤلاء الشعراء العظام ، مكانة الشمس بين النجوم المتلألئة ، أو كمكان الملك بين أمراء بلاده . فإذا قرأت شعره تأثرت به تأثرا عظيما كأنك ألهمت شيئا كنت تجهله وهو كان بين يدي خيالك ، فإن الشاعر لا يأتي بشيء مستحيل بل يأتي بشيء ممكن ولكن يعسر على غيره الإتيان به ، وإذا لم يكن الشعر هكذا فليس بشعر ، بل هو نظم قد رتب الناظم ألفاظا ظريفة على طريق بديع وسمها شعرا . وإني شخصيا لا أطرب لأشعار الشعراء المعروفين طربي من أشعار السير إقبال ، فكما تلوتها شعرت كأنني أقرأ شيئا جديدا ، لأنني أجد فيها روحا وقوة لا أجدها في أشعار غيره ، وكلكم تعرفون أن روح الشعر تزول بعد الترجمة من لغة إلى لغة إلا إذا كان الشاعر رسول فلسفة أو حكمة أو شيء جديد غير معروف قبله ، فإنكم حينئذ لتشعرون شيئا جديدا من الروح الجديدة في أشعار هذا الشاعر بعد زوال أكثرها .

وإني أحاول الآن أن أعرض على حضراتكم صورة إجمالية لألمعية إقبال

التي اتخذ شعره منبرا لها وترجمانا عنها في هذه القصيدة، عنوانها «طلوع إسلام»
ثم أقدم إليكم بعد ذلك أبياتا مختلفة أقدم بها كأنموذج من شعره ، وسأترجمها
إليكم الآن نثرا . وهاهي قصيدة « طلوع إسلام » :

«العين التي تعودت أن تنظر إلى عظيم من الأشياء لا تهتم بصغيرها، والعين
المتطلعة إلى الفرسان والغزاة لا تهتم بالنظر إلى ما يكون في الركاب من زينة .
» أنزأها المسلم في ضمير « زهرة لاله »^(١) سراج الرجا والأمل ، واجمل
كل ذرة في بستان العالم شهيدة البحث والاكتشاف .

أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها . فهيما اخلق يقين المهمة ولا تعش
أسير الأوهام .

« إن الدنيا تفنى ولكنك أعظم خلودا من الدنيا ، لك مجد الأزل ، ولك
نعم الأبد أيضا ، وأنت الرسالة الأخيرة لله لذلك أنت موصول الدوام .
» اقرأ مرة أخرى في سيرتك الأولى ، دروس الصدق والعدل والشجاعة ،
لأنك أنت المنشود لتسود العالم مرة ثانية .

« فهذه هي مقاصد الفطرة الأولى ورمز الإسلام الحقيقي أن تملك العالم
بالأخوة وتحكمه بالمحبة .

« يجب أن تفنى في دينك وملتك بعد أن تكسر أصنام اللون والدم حتى لا
يبقى في العالم توراني ولا إيراني ولا أفغاني .

« ما الذي محا استبداد قيصر وشدة كسرى ؟ أكانت هنالك قوة في
العالم كانت تحاب الجبايرة سوى قوة علي ، وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان ؟

« عند ما ينبعث في هذه الشرارة الترابية روح اليقين ، فإنها تطير إلى سماء المجد بمجنّاح جبريل الأمين .

« لا تفيد السيوف ولا التدابير إذا سيطرت العبودية والاستكانة ، ولكن إذا وجد اليقين فهناك تتحطم السلاسل والأغلال .

« هل يستطيع أحد أن يقيس مبلغ قوة سباعد المسلم ؟ إن نظرة المؤمنين تبدل الأقدار .

« إن الولاية والحكومة واكتشاف علوم الكائنات ليست إلا تفسيراً لنسكته من نكات الإيمان .

« وليكن من العسير أن يخلق في النفوس إيمان إبراهيم ، فإن عوامل الحرص والخوف مستترة في الصدور لتخلق الصور والتماثيل .

« إن امتياز السيد والعبد هلاك الإنسانية ، فاحذروا أيها الجبابرة الأقوياء لأن فطرة العالم تتبدل وتتغير ولا تبقى الحياة على الحال .

« إن حقائق الأشياء واحدة متساوية ، فالذي خلق من تراب كالذي خلق من نور ، ولو شققنا قلب الذرة لتقطر منها دم الشمس .

« إن سيوف الأبطال في جهاد الحياة هي اليقين المحكم والعمل المستمر . إن الذين ارتفعوا من أسلافكم كالنسور والعقبان ، لم يكن لهم ريش ولا جناح ، والذين طلّعوا نجوماً في السماء قد غرقوا أولاً في دم الشفق ، والذين كانوا يسبحون في هدوء البحر دفنوا في قاعه السحيق . وأما الذين كانوا يصارعون لطامات الأمواج فقد خرجوا إلى الدنيا بعد أن صاروا يواقيت .

« الذين كانوا يفتخرون بكييمياء الذهب صاروا غبارا في ممر الطريق .
والذين كانوا يضعون جباههم على التراب هم الذين صاروا يصنعون الكييمياء .
« إن المؤمن يعيش حيا كالشمس يغرب في جهة ليشرق في جهة أخرى ،
فهو دائم الإشراف والحياة ، لا يغيب .

« أنت أيها المؤمن سرّ « كن فيكون » فظهر على العيون وكن عارفا
لأسرار حقيقتك وترجمانا لقدرة ربك .

« واستغرق في ذاتك فهذا هو سر الحياة ، وصر خالداً بعد أن تخرج من
حلقة الصباح والمساء .

« إلى اليوم لا يزال الإنسان شرّ فريسة لصيد الحكام ، وإنها لقيامة
كبرى أن يبقى الإنسان فريسة الإنسان .

« ولم يخلق هذا الهيكل الترابي في أول فطرته من تراب الجحيم ولا من تبر
الرضوان ، ولكن الحياة تخلق بالعمل ، كذلك الجحيم وكذلك الجنة » .
الفقر والعلم في تصوف إقبال :

« معجزات الفقر هي التاج والعرش والجنود ، والفقر هو أمير الأمراء ،
والفقر هو ملك الملوك .

« ومقصود العلم نزاهة العقل والفهم ، ومقصود الفقر عفة القلب والنظر .
« العلم فقيه وحكيم ، والفقر مسيح وكليم ، والعلم طالب الطريق ، والفقر
عارف الطريق ، والفقر مقام النظر ، والعلم مقام الخبر . السكر بالفقر ثواب ،
ولكن السكر في العلم ذنب وعذاب . لو كان قلبك في هذا التراب حيا ومستيقظا
لكسر نظرك زجاج الشمس والقمر » .

قصيدة

لصاحب السعادة السيد عبد الحميد الخطيب
سفير المملكة العربية السعودية في باكستان
بعد مطالعة كتاب الحياة والموت في فلسفة إقبال

أنعم بفلسفة إقبال مصدرها
عن الحياة وعن موت به أنهلت
وجاء إقبال يدعوها لمعرفة
وتبعث الأمل المعسول في أمم
بما يردد من شعر يذكر بال
ويجذب الناس للتوحيد في صور
وأعجب الكل منها عندما سمعوا
وساهم (الأعظمي) في نشر فكرته
وصاغ (شعلان) هذا منه في درر
فجاء سفرا جليل القدر من (حسن)
فليس بدعا إذا حيّ فصاحته
ثم الصلاة على من كان قدوتنا
وشرعه النور يحو كل وسوسة
تبدى الحقيقة في أجلى معانيها
كل القلوب وحدث من أمانها
تزيل عنها الأسى حقا وتهديها
كانت تظن بأن الموت يرديها
أخرى ويثبت أن الخير ما فيها
شقى تأذى بها من ليس يديرها
من الإجابة ما يبدي خوافها
بحسن ترجمة أبدت مرانها
من القريض اللآلى لا تدانيها
به استطال على أقرانه تها
عبد الحميد خطيبا بات يطريها
في كل هذا وراعى الناس هاديها
مما يزينه الشيطان تمويها
عبد الحميد الخطيب

قصيدة

لمعالى محمد باشا الشريق

بعد مطالعة كتاب الحياة والموت في فلسفة إقبال

أَعْظَمُ بِسْفَرِ نَفْسٍ	لِلأَعْظَمَىَّ
يَبْدُو كَأَنفَقٍ جَمِيلٍ	لِلوَحَى وَالْإِلْهَامِ
« إِقْبَالَ » فِيهِ تَجَلَى	بَدْرُ الْعَمَلِ وَالنِّمَامِ
بَلْ بَنَدَ حَقٍّ وَنَصَرَ	فِي مَوْكِبِ الْأَعْلَامِ
مَسْمَاهُ بَعَثَ جَدِيدَ	لِعِزَّةِ الْإِسْلَامِ
يَا أَعْظَمَىَّ تَقَبَّلْ	شُكْرِي وَطَيْبَ سَلَامِي
« إِقْبَالَ » إِنْ صَارَ جَسْمًا	إِلَى ظَلَامِ الرِّغَامِ
فَشَمْسُهُ مَا تَوَارَتْ	بَلْ لَمْ تَزَلْ فِي ضِرَامِ
مَشَاعِرِ الشَّعْرِ مِنْهَا	تَنْيرُ سُبُلَ الْأَنَامِ

محمد الشريق

أَحْسَنُ الشِّيرِ

للعلامة الكبير والمؤرخ الشهير شبلى نعماني

إن هذه الدنيا قد مرت عليها غيرُ وأدوار ؛ وامتلاً سِجِلُهَا بِمُجَوِّدَاتِ
وَانْقِلَابَاتِ بَهْرَتِ الْأَنْظَارِ ، وَغَيَّرَتْ وَجْهَ الْمَسْكُونَةِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى الْأَنْوَارِ ؛
وَلَكِنْ لَمْ تَسْكُنِ الدُّنْيَا أَنْجَبَتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانَ التَّارِيخُ يُنْتَظَرُهُ مِنْذُمَلَايِينَ
السَّنِينَ . وَلَمْ يَكُنْ قَدْ طَلَعَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانَ الْكَوْنُ مِنْذُ الْأَزَلِ يُتَطَلَعُ إِلَيْهِ
بِالْأَشْوَاقِ . وَكَرَّةُ الْأَرْضِ بِلِيلِهَا وَنَهَارِهَا مُتْلَهْفَةٌ عَلَى ذَلِكَ الْإِشْرَاقِ . إِنَّ جَمِيعَ
الْمُقَدَّرَاتِ وَالْعُنَاصِرِ . الشَّمْسِ الَّتِي تَنْشُرُ الذَّهَبَ الْوَهَّاجَ مِنَ الْأَضْوَاءِ ، وَالْقَمَرُ
الَّذِي يَسْكُبُ الْأَشْعَةَ الْفُضِيَّةَ بَاهِرَةَ اللَّأْلَاءِ . وَالرِّيحُ الَّتِي تَهْبُّ بِالْأَنْوَارِ ، وَالْأَمْطَارُ
الَّتِي تَرْسُلُهَا السَّحَابُ الْمَتْرَاكَةُ وَالْدِيمُ الْوُطْفَاءُ . وَالنَّفْثَاتُ الْعُلُويَّةُ الَّتِي كَانَتْ
تَنْبَعُثُ جَلُوتُهَا مِنَ السَّمَاءِ ، التَّوْحِيدُ الَّذِي ارْتَفَعَ بِهِ نَدَاءُ إِبْرَاهِيمَ وَجِبَالُ يُوسُفَ
الَّذِي قِيلَ فِيهِ (إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) وَالْمُعْجَزَاتُ الَّتِي أُسْفِرَتْ عَنْهَا رِسَالَةُ
مُوسَى الْكَلِيمِ ؛ كُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ كَانَتْ فِي مَوْكِبِ الْقَدَرِ لَا نَتَظَارُ مَنَارَ الْكَوْنَيْنِ
وَأِمَامِ أُمَّةِ الثَّقَلَيْنِ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إِنَّ ظَهْرَ ذَلِكَ النُّورِ الْقُدْسِيِّ كَانَ صَبَاحًا لِلصَّبَاحِ وَنَفْخَةً جَدِيدَةً فِي كِيَانِ
الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ يُتَجَدَّدُ بِهَا مَوْلِدُ الْأَرْوَاحِ . قَالَ الْمُؤَرِّخُونَ إِنَّهُ عِنْدَمَا آذَنْتِ الْأَقْدَارُ

بمولد الرسول المختار هوي إلى الثرى أربعة عشر من الأعمدة في إيوان كسرى وأطفئت نيران المجوس وأصبح مكانها الغبار المتلاشى في بيت النار وغازت بحيرة ساوى والحقيقة أعظم من ذلك أثرا وأجل خطرا، فقد تهدم الإيوان ليتهدم في إثره الظلم والطغيان وينمحى عسف الأكسرة وسطوة بيزنطة وعظمة الصين ولم يكن الذى انطفأ ذلك اللهيب المحتدم في بيت نار المجوس. ولكن نيران الشرك والإلحاد يطفئها الله من العالم ليشرق مكانها نور التوحيد سيد ولد آدم وغازت بحيرة ساوى لتكون نذيرا بأن قد دقت ساعة النهاية للشرك حيث تفيض أمواج الكفر في جميع البلاد فلا تبقى سيطرة الوثنية ولا تحكم الزردشتية ولا صولة الاعتقادات الخرافية .

في هذا المولد ولد التوحيد وانفتح أمام الدنيا باب السعادة من جديد وطلعت شمس الهداية لتكشف أمام العالم نهج الحياة الرشيد وامتد ظل الجنة في صورة أخلاق وفضائل وانعكست أنوار السماء في آداب وشمائل عند مآظر الدر اليتيم من بيت عبد الله والكوكب المولد في زاوية آمنة والكنز المستتر من شعاب مكة، القمر الأوحى في البوادي والحواسر والجواهر الفرد في اليواقيت والجواهر محمد المصطفى سيد الثقلين في الأوائل والأواخر .

والآن نحاول في إيجاز أن نتناول بعض صفات نبينا العظيم تلك الصفات التي رفعتة فوق كل مستوى وسمت به فوق كل مقام، إن نبينا الأعظم قد غرس دوحة الإصلاح البشرى وتعهد هذه الدوحة المباركة الفرعاء ونشر دين الله باهر الضياء وفي حياته عم ذلك النور في الأحياء وأصبحت قلوب البشرية مرآة لنور محمد سيد الأنبياء .

إن التوفيق العظيم الذى حققه محمد فى حياته والنصر المبين الذى أحرزه فى وجوده والثمار القدسية التى شاهدها من غرسه كل أولئك من الزايات التى لم تكن تتاح لأحد من المصلحين وهى دلائل فضله على جميع الأنبياء والمرسلين. إن الفلاسفة المصلحين من بوذا وزردشت وأفلاطون وحتى أصحاب المبادئ العليا والشرائع القدسية كانوا يريدون فى حياتهم أن يحنوا ثمار إصلاحاتهم وأن يجدوا أنوار مبادئهم ساطعة فى أممهم وشعوبهم ولكن الأقدار نقلتهم من هذه الدار وبقيت إصلاحاتهم إما فى يد أتباع يحرفون الكلام عن مواضعه أو تحت رحمة حكومات جائرة.

كان ظهور شريعة موسى على يد يوشع وانتشار مذهب بوذا على يد أسوقا وذيوع الزردشتية بتشجيع دارا وقيام المسيحية بمناصرة قسطنطين أما نبينا الأعظم فقد بنى القواعد المحكمة ورفع الأركان القدسية وأقام الدين الذى لا يحتاج إلى عطف حاكم أو يخشى من سطوة جبار لأن منزله جبار السموات والأرض ومالك الملك والملكوت... القرآن والدين تعهد تحفظهما منزلها «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

حيثما كان المتحدث عن نبينا العظيم صديقا أو خصما فلا محيص له من الاعتراف الذى سجلته دائرة المعارف البريطانية بقلم البروفيسير نولديكى مع كونه مغرضاً متحيزاً قال «إن أعظم شخصية دينية أدركت من الفوز والتوفيق ما لم يبلغه سواها ليست سوى شخصية النبي محمد». لم يصادف مجدد ولا مصلح فى حياته ذلك المحيط الذى بدأ محمد فيه رسالته. وبدأ يرفع منه المصاييح لإزالة الدنيا المظلمة. فى أى أفق

أشرق هذا النور ؟ أكانت ثمة حكومات منظمة أو مدنية ذائعة أو صناعات معروفة أو كتب متداولة أو مدارس تنتظر طلابها أو كان هناك تساند قومي أو تعاون ملّي أو نظام قانوني ، لم يكن هنالك سوى ما تلميه الفطرة من الشعر وما توحى به مناطق الصحراء وتقلبات الطبيعة فيها من أخيلة تتردد في القصائد والأراجيز .

وقد دخلت اليهودية إلى أرض العرب فلم تصنع شيئاً سوى ما يعلم الناس ودخلت المسيحية أيضاً إلى الجزيرة ولم يكتب لها ولا لغيرها أن تجمع شمل العشائر التي كان يضرب بعضها رقاب بعض في سبيل التفاخر والتكاثّر وحب السيطرة والانتصار حتى إذا جاء محمد برسالاته السماوية أصلح في ربع قرن من الزمان ما عجزت عنه القرون والأزمان . وفي تلك الحياة المائجة المضطربة تحولت الوثنية المظلمة إلى توحيد مشرق منير وبعد التفاحر والإغارات تجمعت القلوب تحت راية واحدة من تلك البيئات التي كانت لا تنام بها العين لحظة واحدة إلا في لهيب مستمر مستمر تحترق فيه القبائل ، حيث لا يوجد ثمة قانون ولا مسؤولية محدودة . من تلك الآفاق خرج الأئمة الهداة الذين تنبض قلوبهم بإيمان أصيل وتغلي دماؤهم بكل غرض نبيل ، أفي الأمس القريب جاهلية جهلاء وترد اجتماعي في الخصومة والجفاء ، وفي اليوم التالي تظهر معجزة محمدية فإذا بالجهالة عرفان وإذا بالخوف أمن وإيمان وإذا بهم يظهرون على الدنيا أنواراً ساطعة ويحملون مشاعل الحق إلى الجهات الأربع . من غير نبي الله حوّل تلك النفوس المستعصية والقلوب النافرة والأيدي الباطشة المغيرة ، فجعلها بين يوم وليلة تدين بالخشوع لقهار السموات والأرض وتلقى الجباه على الثرى مكبرة خاشعة لله حتى تحولت

أيامهم ولياليهم إلى مواسم طاعات كأن أجسامهم في الأرض وأرواحهم في السماء .
لم يكن رقي المسلمين قاصراً على ما يصلح الروح والأخلاق فقد امتد أيضاً
إلى الرفعة الدنيوية في جميع الآفاق .. في السياسة والعلم وإدارة الأمور في الميادين
وفي مواكب الفتوح تؤيدهم فيها الملائكة والروح لأن الرسالة المحمدية مجهر
يكشف عن جميع القوى الكامنة في الإنسان ويرقي به حتى يسخر جميع
الأكوان .

إن قافلة الإسلام لم تقف رحلها عند جزيرة العرب بل تخطت الحواجز
والحدود لأن الإسلام لم ينزله الله لقوم ولا جنس ولا لجيل بل لجميع الأجيال
والمصور . والإسلام دين جميع الأمم وقلب محمد صلى الله عليه وسلم محتضن
جميع العالم لأنه رحمة للعالمين .

كانت رسالة كل رسول في دائرة قومه كما أرسل عيسى عليه السلام
في بني إسرائيل . أما محمد فقد جاء ليمحو الفوارق الجنسية والحدود الإقليمية
والتعصبات الجغرافية ويركز بنيان شريعة كاملة تنتظم أجيال البشرية وتوحيدها
في توحيد رب البرية . وإذا كان المرسلون صلوات الله عليهم شكلوا جماعات
قوامها أفراد في الأمم التي بعثوا فيها فإن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء لتشكيل
الأمم كلها في قالب التوحيد لله والإخاء في عدالة شريعته وهكذا جمع محمد فضائل
الأنبياء والمرسلين ففيه صبر نوح وقوته ووفاء الخليل ومودته ومعجزات الكليم
وشدته وثبات يوسف وحكمته وهمة سليمان وشجاعته وبساطة يحيى ووداعته
وحلم عيسى ورحمته .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

عائشة أم المؤمنين

بقلم العالم الهندي المحقق السيد سليمان الندوى

مقدمة :

لا يكاد الكثيرون يعلمون أن في الباكستان والهند اليوم نهضة إسلامية، يقوم برساتها جهابذة من العلماء والكتّاب ، وتستولى علينا الدهشة لو عرفنا أن جملة كتب الأحاديث النبوية لا توجد كاملة الطبع وافرة الشروح في أى بلد إسلامى كما هي اليوم في الباكستان والهند ، فهناك دار الحديث وبها نسخة الجامع الترمذى بخط المصنف ، ومن بين هؤلاء العلماء العلامة « السيد سليمان الندوى » من أكابر المصلحين ننشر له هذا الحديث عن أم المؤمنين عائشة ، وله مقال تاريخى هام يتعلق بموضوع الشجاعة والبطولة في الفضليات من نساء الإسلام في العرب والترك والهند ومقال عن حكمة التكرار في آيات القرآن الكريم .

وإلى القارىء هذا الحديث الذى لا ننشره للتعريف بعائشة ، بل ليعلم من في مصر والشرق ، مبلغ اهتمام إخوانهم المسلمين بتراتهم وتاريخهم .

عائشة أم المؤمنين

قد بلغت رضى الله عنها أسمى درجة ارتقت إليها المرأة في مقام الصحبة النبوية ، وقد أردنا أن نفرّد لمقامها في العلم والاجتهاد سفراً مستقلاً ، ولكننا اليوم نجتزئ بهذا الحديث ، على سبيل المثال .

هي عائشة اسمها وأم عبد الله كنية ، والصديقة لقبا ، وأم المؤمنين خطابا ، والدها هو عبد الله أبو بكر الصديق ، ووالدتها أم رومان ، أما سلسلة نسبها من جهة أبيها فهي عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمر ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك . أما نسبها من قبل أمها فهي عائشة بنت أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عناب بن أذينة بن سميع بن دهمان بن حارث بن غنم بن مالك بن كنانة . وبالنظر إلى النسبين نعلم أنها قرشية تيمية من نسب أبيها ، وكفانية من نسب أمها .

تتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم في الجد السابع والثامن من جهة ، وبالجد الحادى عشر والثانى عشر من جهة أخرى . توفي والدها رضى الله عنها في العام الثالث عشر بعد الهجرة ، كما توفيت أمها في السنة السادسة ، ويرى بعض المؤرخين أن وفاتها كانت في السنة الرابعة أو الخامسة ، وليس بصحيح ، فإن صحاح الأحاديث تثبت لنا أن أم رومان كانت مازال على قيد الحياة في حادثة الإفك التي وقعت في السنة السادسة ، وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تشييعها إلى قبرها ، ودعا لها بالمغفرة ، وبشرها بالجنة . « راجع أسد الغابة ج ٥ ص ٥٨٣ » .

ولادتها وطفولتها

تزوجت أم رومان أول أمرها من عبد الله الأزدي ، ثم تزوجت بعد وفاته من أبي بكر ، فأنجب منها عبد الرحمن وعائشة .

وأكثر كتب التاريخ والسير تقف من مولدها موقف الصمت عن التحديد الصحيح . وذكر ابن سعد أنها ولدت في أوائل السنة الرابعة من البعثة وعقد لها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في العاشرة ، حين كان عمرها ست سنين « انظر طبقات النساء لابن سعد ج ١ » .

لكن هذا ليس بوجيه ، فلو سلمنا بهذا لم يكن زواجها من رسول الله إلا وهي بنت سبع سنين ، وعليه يكون عمرها عند انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى عشرين ، مع أن الذي عليه معظم جهابذة المؤرخين أن عمرها إذ ذاك لا يتجاوز الثامنة عشرة ، كما أجمعوا على أنها رضى الله عنها لقيت ربها سنة ٥٨ هجرية حين بلغت الثالثة والستين من عمرها ، وبهذا التحقيق يتبين أنها ولدت في أواخر السنة الخامسة من البعثة .

وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البعثة إلى الوفاة ثلاثاً وعشرين عاماً ، منها ١٣ في مكة وعشرة بالمدينة ، وقد مر أربع سنوات وبعض الخامسة قبل أن تولد عائشة ، وكان أبواها قد أسلما ، وإذا فقد ولدت عائشة بعد أن ذهبت ظلمات الشرك من بيتها وأشرق عليه الإسلام بنوره الوهاج ، كما تحدثنا هي بذلك رضى الله عنها ، فيما يعلم من رواية البخارى .

وقد جرت سنن الله في المختارين من الخلق أن ينشأوا في هذه الدنيا على أسلوب سام مجيد ، ويسيرون في الناس على نهج من الصلاحية والنمو يعلو بهم إلى مستوى رفيع من العبقرية التي تسترق من حولهم الأبواب ، وتسكبهم عند ذويهم التجلة والإعجاب ، فهم حتى في عهد صباهم تم غايلهم عن شمائل عالية ومواهب تفوق النجم ارتفاعا ، والشمس إشعاعا ، ومن هؤلاء بلا شك عائشة أم المؤمنين ، فقد لاحت عليها منذ صغرها دلائل النجابة ، وغايل السعادة ، وأمارات السمو على أقرانها ، والامتياز على أترابها ، ذكاء وفطنة وحسن سيرة ، كانت راقية حتى في سرعة النمو وعظم القامة والقيمة !

إن الخالق الأزل قد اصطفاها ورشحها لأعلى منصب : في المجد ، وذلك للمنصب أن تكون أم المؤمنين ، فهو الذي صاغها في القالب الممتاز من الصفات العالية التي تؤهلها لمعاشرة أعظم نبي ، وبالأومة خير أمة أخرجت للناس .

وإذا سمعنا بأن الصبايا والطفلات كن يجتمعن في بيت عائشة كثيرا فلا ن أم المؤمنين تزوجت حديثة السن ، ولأنها طبعت على السجايا الكريمة ، وعلى الوداعة التي تنشدها الطفولة لتأنس بها في كل مكان ، وإذا كانت هي أيضا تلاعب الصغار ، وتحبو الأطفال ، بما جبلت عليه من ظرف ومؤانسة ، فقد كانت أصدق الجميع إلى رعاية مقام الرسول الأعظم ، والقيام بما ينبغى لشأنه الأعلى من حرمة وإجلال .

كثيرا ما قدم صلى الله عليه وسلم وهي تلاعب هذه الأزهار البشرية ، فتنهض للقائه بينما يتفرق الأطفال ، ولما كان صلوات الله عليه هو الرؤوف الرحيم

المصلح لجميع الأمم ، فقد كان يسكب حفانه البار على أولئك الصغار ، ويدعوها
للداعبتهم .

وكان يحب إليها من مشاهدة الألعاب بعض الأنواع المعروفة ، بينما كانت
تلعب ذات مرة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألها عن شيء مما كانت تلعب
به ، فقالت له : هذا حصان ، وكانت قد صنعت له أجنحة ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : إن الحصان ليست له أجنحة ، فقالت : كانت الأجنحة
لخيل سليمان : « هذه الواقعة التي تروى بمعناها ربما كانت قبل تحريم التصوير »
فابتسم النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الجواب السديد ، ولما فيه من سرعة
البديهة وحدة الذكاء . « راجع مشكاة المصابيح » .

ونحن نرى الأطفال في كل عصر وجيل ، لا يستطيعون أن يغوصوا إلى
الأغوار العميقة في الخيال والتفكير إلا في سن معين ، ولكن عائشة كانت
طفولتها تدل على أنها فوق الفطرة الإنسانية ، ومستوى الطبيعة البشرية ، فهي
في مدرج طفولتها ، ومنذ نعومة أظفارها ، تذكر الوقائع ، وتحفظ الآيات ،
وتستدل بها على جزئيات الأشياء ، تحدثنا أن آية : (بل الساعة موعدهم
والساعة أدهى وأمر) نزلت واللعبة في حجرها . « انظر البخاري ج ٢ » .

زواجها رضى الله عنها

الزوج الأولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي خديجة بنت خويلد ،
وكانت سنه حين تزوجها خمساً وعشرين ، وكانت سنها أربعين ، وبقيت معه خمسة

وعشرين عاما وفي رمضان من السنة العاشرة من البعثة وقبل ثلاث سنوات من الهجرة لحقت برَبِّها ، وسفنه عليه السلام إذ ذاك خمسون عاما ، وقد توفيت في الخامسة والستين من عمرها ، وخدمات خديجة في رفعة الإسلام ، ومؤازرتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الأزمات الصعاب ، جعلت وفاتها أمراً صعباً ، والحياة أمامها مريرة. « تأمل طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٤١ » وطالما فكر الصحابة معه طويلاً في هذه المحنة .

وقد جاءت خولة زوج عثمان بن مظعون أحد مشاهير الصحابة المتوفى سنة ٢ هجرية ، قالت له : لم لا تزوج ؟ فقال عليه السلام : ومن ؟ قالت له : من الثيبات أو الأبكار ، فقال ومن تعنين ؟ قالت : أما الثيب فسودة بنت زمعة ، وأما البكر فبنت أبي بكر ، فاستحسن رسول الله رأيها ، ومضت إلى أم رومان وأبي بكر تحمل إليهما بشرى السعادة من الرغبة النبوية في هذه المصاهرة ، وكان أبو بكر من رسول الله بمنزلة أخيه ، وقد جرت عادة العرب على اعتبار هذه الأخوة كالأخوة النسبية ، فهي تحرم على الأخ أن يتزوج من ابنة أخيه ، ولهذا سأله أبو بكر : كيف يمكن تحقيق هذه المصاهرة مع قيام الأخوة حاجزا دونها ؟ ولما عادت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمها أن إخوان الإسلام لا يحرم مصاهرة ولا يوجب إرثاً ، فضت إلى أبي بكر وأخبرته الخبر ، فرضى مسروراً . « أسد الغابة جزء ٥ ص ٥٠٢ » .

وكانت قد خطبت إلى جبير بن مطعم ، قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .
« كما ذكر في طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٣٩ » .

تزوجت وهي في السادسة من عمرها لا في السابعة كما يقول البعض خطأ ،
ومن أحاديث عائشة نتبين أنها لم تكن تشعر بعقد قرانها ، فقد كانت تلعب
ذات يوم فجاءت إليها أمها وأخذتها قريباً من المكان الذي عقد لها فيه أبوها
على رسول الله ، على أنها حتى الآن لم تكن قد عرفت ، ولما منعت على إثر
ذلك من الخروج فهمت أنها أصبحت زوجاً ، ثم أعلمتها بعد ذلك بجمالية الأمر .
« طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٤٠ » .

ولابن سعد روايتان في تحديد المهر الذي قدّم لعائشة : إحداهما أنه أمهرها
بمنزل قيمته خمسون درهماً ، وهذا ليس بشيء ، والظاهر أن الصحيح ما دارت
به روايته الأخرى وتتابع عليه أقواله وتقديراته في باب مهر نساء النبي صلى
الله عليه وسلم وقد صح فيها أن مهر عائشة كان خمسمائة درهم . « طبقات ج ٨
ص ٤٣ » .

وقد وقع اختلاف في تحديد زمن هذا الزواج المبارك ، ومرجع هذا
الخلافاً إلى ما قبل الهجرة ، حيث لم يدوّن التاريخ ، وقد ذكر العلامة العيني
في شرح البخاري . أنه كان قبل الهجرة بسنتين ، وقيل : بثلاث ، أو سنة
ونصف « عمدة القاري ج ١ ص ٤٥ » .

ويعرف من بعض الروايات أن هذا الزواج حدث بعد وفاة خديجة بثلاث
سنوات . وفي الاستيعاب : وثق ابن عبد البر أن وفاة خديجة في رمضان ، كما

تقدم ، تلاه في نفس الشهر زواج سودة ، وبعد ذلك بنحو شهر عقد لعائشة .
في شوال من السنة العاشرة من البعثة . أي قبل الهجرة بثلاث سنين « استيعاب
في معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٧٦٥ » .

أقامت عائشة رضي الله عنها ، في كنف أبيها أربع سنوات بعد الزواج وقبل
البناء منها : ثلاث سنوات وثلاثة أشهر في مكة ، وسمع أو ثمان بعد الهجرة .
وقد اشتد أذى المشركين للمسلمين بمكة ، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
في أن يهاجروا إلى الحبشة ، فكانت الهجرة الأولى والثانية ، وقد لقوا من النجاشي
مرحمة وعدلا ، وأراد أبو بكر أن يهاجر كذلك ، حتى إذا غادر مكة ووصل
إلى برك الغماد رده عبد الله بن الدغنة في جواره على أن يعبد ربه ، ولما استعلن
أبو بكر بقراءة القرآن لم يطق الكفار صبرا وضاقوا بأبي بكر ذرعا ، وطلبوا إلى
ابن الدغنة أن يسترد جواره من أبي بكر ويترك الاستعلان بالقراءة ولما تكلم
ابن الدغنة مع أبي بكر في ذلك رد عليه الصديق جواره ، ورضى بجوار الله عز وجل ،
واعترم أبو بكر أن يهاجر إلى المدينة ، فأقنعه الرسول صلى الله عليه وسلم بالبقاء .
ويمكن القول بأن عائشة قد صحبت أباها عند ما اعترم الهجرة إلى الحبشة ووصلت
معه إلى برك الغماد على بعد خمسة أيام من مكة .

ولما أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة اشتركت عائشة مع أسماء
في تجهيز الراحلتين ، ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وتمت
هجرته أرسل أبارافع وزيد بن حارثة يستقدم أهله ، وأرسل أبو بكر غلامه معهما
بكتاب إلى عبد الله فقدم إلى المدينة مع عائشة وأم رومان ، فقدموا إلى المدينة

ورسول الله يبنى الحجرات حول المسجد ، وقد أقامت فاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة . في إحداها « طبقات ابن سعد ص ٤٣ » .

زفافها رضى الله عنها

ونزلت عائشة في كنف أبيها حيث كان يقيم في ديار بني حارث الخزرجي ولبثت مع أمها ثمانية شهور ، كما سبق ، ومرضت في هذه الأثناء حتى سقط شعر رأسها بأكمله . « ابن ماجه » .

ولما شفيت سأل أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل له : لم لاتدعو إليك أهلك ؟ فقال : ليس لدى الآن مهر ، فقدّم إليه أبو بكر المهر ، ثم بعث به إلى عائشة . « طبقات النساء ص ٤٣ » .

ثم أقبل نساء الأنصار ليقمن زفافها ، فبينما هي تلعب ذات يوم مع أترابها جاءت أمها وأخذت يميدها وغسلت وجهها وسارت بها وهي لا تعلم حتى رأت نفسها وسط هذا الجمع الحاشد من كرائم السيدات المؤمنات يرفعن إليها التهانى والبشرى قائلات : على الخير والبركة وعلى خير طائر ، ومضين بها إلى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تمّ هذا الزفاف المبارك السعيد ، زفاف نطالع فيه الحياة الهنيئة في بساطتها وأفراحها الهادئة البعيدة عن رياء التكاف وخداع المظاهر الكاذبة . وقد أبطل النبي الكريم به كثيراً من العادات المذمومة التي تعودها العرب ، فقد كان هذا الزواج في شوال ، قرأنا ثم زفافا ، وكانوا يتشاءمون من هذا الشهر ويتطيرون

به على أثر حدوث طاعون في بلاد العرب وفي جاهليتها ، وكان ذلك في شوال
فأصبحوا لا يعقدون فيه قرانا ولا يتيمينون بهلاله ، حتى أبطل ذلك الرسول
الكريم ، كما أبطل أيضا عادة إيقاد النار والسير بها أمام العروس إلى بيت
زوجها يصحبها زوجها في هودج واحد .

وهكذا يبقى زفاف عائشة في سموه وبساطته سمة خالدة لمن يدركون أن
البساطة هي مبعث لكل صفاء ، وأن الأفراح لا تدوم إلا إذا خلت من الخداع
والرياء .

والله اعلم بالصواب .

حكم التكرار في آيات القرآن الكريم

سؤال يجيب عنه رئيس ندوة العلماء بالهند

العلامة السيد سليمان الندوي

كنت أطلع في بعض الأيام تفسير النواب صديق حسن خان ، فعثرت على هذه العبارة : وقد نجمت في هذا الزمان فرقة تفسر القرآن برأيها وتحذف منه بعض الآيات المكررة ، هذه الفئة تسمى بالنيجرية (أى الطبيعية) فهل يوجد حقيقة في الهند تلك الطائفة التي تسول لها أنفسهم الإقدام على مثل هذا ؟ نعم يوجد من أعداء القرآن وخصوم الإسلام من وجهوا سيلا من الشبه على وجود هذا التكرار ، فقد يذكرون آدم وموسى وعيسى مئات المرات ، كما نلحس ذلك التكرار في سورتي : الرحمن والمرسلات .

وهذا اللون من الاعتراضات الآثمة الباطلة ، وقد سبقت الإجابة عنه عدة مرات ، وقام العلماء الأعلام بما يهدم شبه الملحدين ، ويبطل سخافات المضللين ، وقد ألف العلامة الكرماني المتوفى سنة ٧٨٦ هجرية رسالة خاصة في الجواب السديد عن هذه الشبهة ، وأبان فيها أن كل آية كررت في موضع إنما تشتمل على معنى جديد غير المعنى السابق ، فلكل آية معنى خاص في موضعها وموضوعها ، وبهذا لا يوجد في القرآن تكرار .

وفي مثنوى مولانا جلال الدين الرومي نلتقي إجابة طريفة بهذا الصدد ، سار

فيه على طريقة الاستدلال الشعري وهو مع ذلك لا يخلو من جمال فني بديع ، يقول ماملخصه : إننا في اليوم واللييلة نكرر طعامنا وشرابنا من ماء واحد وصنف واحد ، ونحن في ذلك لا نشكو سامة ولا ضجرا ، بل كلما أحسسنا الجوع والظما وزاد تشوقنا إلى نعمة الله التي تحمينا أقبلنا على الطعام والشراب ، ونظرنا إلى المائدة كأنها شيء ما عرفناه ولا سمعنا به ، فإذا كان هذا شأننا في الدنيا الفانية ، فكيف بالمؤمنين الصادقين إن في قلوبهم من الظما الروحي والشوق القلبي ، ما يجعلهم يستقبلون في كل آية نورا جديدا وفي كل لفظ غذاء هنيئا لمن أدرك ثمار العرفان ، وخالط لحمه ودمه جمال القرآن .

وإن الشريف مرتضى علم الهدى ، المتوفى سنة ٤٣٦ هـ في كتابه : « غرر الدرر » وكذلك المحدث شاه ولي الله الدهلوى في الفوز الكبير ، قد عقد كلاهما البحوث المفصلة الضافية ، والأجوبة المفيدة الشافية ، عن دحض أمثال هذه الشبهات ، ولكن كلام هؤلاء العلماء ينصب على نوع خاص من التكرار وينبغى قبل البحث أن نتعرف أقسام الآيات المتكررة ، لنسير في الإجابة على وجه يشفى الغليل .

فيمتدح الآيات القرآنية والتعمق في دراستها وتفهمها ، نجد أن التكرار يرجع إلى أمرين لا ثالث لهما ، وهما تكرار معنوى ، ولفظى .

والمراد بالأول تكرار المفهوم والمعنى الواحد بطرق مختلفة من غير إعادة الألفاظ بنفسها ، كقصص الأنبياء ، والأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

والمراد بالثاني إعادة المفهوم ، والمعنى مع إعادة الألفاظ بعينها ، كقوله تعالى

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) فى سورة الرحمن ، وهذا النوع هو الذى تتعلق به إجابة الشريف مرتضى . ولنتحدث عن الأول فنقول :

التكرار المعنوى يوجد فى مواقع مختلفة من الكتاب العزيز ، كالقصص التى لها تأثير بليغ فى النفس ، وكذا ما يتعلق بالفرائض التى هى أركان الإسلام ، والعقائد التى من أجلها بعث الرسول الأعظم كالتوحيد وصفات الله تعالى ويوم البعث والتذكير بآثار نعمته ، ومظاهر قدرته .

أما القصص فمنها ما تكرر ذكره كثيرا ، كذكر إبراهيم وموسى وآدم ، ومنها ما ذكر مرة واحدة أو مرتين كقصة ذى القرنين وأصحاب الكهف ويوسف وزكريا وداود وسليمان وطالوت وغيرهم .

والأنبياء الذين يتكرر ذكرهم فى القرآن كثيرا أربعة وهم : آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ، ونحن نسائل أنفسنا : لماذا وجد القصص فى القرآن ؟ ولم أعيدت قصص بعض الأنبياء عليهم السلام دون البعض الآخر بوجه خاص ؟ والأصل فى ذلك أن الفطرة الإنسانية مجبولة على التأثر بالوقائع والاعتبار ، بما يحدث فى الكون من أحداث وغير . لهذا وجد فى القرآن الكريم بل الكتب السماوية كلها ، قصص تتناول حياة الأمم وتبين مصيرها وتكشف لنا عما أنزل إليها من أنوار الوحي وأن نتيجة المخالفين كانت عذابا محتما وانتقاما حاسما ، وأن الأنبياء وأتباعهم هم الذين كتب لهم النصر والفوز فى الدنيا ، والأجر والثوبة فى العقبى . وتكرار أمثال هذه العبر يوقظ فى النفس شعورها وينبه الضمير الخامل ويقم الحجة مرارا على المعاندين ! فإذا لم تكرر هذه المواعظ لم يقع التنبية المذكور (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

والوجه الأمثل في هذا التكرار أن الدليل الواحد قد تثبت به دعاوى مختلفة كإأن القصة الواحدة يمكن أن يستنبط منها نتائج متعددة في مواقع متباينة، فقد كررت قصة موسى عليه الصلاة والسلام . وإنك لو أمعنت التدبر والتفكير وجدت أن القصة بذاتها إلتعاد للإشارة إلى نتيجة غير التي استنبطت من قبل، فهي أحيانا تذكر في صدد بيان قدرة الله وإظهارها، وأحيانا تذكر للإبانة عن نعم الله وإحسانه إلى قوم موسى، وأحيانا استدلت بها على هلاك القوم الطاغين، وتارة نتبين فيها شرور بني إسرائيل وكفرهم بما أنعم الله عليهم، وآونة توضيح الفرق بين نبي صادق ودعى كاذب، وفي بعض الأوقات توضح لنا كيف نصر الله تعالى كلمه وأحسن إليه وحفظه، وبعضها الآخر تكشف لنا عن غرور فرعون واستكباره ومكابرته في الحق بعد ما نبين . وكذلك يستدل بقصة آدم في مواطن متعددة من القرآن على مقدار إحسان الله على النوع البشرى وعلى ضعف النفس الأمارة، وكذلك على عظمة نوع الإنسان واستعداده بالفطرة لمسامة الملائكة الأبرار، ومن جهة أخرى على مذمة الغرور والاستكبار، وغير ذلك . وهكذا نستطيع أن نجد في كل قصة نتيجة جديدة، وعبرة مفيدة .

أما وقوع التكرار لقصاص الأنبياء الأربعة، فالجواب السديد عن ذلك أن المخاطبين بالقرآن الكريم ينقسمون أيضا إلى أقسام أربعة: الجنس البشرى بأكمله ومشركو العرب، واليهود، والنصارى، فأعيدت قصة آدم لتذكير النوع الإنساني بأبى البشر، وبما من الله تعالى عليه حين خلقه وسواه في أحسن تقويم وأقام نسله لعامة الأرض وعبادة خالقها، ولمشركى العرب أعيدت قصة إبراهيم

لأنهم كانوا على كل حال يعترفون بأبوتهم ، فلهذا كررت قصته لهم لإثارة مشاعرهم إلى التوحيد الذي دعا إليه الخليل . أما اليهود والنصارى فقد كررت لها قصة موسى وعيسى ليتذكروا ما أنزل عليهما من الأحكام ، والبشرى بظهور سيد الأنام .

وقد كان اليهود في المدينة وما حولها يكوّنون أكتية كبيرة وكانت لهم ألوان من التحدى والنضال مما دعا إلى إعادة قصة الكليم . ويليههم مشركو العرب ثم النصارى ، ولبيان هذا نقول : وردت قصة موسى في القرآن خمسا وثلاثين ومائة مرة ، وإبراهيم ستا وسبعين مرة ، وعيسى أربعا وعشرين .

أما العقائد والفرائض فقد أعاد القرآن ذكرها للتذكير بها وتنبيه القلوب إليها ، فليس كل الناس تقييده الموعظة الواحدة ، والنفوس تزداد تأثرا كلما دار على سمعها وبصرها أسماء العقائد والفرائض التي هي قواعد الإسلام وحدوده وفيها مصير الإنسان ونهايته . والأمور التي أعيد ذكرها في القرآن : هي الإيمان والصلاة والزكاة والتوحيد وصفات الله تعالى وتأكيده ومظاهر قدرته ومذمة الشرك وبيان أهوال القيامة والجزاء من ثواب وعقاب في الجنة والنار والتحذير من غرور الدنيا ، والدعوة إلى الأخلاق العالية والعمل الصالح .

وقد جاء ذكر التوحيد ومذمة الشرك والكفر أكثر من خمسين وثلاثمائة مرة . وجاء ذكر الإيمان ومتعلقاته ثلاثمائة مرة . كما ورد اسم الجنة في خمس وتسعين ومائة موضع ، وذكرت جهنم مائتي مرة على وجه التقريب ، وذكرت الصلاة وأحكامها أكثر من مائة مرة .

وقد قدم إلينا المحدث الشاه ولي الله الدهلوى فى الفوز الكبير بحوثاً قيمة فى أسباب هذا التكرار ، فمن ذلك أن موضوع الأوامر والعقائد فى القرآن الكريم على ضربين منها ما يتعلق بالأحوال الشخصية والتشريعية فى المعاملات والحدود ، فهذا يذكر مرة واحدة على وجه الخطاب المكلفين ، والبيان للأمة ، كالطلاق والظهار والإيلاء والعدة والتوريث والقصاص وحد السرقة والشهادة وغيرها . والثانى ما يتناول العقائد والقواعد الكلية فى الأوامر والأعمال الصالحات وما يترتب على الطاعة والمعصية من الجزاء ، فإن الله تعالى يذكر الإنسان بها ويحيط النفس البشرية بتكرارها لتغلغل العقائد الصحيحة فى أغوارها ، فهى تلك الأمور التى يمتاز بها الإسلام وتتجلى بها حقيقة المسلم فى جميع العصور والأجيال . فكان حريابها أن تتكرر فى صور مختلفة من الإعجاز وأساليب قوية من البيان .

وعلى سبيل المثال نقول : إننا لو تصفحنا شعر الحافظ الشيرازى^(١) علمنا أن موضوعه كله يتناول محبوا واحدا هو الذى أغرم به الشاعر وافتتن به . لكننا كلما قرأنا قصيدة أو بيتاً جديداً تجد فينا شعور من رقة الخيال، وسحر البيان، فى أساليب الشاعر وضروب افتتانه .

فكيف بنا إذا قرأنا القرآن ، الذى هو كلام خالقنا ، وخطاب موجدنا وبارينا ، أنزله على محمد هادينا ، فكل ما قرأنا منه آية ازدادنا من الإيمان ثروة ،

(١) هو أكبر شعراء الفرس المتصوفين ، يشبه عمر بن الفارض عند شعراء العربية .

ومن التذكير قوة ، وازدادت خواطرنا صفاء ، وأرواحنا إشراقا وضياء ،
لذلك أمرنا بتلاوته وتكراره صباحا ومساء .

وإذا كان المكرر يجمع في شيء فما أحلاه في القرآن ، لمن ذاق حلاوة
الإيمان .

التكرار اللفظي يقع في القرآن الكريم ، إما بإعادة آية ، أو بذكر كلمة
واحدة مرتين في آية . والتكرار يقع في جميع اللغات لتقوية المعنى ، وهو في
اللغة العربية ما يعبر عنه بالتوكيد اللفظي ، ولا يخلو كلامنا العادي في اليوم
والليلة من التوكيد ، فنقول : « انظر ، انظر » أو : « تعال ، تعال » ومنه
في القرآن : (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) ومثله كثير في الشعر العربي
كقول الخنساء :

أردت لنفسى بعض الأمور فأولى لنفسى ، أولى لها

وذكر الفراء لهذا القسم أمثلة كثيرة ، ننقل بعضها عن : « غرر الدرر »
قال الشاعر :

وكائن وكم عندي لهم من صنيعه أياذى ثنّوها علىّ وأوجبوا
وتأمل إلى التكرار في هذا المصراع : « كم نعمة كانت لكم كم كم وكم »
ويقول شاعر عربي آخر :

نعم الغراب يبين لبني^(١) ، غدوة
كم كم وكم لفراق لبني^١ تنفق

(١) اسم فتاة يتغزل فيها الشاعر .

فتبين من هذا أن التكرار التأكيدي يجرى في أسلوب العرب، ويعد من ضروب البلاغة . وقد جاء في القرآن آيات أعيدت في سورة واحدة ، منها قوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) كررت إحدى وعشرين مرة في سورة « الرحمن » وكذلك قوله تعالى (ويل يومئذ للكافرين) أعيدت إحدى عشرة مرة ، في سورة « المرسلات » وكذلك وقع هذا التكرار في سورة « القمر » .

والجواب على هذا يتناول نواحي مختلفة ، منها أن القرآن في كل موضع يجرى على أسلوب مختار ، وبلاغة فائقة تتناسب مع كل غاية ، وتوافق كل حالة فن ذلك مثلاً أنك إذا كفت والدا وقد أحسنت إلى ولدك ، ثم رأيت في أعماله مظاهر العقوق والجحود ، فإنك تقول له : ألم أحسن إليك بتربيتك وتعهدك ؟ ألم أحسن إليك بالثروة والمال ؟ ألم أحسن إليك بالتهذيب والتعليم ؟ ومن هذا النوع قوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ويقول مولانا « آزاد البلجرامى » : إن من بين الأشياء البليغة والقصائد الممتعة في اللغات المختلفة مفظومات تشتمل قوافيها على لفظ يسمى « الرديف » ويأتى هذا اللفظ مكرراً في سائر القصيدة . كما أن بيتاً واحداً أو مصراعاً يكرر في الخمسات ، ولم يكن ذلك معروفاً في اللغة العربية قبل القرآن^(١) ، إذ فالقرآن وحده هو الذى أضاف إلى اللسان العربى جمالا جديداً ، وأهدى إلى أسلوبها لونا

(١) يوجد كثيرا في اللغتين الفارسية والأوردية ولم يستفد منه شعراء العربية إلا أخيراً في الأناشيد والأغاني .

طريفا من الإبداع لم يكن معروفا - أعنى به تكرار بعض الآيات ، كقوله تعالى (فكيف كان عذابي ونذر) .

« نلاحظ في هذه الأيام أن الأناشيد الوطنية تكرر فيها بعض كلمات أو أبيات خاصة لترديدها عند الإنشاد » .

وأجاب « الشريف المرتضى » بما ملخصه : أن التكرار على سبيل التوكيد والتذكار ، هو أحد الأساليب العربية في الشعر ، والقرآن هو الجامع لتمام أصناف الكلام ، لذلك أجرى هذا النوع من التأكيد في بعض السور والآيات وتستطيع أن تلمس هذا اللون من البيان في شعر مهلهل بن ربيعة ، وهو شاعر جاهلي ، وقد أعاد مصرعا واحدا في مراثيه لكليب عشرين مرة منها :

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا خاف المغار من المغير

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا طرد اليتيم من الجزور

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا ما ضيم جيران المجير

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا رجف العصاة من الدبور

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا خرجت مخبأة الخدور

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا ما أعلنت نجوى الأمور

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا ضاقت رحيمات الصدور

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا ما خار جار المستجير

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا طالت مقاساة الأمور

ألا ان ليس عدلا من كليب إذا هبت رياح الزمهرير

ونقل الشريف كثيرا من الشواهد في قصائد مهلهل ، تركناها خوف الإطالة ، ولكي لا يظن القارئ أن هذا الشاعر هو المتفرد بهذا الأسلوب ، نقل إلينا الشريف كذلك قصيدة من شعر الحارث بن عباد يثرى بها ابنته ، وقد تكرر فيها المصراع الأول ، أربعا وأربعين مرة فمنها :

قربا مربط النعامة منى لفتح حرب وائل عن حيا
قربا مربط النعامة منى ليس دون اللقاء من اعتلال
وقد أجاب المهلهل عن هذه القصيدة بمثلهما ، وكرر المصراع الأول فيها أربعين مرة ، فمنها :

قربا مربط المشهر منى كل شقرا وأشقر ذى بال
قربا مربط المشهر منى فكلب أشاب منى قذالى
وكذلك صنعت ليلى الأخلية ، وكانت شاعرة معروفة في زمان معاوية فقد كررت في مراثية توبة على مثل هذا النحو :

لنعم الفتى ياتوب كنت إذا التقت صدور العوالى واستشال السوافل
ونعم الفتى ياتوب كنت ولم تكن لتسبق يوما كنت فيه تجادل
وقالت عمرة بنت النعمان في رثاء زوجها :

وحدثني أصحابه أن مالكا أقام ونادى صاحبه برحيل
وحدثني أصحابه أن مالكا ضروب بنفصل السيف غير نكول
وإذا كان أعداء الإسلام يأبون إلا تلمس الأوهام ليخلقوا منها أسئلة يستشكلون بها ، كتكرار القرآن ، فإننا نقول لهم : لا اللغة العربية وحدها

اختصت بهذا الأسلوب ، ولا القرآن وحده هو الذى كرر بعض الألفاظ ،
ففى الأسفار الدينية جميعها يمكن العثور على الكثير من الألفاظ المكررة والجل
المعادة . ويكفى تصفح هذه الأسفار ، ليعلم أين يكثر التكرار .

بقيت كلمة واحدة إلى أولئك الذين يستشكلون بقوله تعالى : (فبأى آلاء
ربكما تكذبان .) فيسألون عن حكمة إعادتها إلى جانب آيات تتعلق بالعذاب
والعقاب . اقرأ قوله تعالى : (يرسل عليكم شواظ من نار) إلى آخره يعنون
بذلك أن وصف جهنم والجرمين ليس متعلق بالنعاء ، ولا موضع ذكرى الآلاء .
وأجاب جمهور المفسرين بأن ذكر جهنم وعذابها يشتمل على نعمة عظيمة ، وهى
العظة والاعتبار ، بما يقع من عقوبة الأشرار .

والجواب السديد عندنا هو أن هذه الآيات فيها نعمة كبرى ، وآلاء عظمى ،
فإن كثيرين من مجرمى النوع البشرى ، كثيرا ما تردهم هذه الآيات إلى نور الحق ،
وتردعهم عن سبيل الغواية ، فإذا سمعوا شيئا عن جهنم ووبالها والجحيم وأنكالها ،
أقلعوا عن الإجرام ، وتابوا عن الآثام .

ويمكن أن يحاب أيضا أن ذكر هذه الآية إلى جانب ذكر العذاب ، لم يكن
مقصودا به أن تكون مناسبة لكل آية ، ولكنه لما بدى بها فى أول السورة
جرت على وتيرة واحدة ، وأسلوب مطرد ، فى جميعها ، ومثل ذلك قول مهمل
ابن ربيعة :

قربا	مربط	المشهر	منى	ليت شعرى وذاك أنعم حال
قربا	مربط	المشهر	منى	من يكون الغداة رهن العوالى

فإنك لا تجد مناسبة بين المصراع الأول والثاني ، ولا بين الثالث والرابع وإنما جرت القصيدة على هذا الاطراد ، كما أسلفنا ، دون نظر إلى مراعاة كل مناسبة في كل بيت .

قال بعضهم : لو تأملنا آيات القرآن وتدبرنا ، لم نجد تكرارا ولا إعادة ، بل نجد في كل آية معنى جديدا وإفادة . والقرآن بحر خضم لا تدرك جواهره ، وكثر عظيم لا تنتهي مفاخره . وإنما ألمنا بيسير من كثير .

مقام المرأة في الإسلام

لرئيس ندوة علماء الهند - السيد سليمان الندوي

إن الكاتب الجليل قد نشر بضع مقالات عن المرأة المسلمة ، تحت عنوان :
« نساء الإسلام » . قال حفظه الله :

إن الثقافة الغربية قد واجهت العالم بسيل غامر ، من أحاديث أبطالها رجالا ونساء ، ونحن إذ نتحدث عن الفضليات من نساء المسلمين قديما وحديثا نجد أنفسنا في جو قد امتلأ بأسماء الغربيات ، ففي مدارسنا الإسلامية تجري على السنة الأستاذة والطلاب أسماء فتيات كان لهن في الحروب والوقائع مواقف وجهود ، كتبت لهن الرفعة والخلود ، فيذكرون اسم جان دارك ، أو يتحدثون عن بعض أولئك المتطوعات من أسبانيا في حرب نابليون . ولدينا في تاريخ الإسلام ذكريات حافلة بنجوم مشرقة من أولئك الخيرات المستبسلات اللواتي وقفن حياتهن لإعلاء كلمة الإسلام ورفع رايته ، وناضلن إلى جانب الرجل في الحدود التي تسمح بها أنظمة الدين وتقاليد الآداب . ونحن ذاكرون لك بعض هؤلاء المجاهدات من خواتين الإسلام من العرب والترك والهند بقدر ما يتسع له المجال .

إن تاريخ قوميتنا الإسلامية مملوء بالعشرات بل بالمئات من الوقائع الكبرى ومن الأسماء المجيدة الخالدة التي تحي في قلوبنا العزة والفخر ، ولكن آذاننا - واحسرتاه - قد أصيبت بصمم عن هذا التاريخ ، لأن أسماء أخرى قد تكدست

بها أفكارنا وعقولنا فأصبحنا لا نسمع طنيننا ولا دويها ولا نصغى إلى صوت إلا إذا أقبل ذلك كله من ناحية الغرب . جرت عادة العرب قبل الإسلام أن كان الأبطال من الرجال يتقدمون إلى المعارك ومن خلف صفوفهم النساء والأطفال . ولقد كان لأولئك المجاهدات يد عاملة في كسب المعركة ، فهن يواسين المرضى ويسعفن الجرحى ويتعهذن الخيول والأسلحة ويراقبن الأسرى ويحافظن على كل أمتعة الجيش ويلقن الأراجيز والقصائد التي توقد نار الغيرة والحمية في قلوب الأبطال ويذكرونهم بأسلافهم الماضين الذين عادوا من حروبهم منتصرين .

لست في هذا القول متجنياً على التاريخ ولا مختلفاً تلك المفاخر والمناقب العليا التي مثلتها رسالة المرأة العربية ، فإن كنت في ريب مما أقول ، فإنى أحملك على عمرو بن كلثوم الشاعر صاحب المعلقة يسمعك بنفسه ضدى هذه الحقيقة .

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهدا إذا لاقوا كتائب معلمينا

لكي يسلبن أفراسا ويبيضا وأمرى في الجبال مقرنينا

ظمائن من بنى جشم بن بكر خلطن عيسم حسبا ودينا

يقتن جياتنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

وبقى هذا الأسلوب من الجهاد في الإسلام ، فكان للنساء نصيبهن من أعباء المسؤولية التي يقوم بها الرجل في الغزوات ، ففي إحدى المواقع كانت أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها تسقى الجرحى من جنود المسلمين بالقرية ، ومع ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره أن يحمل الأزواج نساءهم إلى الموقعة

في غير حاجة . وقد سألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما معناه أن الرجال ينالون الأجر ويفوزون بالدرجات العالية عند الله لجهادهم في سبيل الله ، فقال : جهاد المرأة الحج .

ويروى لنا أبو نعيم صاحب الحلية أن جيش المسلمين لما توجه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة خيبر خرج من المدينة خلف الجيش ست نساء ، فلما علم بأمرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب لذلك ، فقلن له يا رسول الله قد خرجنا ومعنا الدواء ، لنسعف الجرحى ونخرج من أجسامهم السهام ونعد للجيش الطعام ، فأذن لهن صلى الله عليه وسلم . ولما انقضت غزوة خيبر وكتب فيها النصر والفلاح للمسلمين جعل النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النساء قسما في الغنيمة وأسهم لهن فيها مع الغزاة من الرجال . « انتهى بالمعنى » .

ويروى لنا الطبري في إحدى المواقع أن الرجال كانوا يخرجون قتلاهم إلى مكان خلف الصفوف ، وكانوا يعمدون بالجرحى إلى النساء ليقوموا بتجهيز الشهداء . وفي حرب الأغواث والأرماث من سلسلة حروب القادسية كانت النساء ومعهن الأطفال يقمن بالتجهيز وحفر المقابر للشهداء . « راجع الجزء السادس صفحة ٢٣١٧ طبع أوربا » .

وفي فتح القادسية أيضا تقول بعض النساء اللاتي شهدن الحرب : لقد كنا نشمر عن سواعدنا ونمضي خلف الصفوف وإلى الأطراف ، وبأيدينا العصي فمن وجدناه من الجرحى حملناه .

ويتبين مما رواه البخاري أن عمر بن الخطاب وهو المعروف بشدته على النساء

لم يضمن بفرض العطاء لأُم سليط الصحابية لأنها أبلت بلاء حسنا مع المسلمين في غزوة أحد ، عند ما تكاثر الرماة على المسلمين وأحدقوا بهم فكانت تضمد الجرحى وتسقيهم الماء من قربة كانت معها .

ومما سبق يتجلى ما كان للمرأة المسلمة من صدق اليقين ، وكمال الغيرة على الدين ، وحرصها على أن لا تحرم من شرف الجهاد مع المسلمين لتنال فخر المجاهدين وأجر الصابرين . ويعلم مما سبق أيضا أن نصيبهن المشروع من الجهاد كان ينحصر تقريبا في هذه الأمور .

١ - سقى الجرحى وإطفاء ظمئهم في المعركة الحامية .

٢ - تنظيم الأطعمة للجنود .

٣ - حفر القبور للشهداء .

٤ - نقل المصابين من بين الصفوف ، كيلا يحدث بقاؤهم على هذه الحالة إضعافا للروح المعنوية ، أو إخلالا بأنظمة الصفوف .

٥ - إمداد المصابين بوسائل الإسعاف الممكنة .

٦ - إمداد الجند وإثارة النخوة والغيرة ، وبعث روح الهمة والاستبسال إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وإذا تتبعنا سجل الجهاد في القرن الأول الهجري صحيفة صحيفة وجدت المرأة المسلمة تؤدي فريضتها كاملة خلف صفوف الرجال ، في حومة النضال ، ولكن القارىء قد يستولى عليه العجب إذا علم أن ربات الحجال من الجنس اللطيف ، قد أُنِيج لهن أن يقاتلن أيضا كما يقاتل الرجل في بعض الضرورات

الحازبة فينتصرون كما ينتصر الرجل ، وأتيح لليد الناعمة أن تضرب بشجاعة الإيمان رأس الكفر فتريده صريعاً .

في غزوة الخندق تجمع أحزاب المشركين وغيرهم ، وعسكرت قبائلهم قرب المدينة وشغل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون بأمر الخندق ، ثم خان بنو قريظة في معاهدتهم فأحدثوا بذلك ثغرة داخلية في قوة الإسلام إذ ذاك . وهنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً . وكان بنو قريظة يؤذون المسلمين من الخلف ويساعدون الأحزاب .

وفي مكان بالمدينة كان النساء بمزل عن الجيش ولم يكن لديهن من الجنود من يمنعهن غائلة اليهود من بنى قريظة ، وفي تلك الأثناء أقبل يهودى فاطلع على مكانهن ، ورأته صفية أم الزبير بن العوام وعمة رسول الله ، فطلبت إلى حسان أن يقتل ذلك اليهودى ، خشية أن يطلع بنى قريظة على عورات المسلمين ولكن حسان اعتذر وتخلف عن الإقدام فتقدمت صفية رضى الله عنها وحملت عموداً من بعض الخيام وضربت به رأس اليهودى فسقط على الثرى قتيلاً . وهنا يقول المؤرخ ابن الأثير الجزرى ماموذاً : أن صفية هى التى ضربت المثل الرفيع فى البطولة الأولى للمرأة المسلمة . وفى أسد الغابة أن أم سليم والدة أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهدت المغازى كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كان جهاد المرأة المسلمة فى خدمة الإسلام واضحاً قوياً ، منذ فجر الدعوة . والتاريخ يحفظ لنا اسم تلك الصحابية المؤمنة الوفية أم عمارة ، فقد

اشتركت مع المسلمين في بيعة العقبة . ولما توجه رسول الله في السنة السادسة إلى الحج عام الحديبية وأرسل عثمان رضى الله عنه إلى مكة ، ثم شاع بعد ذلك نبأ قتل عثمان أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة من أصحابه على قتال المشركين ، وكانت تسمى هذه بيعة الرضوان ، وقد اشتركت فيها أم عمار ، كما أنها شاركت زوجها زيد بن عاصم في غزوة أحد .

وفي خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنه ظهرت فتنة مسيئة الكذاب ، فوجه إليه جيشا باليمامة استشهد فيه كثيرون من المسلمين ثم قتل الكذاب اللعين ، وفي تلك الموقعة كانت أم عمار مع الجيش ، وقد حاربت بنفسها حتى جرح يدها ، وأصيبت في هذه الموقعة اثنتى عشرة إصابة .

وفي عهد أمير المؤمنين ، عمر القاروق ، رضى الله عنه ، كان لابد للإسلام لكي يرفع علمه ويثبت قدمه من مواجهة أعظم قوتين تسيطران على ذلك العصر في الشرق ، وهما الفرس والروم ، وأعظم موقعة هدمت بنيان الدولة الرومانية إذذاك كانت موقعة اليرموك ، كما أن القوة العظيمة التي لم يكن العرش الكياني في الدولة الفارسية يستطيع أن يعد أكثر منها تتمثل في ذلك الجيش الكبير الذى ظهر عند فتح القادسية .

هاتان المعركتان تتمثل فيهما البطولة العظمى والجهاد المجيد ، الذى مهد الطريق بعد ذلك لانتشار الإسلام بين ربوع الشرق والغرب فيما بعد . ولا نستطيع أن ننسى أن نجاح الإسلام في هاتين الموقعتين كان يرجع الفضل في كثير من نواحيه

إلى نساء الإسلام وكلماتهن النارية فقد التقى المسلمون بالفرس عند القادسية سنة ١٤ هجرية في المحرم وكان الجيش الفارسي في نحو مائة ألف أو يزيدون ، ولم يكن جيش المسلمين يزيد على الثلاثين ألفا ، جرح كثيرون منهم ، فكان النساء ومعهن الأطفال يقمن بحفر قبور الشهداء ويرفعن الجرحى من الصفوف ، ليقدمن لهم ما يستطعن من العلاج والإسعاف .

أما إيقاد الروح المعنوية وإمدادها بنار قدسية من الإيمان الصادق فحدث عن ذلك ، فما يستطيع تاريخ في العالم أن يحدثنا عن بلاغة نسوبة كتلك الكلمات الخالدة التي تروى لنا عن امرأة نخعية تقول لأولادها :

« إنكم أسلمتم فلم تبدلوا ، وهاجرتم فلم تهربوا ، ولم تنب ، بكم البلاد ، ولم تقحمكم السنة ، ثم جئتم بأمسكم عجوزا كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس ، والله إنكم بنور رجل واحد ، كما أنكم بنوا امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالككم ، انطلقوا واشهدوا أول القتال وآخره » (انظر طبري جزء ٦ ص ٢٣٠٧)

وقدمضى أولادها بعد وصيتها لهم ، وأقبلوا على الميدان ، شجعانا مستبسلين . فلما اخفقوا عن نظرها توجهت إلى الله داعية لهم بالسلامة والنصر . وبعد أن انتهت المعركة بفوز المسلمين ، عاد أولئك الأبناء سالمين مظفرين ، وألقوا بين يديها الغنائم والأسلاب .

وليس في الناس من يجهل الخنساء التي كانت مضرب المثل في شعر الدموع والرناء رفع الإسلام نفسها ، وأثار قلبها ، ودفع بها الإيمان إلى حرب القادسية

اشتركت بأبنائها الأربعة، وقبل أن ينزلوا ساحة الوغى جمعهم وزودتهم بنار من الإيمان ونور من اليقين، في تلك الكلمات الخالدة:

« يا بني إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره إنكم بنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ماخنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين، من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، بقول الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا لعلكم تفلحون). فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطربت، فتميموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة » (أسد الغابة)

ولما كان الصباح احتدم وطيس الحرب، فقدم أبناؤها الأربعة واشتدوا على عدوهم غير مباينين بالموت حتى قضوا نحبهم جميعا. ولما بلغ خبر استشهادهم إلى الخنساء لم تجزع بل قالت: الحمد لله الذي شرفني بهم. وقد فرض لها عمر رضى الله عنه من بيت المال ما كانت تحصل عليه من أبنائها، أي ثمانمائة دينار. وبعد واقعة الجسر التي اشتد فيها ضغط الفرس على المسلمين حدثت معركة عنيفة تسمى « حرب البويب » وهي التي كانت مقدمة لحرب القادسية، وفيها فاز المسلمون بنصر مبين، ونالوا من الفرس غنائم وفيرة لا تحصى. وإذا ذاك كان نساء المسلمين، قد ضربت لهن الخيام بعيدا عن الموقعة.

ولما كان أمر تدبير الطعام والمؤونة قد وكل إليهن ، فقد أرسل المثنى قائد الجيش ما وقع له من الغنائم الوفيرة إلى خيام النساء في حراسة بعض الجنود . ولما رأى النساء سواد القافلة عن بعد خيل إليهن أن القادمين إنما هم فرقة من الأعداء جاءوا للإغارة عليهن ولم يكن معهن في ذلك الوقت سلاح يدفعن به هجوم المغيرين ، فلم يقفن عاجزات مستسلمات - بل ألقين بأطفالهن وفلذات أكبادهن وأقبلن على أعمدة الخيام وأوتادها يقتلعنها ليمتخذن منها أسلحة يقمن بها في وجوه الأعداء . ولما رآهن كبير القافلة على مثل هذه الحال صاح صيحة الإعجاب والتمجيد لبطولة جيش الإسلام تلك البطولة التي غمرت الرجال والنساء والكبار والصغار . ثم بشرهن بنصر المسلمين وأدى إليهن الغنائم .

وفي حرب ميسان ظهرت للنساء بطولة عجيبة وذلك أن المسلمين التقوا بأعدائهم من أهل ميسان قريبا من نهر دجلة بقيادة المغيرة ، وكان هذا القائد قد ترك جموع النساء في مكان يبعد عن الميدان ، ولما اشتبك الفريقان واستحضر القتال ، نظرت بنت الحارث فوجدت أن العدو يكاد يحيط بالمسلمين فأشارت على صواحباتها أن من الخير التقدم إلى الجهاد وتقوية ظهور المسلمين ، ثم أخذت منديلها فصنعت منه علما واقتردى بها النساء وسار جميعهن إلى الميدان تحت الأعلام المرفرفة فلما نظر الأعداء إليهن من بعيد ظنوا أن جيش المسلمين أرسل إليه المدد من القوة والعتاد والرجال فأدركهم الرعب واستولى عليهم الهلع والاضطراب فانكسرت شوكتهم وتزعزعت روحهم المعنوية ، فولوا مدبرين ، وفروا من المسلمين . وكان الفضل في ذلك الفوز للفرقة التي ألقها بنت الحارث .

في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفي غرة العام الثالث عشر من الهجرة غزا المسلمون دمشق وحاصروها بعد عدة معارك طاحنة ، واشتد الأمر على من كان فيها . وبينما المسلمون يحاصرون المدينة بلغهم أن تسعين ألفا من جنود الروم عسكروا في أجنادين بعمداتهم الحربية القوية ، وكان جنود المسلمين إذ ذاك قد انتشروا في مختلف التخوم والأطراف من بلاد الشام ، وكان خالد ابن الوليد رضي الله عنه قد انضم إلى أبي عبيدة بعد قدومه من العراق فأجعا أمرهما على لمّ شعث الجيش الإسلامي المنتشر بين الأصقاع والمدن وقرروا أن يتوجهوا بالجيش لمحاربة الأعداء في أجنادين ، وأخذ الجيش الإسلامي ينصرف عن دمشق يتقدمه خالد ، وسار أبو عبيدة خلف الجيش بما معه من عدة وعتاد يصحبه النساء والأطفال .

ولما رأي أهل دمشق انصراف المسلمين عنهم رأوا أن الفرصة قد أتتحت لهم ليثأروا وينتقموا منهم ، ثم فتحو باب المدينة ووثبوا عليهم . وكان قيصر الروم قد أرسل بالمدد إلى دمشق فوصل جنوده في نفس ذلك الوقت وبدأوا يمترضون طريق المسلمين ، وكان طباعيا أن يجد المسلمون أنفسهم في حصار ضيق بين نارين مستعرتين من الخلف والأمام وفي حالة يضطرب معها الإحساس ويتبلبل الشعور وتضيع الثقة ، ولكنهم على العكس من ذلك قويت فيهم روح الإيمان والثبات ففاضلوا العدو من الجهتين نضال الشجعان الأبطال المؤمنين بنصر الله وتأيمده ، ولكن همهم الأعظم كان موجهها إلى المحاربين من الجهة الأمامية فافترض الدمشقيون هذه النهضة للهجوم على المسلمين من وراءهم

وأحاطوا بمن معهم من النساء محاولين سبهن وسوقهن إلى دمشق ، فنظر بعض النساء إلى بعض وأخذت خولة رضى الله عنها تصيح في جموع النساء بما معناه : هل تقبلن يا معشر المؤمنات أن تقعن في حبائل مشركى دمشق أسارى ؟ وهل فيمكن من تقبل أن تدمغ بوصمة العار والشنار مجد العرب وبطولة المسلمين ، إن الموت لأجدر بنا من حياة الذلة والهوان !

فعلت هذه الكلمات النارية فعلها ، فتشجع أولئك الفضليات واستشعرت قلوبهن روح اليقين والثبات فوقفن في صفوف منتظمة وأخذن يقتلن أعمدة الخيام ليتخذن منها أسلحة ودروعا يدفعن بها جيش المشركين . وكان في مقدمتهن خولة ثم عفيرة بنت عفار ، فأم أبان بنت عقبة ، وسلمة بنت نعيان ابن مقرن وغيرهن .

وفي مدة وجيزة استطاعت أولئك الخفريات المستبسلات أن يدفعن أمامهن رجال المشركين ويسقطن منهم ثلاثين محاربا يتخبطون في دمائهم . وقد حاول المشركون أن يعاودوا الكرة عليهن فاستبسل المسلمات ودفعنهم إلى الوراء منهزمين مدحورين . ثم أقبل المدد من جيش المسلمين بعد فراغهم من المعركة ، فألحقوا بالبقية الباقية من المشركين هزيمة منكرة ، ثم ثنى جيش الإسلام عنانه موليا وجهه شطر أجنادين لإبادة جيوش الروم المجمعة هنالك .

وقد نقل المؤرخ أودارد جيبين في تاريخه هذه الواقعة في شيء من التفصيل وتناول بالحمد والثناء تلك العفة والعصمة والبطولة والشجاعة التي تجلت في سجاياء المسلمات الفضليات . ثم قال : لقد كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديرا

بالإجلال والتقدير . كانت المسلمات ماهرات في ضرب السيف واستعمال الرماح ورمى السهام ، واستطعن بتلك الخلال العالية أن يحافظن على عفافهن في ظرف دقيق وموقف حرج .

ولقد كانت موقعة اليرموك تعد أولى الحروب المنظمة بالنسبة للمسلمين ، فقد اشتمل جيشهم فيها على أربعين ألفا من صفوة الشجعان المنتخبين ، وكان جيش الروم يربو على مائة ألف ، وكان هذا الطوفان العظيم من الخلائق في جيش الروم مزهوا بكثرتة ، وظن أولئك الجنود أن سيسحقون المسلمين عن بكرة أبيهم بضربة واحدة ، وكان عددهم يجاوز أربعة أضعاف الجيش الإسلامي وتقدموا بهذا الغرور وأقاموا من خلفهم استحکامات تمنعهم من الفرار على مثل ما فعل طارق بن زياد فيما بعد . ثم أقبلوا بعد ذلك في هجوم عنيف وأغاروا بعددهم الزاخر حتى دفعوا بميمنة المسلمين وألحقوهم بخيام النساء ، وكان في ميسرة جيش المسلمين عدد كبير من قبيلتي لخم وجذام ، فهاجمهم جيش أكروم ودفع بهم إلى قرب خيام النساء أيضا وأخذوا يتقهقرون بغير انتظام ، أمام حکامهم القدماء ، فثارت الغيرة والحمية على أشدهما في قلوب أولئك النساء وبرزن من خيامهن ليقتلعن أعمدتها ويحملن ما استطعن حمله من السلاح ، ثم أقبلن على العدو فأنزلن به هزيمة نكراء ، وأخذ أولئك الذين كانوا يندفعون كالسيل الجارف يرتدون مولين الأدبار . ثم عاد أولئك الفضليات إلى رجال المسلمين يشعلن في قلوبهم نيران الغيرة والحمية ، فعاد الجيش الإسلامي إلى نظامه وأزاح من أمامه ذلك الطوفان من جيش الأعداء .

وكان نساء قریش كذلك يتقدمن بذلك الإيمان الصادق حتى دفعن الأعداء من أمامهن وتقدمن صفوف الرجال في تلك الموقعة . وقد تقدمت جوهرية أخت معاوية بفرقة من النساء ، وأخذت تناضل حتى جرحت . وما زالت صيحات أم معاوية هند بنت عتبة تتردد بكلمات الشجاعة في مسمع أجيال التاريخ ! وما أعظم تلك الحمية التي تجلت في خولة بنت درار ، وهي تنشد الأشعار ، وتدفع بالأبطال إلى خوض الغمار . وهي تقول :

يا هاربا عن نسوة تقيات رميت بالسهم والمنيات

وقد نوه الطبرى في تاريخه بفضل أم حكيم بنت حارث . وذكر ابن الأثير الجزرى أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم . كما حدثنا ابن عمر الواقدى عن أولئك الأعلام من الفضليات اللاتي أبلين في هذه الحرب خير بلاء ، فمنهن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما وزوج عبادة ابن الصامت من رواة الحديث وخولة بنت ثعلبة وكعوب بنت مالك وسلمى بنت هاشم وعفيرة بنت عفارة رضى الله عنهن .

مضى المسلمون بعد حرب « اليرموك » يتعقبون جيش الروم ، وأقاموا قريبا من دمشق ، وهنالك تزوج خالد بن سعيد من أم حكيم بنت الحارث ، وأقام ولية فاخرة للمسلمين ، وضرب قبة لأم حكيم على مقربة من جسر لا يزال يسمى باسمها حتى الآن . وبينما كان المسلمون في شغل بالولية وأطعمتها أقبل نذير جيش الروم فرفعوا أيديهم من صحاف الطعام ، إلى امتشاق الحسام . ثم

وثبوا على الروم وثبة الأسود الغضاب، وأسكنوا في صدورهم الأسنة والحراب،
حتى مزقوهم أشتاتاً بين الربا والمهضاب .

أما « أم حكيم » فلم تنس نصيبها من البطولة والشجاعة ، فنسيت زينة
العرس وحلة الزفاف، وأقدمت لارتداء حلة الشرف والاستبسال ونسيت أنوثتها
وقاتلت بمزيمة الرجال فأبادت من جيش الروم سبعة من المحاربين وربما قتلت
أكثر من ذلك . وليست العبرة بالقتل ولا بالمقتولين ، وإنما العبرة بالإيمان
والعزم واليقين .

ولو سلمنا برواية الواقدي عن فتوحات الشام للزمنا أن نذكر للمرأة أكثر
مما نذكر عن الرجل في كثير من تلك الفتوحات . وقد حدثت موقعة الجمل
وكانت عائشة الصديقة رضى الله عنها أحد ركني النضال فيها ، وكلنا نسلم بأنه
قد وقع خطأ اجتهدى في هذه الموقعة . والمجتهد يثاب على خطئه ، ولكننا نرى
في هذه الحادثة كيف يسمو مركز المرأة المسلمة ويعلو شأنها في الاستقلال ،
وتحمل مسئولية النضال .

ولعلك تذكر فيما أسلفنا أسماء أم حكيم وهند وأم كثير وأسماء وأم أبان
وأم عمار وخولة ولبنى وعفيرة، فقد تحدث عنهن الواقدي في فتوحات الشام ،
ومن رواياته يتبين أن أولئك الفضليات قد أبلين بلاء المؤمن الصادق وساهمن
مع الرجال ، في إدارة رحى القتال ، بما خلد أسماءهن في صحائف الأجيال .

وقد كان عتبة بن غزوان أميراً على بعض الجيوش من قبل عمر رضى الله
عنه ، فلما التقى بأهل مدينة الفرات كانت زوجته أزدة بنت الحارث طيب العرب

تقوم بدورها في تشجيع الناس وإذكاء نار الحمية والغيرة في قلوبهم مما كان له عظيم الأثر في اكتساب النصر والظفر.

وعندما استشهد أبان بن سعيد أثناء الحملة على دمشق بيد حاكمها «توما» كان وقع نبأ قتله أليما في قلب زوجته أم أبان بنت عتبة فهاجها مقتله وخرجت بكل سلاح أمكنها ومضت تطلب الثأر من القاتل الآثم لزوجها المقتول . وقد صابرت الأعداء مدة ، وكانو محاصرين داخل المدينة إلا أنهم كانوا يواجهون المسلمين من بعض الأبراج ، فلمحت أم أبان بعض فرق الجيش متجمعين في برج منها ، وأمامهم الكاهن يحمل صليبا ذهبيا كبيرا ويدعو أربابه الثلاثة للنجدة والإنقاذ ، وكانت أم أبان ذات براعة فائقة في تسديد الرماية ، فوجهت ضربة قاصمة وسهما نافذا إلى حامل ذلك الصليب . فمالبت الناس أن أخذتهم الدهشة واستولى عليهم العجب حينما رأوا ذلك الصليب الذهبي يهوى على الأرض بجانب القلعة محطما قد تناثر إلى قطع وجذاذات .

وقد هال الجيش المحاصر ما صنعت هذه المرأة بذلك الشيء المقدس في نظرهم وقد هوى على الأرض في ذل وهوان ، وهو موضع الشفاعة والقربان ، فثارت فيهم النعرة الصليبية ونسوا التضيق والحصار ، وثار قائدهم «توما» ففتح باب القلعة وانساب جيش الروم كأنه سيل يجتاح السد والجسور . وقد أخذ المسلمون شيء من الرعب أول الأمر لما رأوا من اندفاع القوم بلا تؤدة ولا روية ، وكانوا يحاولون أن يستردوا صليبهم الذهبي بأي ثمن ، وكلما اقترب منه جندي وقفت له

« أم أبان » بالمرصاد ترشقه بالسهم النافذ في صميم الفؤاد فترديه إلى الأرض صريعا ، إلا أن « توما » قائد القوم لم يجد في نفسه صبرا على ترك الصليب في أيدي المسلمين ، فتقدم في جرأة لا تعرف الهوادة فأدركته « أم أبان » بسهم نفذ إلى عينه فذهل عن الدنيا وعن الجيش والصليب وعن نفسه أيضا ، وأخذ يدور في الميدان يبحث عن الموت أو يبحث الموت عنه . وقالت « أم أبان » في ذلك رجزا :

« أم أبان » فاطلي بشارك صولى عليهم صولة المدارك

قد ضج جمع القوم من نبالك

وفي حروب اليرموك كان أشد أيامها يوم التعوير ، وفيه اشتد الأمر على المسلمين وكادوا يولون الأدبار لولا أن وقف النساء يرددن جيوش الروم بمافهن من إيمان وغيره حولت أنوثتهن الفاعمة إلى بطولة خشنة تستهين بالموت وتفرح بالاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله . وكانت أسماء بنت أبي بكر إلى جانب زوجها الزبير رضى الله عنها تقاتل جنبا إلى جنب على جوادها .

وقد روت لنا مصادر التاريخ في حرب صفين مواقف عظيمة للمرأة ، وحوار الزرقاء مع معاوية بعد قتل على كرم الله وجهه يدل على مقدار مساهمة المرأة في الحرب إن لم يكن بالسلاح فبالتهريض الذى هو أَمْضى من الأسلحة وأنفذ من الرماح . وقد وقفت الزرقاء وأم الخير وغيرهما من النساء تحرضن الرجال بالخطب

المثيرة والكلمات القوية المؤثرة مما لا يزال كثير منه محفوظا في كتب الأدب والتاريخ .

وفي خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٠ هجرية هجم جيش المسلمين على بخارى ، وكان قتيبة بن مسلم قد تولى قيادة الجيش ، وكانت قبيلة أزد مضرب المثل في الشجاعة والاستبسال بين قبائل العرب ، وكان لرجالها في الفتوحات الإسلامية أحسن الأثر أيضا . فلما رأوا طوفان الجيش التركي مقبلا من بخارى ، استأذن رجال تلك القبيلة قتيبة ليتقدموا في الطليعة فأذن لهم والتحموا بأراك بخارى ، ولكنهم وجدوا أمامهم أقدماء ثابتة لا تنزل ، فخمى الوطيس واستحرق القتال إلى أن هزم أولئك الأزديون وارتدوا إلى مراكز الجيش وتعاظم الأمر قتيبة ومن معه ، وكاد عسكري المسلمين يولون فرارا في غير انتظام ، فثار النساء من كل مكان وتصايحن بالجنود وأخذن يضربن الخيول ويرددن الفرسان إلى الميدان فعادوا ووثبوا وثبة كسبت لهم النصر والفوز المبين .

إن النساء المسلمات لم يحملن في هذه الحرب أسلحة ولا دروعا ، ولكن جهادهن لم يكن أقل من السيوف مضاء ، فإلهن يرجع الفضل في كسب تلك المعركة بعد الهزيمة فيها .

إن تعاليم المدنية الغربية تنقل إلينا تاريخ أبطال الغرب من رجال ونساء . وقد أصبحت أدمغة الشباب سجيلا لأسماء النابغين والنايفات من الغرب ومحيت من الذاكرة أسماء رجال الشرق ونسائه على السواء . لقد غدا لفظ « جان درك » ومثيلاتها الشغل الشاغل لكل من يريد أن يتحدث عن البطولة

أو يتناول صحائف تاريخ المجد . وقد سمعت أيها القارىء كيف وصل السمو الخلقى والدينى بالمرأة المسلمة إلى الحد الذى سجلت به اسمها على جبين الدهر ، وساهمت فى أعظم الانتصارات الإسلامية الباهرة . ولن يستطيع كتاب الغرب ولا أذنانهم فى الشرق أن يأتوا بأسماء ولا بحوادث ترفع مقام المرأة فى العالم مثل تلك الحوادث الجليلة والأسماء النبيلة (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

لا يخفى ما قام به الخوارج فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين وبعدهم من الأعمال الإرهابية العنيفة التى عرضت أعناقهم للسيوف وأوردتهم موارد الختوف ولكن شجاعتهم واستبسالهم كان لهما أثر بالغ فى بقاء جماعتهم طوال الأجيال المتعاقبة ، ولا تزال لهم بقية باقية حتى الآن فى بعض الأقطار الإسلامية .

نذكر هذا بمناسبة ما كان يبدو من بعض نساءهم فضلا عن رجالهم من ضروب المقاومة والشدة فى الخاصة . ونحن فى صدد الكلام عن مقام المرأة فى الإسلام ، لا يسعنا أن نهمل المواقف المشرفة للمسلمة كيفما كانت الفحلة والمذهب الذى تنتمى إليه ، فهى مسلمة على كل حال .

فى سنة ٧٧ هجرية كان الحجاج واليًّا على العراق من قبل الخليفة عبد الملك وفى تلك الأثناء قام شبيب الخارجى فى الموصل بثورة ضد الخلافة واشتركت فى هذه الحرب زوجته غزالة وأمه جهيزة ، فأرسل الحجاج حملة قوية للقضاء على هذه الفتنة ، وأرسل خمسة قواد كان نصيبهم جميعاً القتل دون أن يظفروا بطائل ، وأخيراً أرسل عبد الملك جيشاً عظيماً من جنود الشام قاده الحجاج بنفسه . وفر

شبيب من الموصل إلى الكوفة ، ولكن الحجاج كان قد سبقه إليها ووصل إلى قصر الإمارة وجاءت غزالة الأنفة الذكر لتوفى نذراً سابقاً كان عليها وهو أن تصلي ركعتين بمسجد الكوفة ، فأقبلت في صحبة زوجها يحيط بهم سبعون من أنصارهم ووقف شبيب خارج المسجد مجرداً سيفه ، وأقامت صلاتها فأدت ركعتين قرأت في أولاهما بعد الفاتحة سورة البقرة ، كما قرأت آل عمران في الثانية وهي مثال للاطمئنان ، يملأ قلبها السكينة والخشوع في الركوع والسجود ، وفي القيام والقعود . تفعل ذلك على مرأى ومسمع من جنود الشام وهم يملأون الكوفة ومسجدها وينظرون إلى تلك المصلية نظرة يملؤها العجب والإعجاب ممعاً بتلك النفس التي لا تبالى بأن تجاهر بمعتقدها بين الحراب المسنونة والسيوف المصلطة بأيدي عشرات الألوف من جيش الشام والعراق .

خرج الحجاج لتلك الحرب مجهزاً بأقوى عتاد من البصرة والكوفة والشام وقام خلف الصفوف بنفسه يحرص تلك الجموع الزاخرة واعداء ومتوعداً . وكان جيش الخوارج هزيلة ضئيلاً إلا أنه ثبت أمام الكثرة الساحقة من رجال الحجاج ولكنه مهما بذل وحاول فقد كانت الهزيمة أمراً لا مناص منه . وكانت غزالة وجهيزة تشتركان في الحرب وتساهمان فيها بشجاعة منقطعة النظير ، إلى أن أرسل الحجاج بعض رجاله سرا خلف الصفوف لقتل غزالة ، أما شبيب فقد فر إلى الأهواز - تاركا خلفه عدداً كثيراً من القتلى .

وهنا يقول ابن خلكان : إن جهيزة أيضاً قضت نحبها في هذه الحرب ،

بيد أن الطبرى وابن الأثير يذكران أن شبيبا قد سقط به فرسه في دجلة عند ما كان يجتاز جسر النهر ، وكان إذ ذاك في دروعه وأسلحته فلم يملك سبيلا إلى النجاة . ولما قيل لأمه : إن شبيبا قد مات قالت : أما بيد الأعداء فلا . ثم قيل لها : إنه قد غرق قالت : ذلك ممكن .

ويروى كذلك أن غزالة قد بارزت الحجاج فلم يثبت أمامها بل رجع القهقري ولاذ بالفرار . هذا الحجاج الذى كانت ترتعد فراس العراق وتهتز جوانب الجزيرة تحت أقدامه رهبة وخشية ، استطاعت تلك المرأة الجريئة أن تزلزل طغيان هذا الجبار وترده خائفا مذعورا . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

أسد علىّ وفي الحروب نعمة فتخاء تصفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

وفي سنة ١٣٩ هـ في عهد خلافة المنصور اعتدى قيصر الروم على مدينة « ملطية » فخر بها . فوجه المنصور لتأديب ذلك القيصر والانتقام من عدوانه جيشا عظيما على رأسه صالح بن على وعباس بن محمد . واستطاع ذلك الجيش الظافر أن يعيد إلى المدينة عمرانها وازدهارها وواصل المسلمون زحفهم حتى استولوا على مقاطعات أخرى واقتربوا من القسطنطينية .

ومما هو جدير بالتخليد أن أم عيسى بنت على ولبابة بنت على أختا صالح وخالتا المنصور ، ومعهن عدد من فضليات النساء شهدن هذه المواقع وسعدن بالاشتراك في تحقيق تلك الانتصارات الباهرة . وكان شهودهن لهذا الغزو وفاء متهن فقد سبق لهن في خلافة بنى أمية أن عقدن لله ندرا أن يجاهدن في سبيل

الله إذا زال الحكم الأموى من الخلافة الإسلامية .

وفى سنة ١٧٨ هـ حدثت فى خلافة الرشيد فتنة من الخوارج وكان على رأس القائمين بها وليد بن طريف ، فاستولى هو وجماعته على الخابور ونصيبين . ثم وجه الخليفة لإخماد تلك الفتنة جيشا بقيادة يزيد الشيبانى وكان من المشهود لهم بالبراعة الحربية والإقدام الفائق فحارب الخوارج وهزمهم بعد بضعة معارك وقتل رئيسهم الوليد . ولما سمعت فارعة أخته بمصرع أخيها ثارت ثائرتها وخرجت من خدرها وجردت من أنوثتها بطلا شجاعا يتقدم إلى الميدان ولا يبالي بالموت . وهكذا لبست الدروع وتقلدت السيف وتقدمت للقتال ، فبرز لها يزيد نفسه ولما رآها طعن بالرمح فرسها ثم وجه إليها شيئا من العتاب لإقدامها على موقف ينال من سمعة أهلها وكرامة قومها ، فعاتت من الميدان مخضبة بدموع الحسرة والألم لا يردّها عن حومة الوعى جبن ولا خوف ، ولولا ما كان يلحقها من سوء السمعة فى تهورها وجراتها على ما ليس من شأن النساء لما ردها عن الميدان سوى الأجل المحتوم . وقد تركت لنا من ذكريات ألمها هذه الأبيات :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسليوف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا فدينناك من فتياننا بألوف
عليه سلام الله وقفا فإننى أرى الموت وقعا بكل شريف
وقد بلغت هذه المراثية مقاما عاليا من الشهرة والذيع فقد نقلها أبو على
القالى فى أماليه ، بينما نرى ابن خلف كان يعدها فى مصاف مراثى الخنساء ، ويقدمها

علماء البديع كمثل حسن في باب تجاهل العارف من قسم المحسنات المعنوية للـكلام .

وقد ذكرت أخت الوليد باسم فارعة على ما سبق ، وقد عرفها ابن الأثير باسم ليلي ، وابن خلدون يقص الواقعة دون أن يذكر اسمها ، وربما عرفت في بعض المواضع باسم فاطمة ، ولكن المهم على كل حال هو الأعمال ، لا الأسماء والأقوال .

وفي القرون الوسطى عند ما اشتعلت نار الحرب الصليبية على أشدها كان من بين أمراء الجيوش قائد يسمى « أسامة » وكان في صحبته والدته وأخته ، وقد ساهمت كلتاهما في الحرب متقلدة السلاح ناسية الحلى الجميلة بالدروع الرهيبة حتى سجلنا للمرأة المسلمة نصيبها من الانتصار ، ومكانتها من ذروة الفخار .

وفي أزمدة هذه الحروب الصليبية كانت الأمهات يرضعن أطفالهن أفوايق الشجاعة ولبان التضحية ويعلمنهم حب الإسلام قبل أن يشبوا عن الأطواق .

ولما أحرز الصليبيون بعض الانتصارات واستولوا على عكة أصبح الاختلاط بين الفريقين المتحاربين أمرا عاديا . فحاول الصليبيون أن يقوموا بامتحان الذرية الناشئة واختبار الجيل القادم فأقاموا حربا شكلية بين أطفال المسلمين وأبنائهم ، وفي تلك الحرب كانت دروس الأمومة قد آتت أكلها وأنضجت ثمارها في أبناء المسلمين فغلبوا أعداءهم الصغار وأخذوهم في ذل الإسار ، وكتبوا للإسلام في هذا الدور من اللعب مثالا جميلا من الفوز والانتصار .

إلى هنا ينتهي حديث عالم الهند السيد سليمان الندي عن المرأة المسلمة في

البلاد العربية ، ثم يبدأ فيحدثنا عن المرأة المسلمة في غير هذه البلاد ، فإذا بنا نرى الإسلام عظيما قويا قد ارتفع بنفس المرأة وسما بمكانتها وأضاء جوانب روحها وملاها بالنبل والمروءة والإقدام ، وإذا بنا نرى المسلمة هي المسلمة في ديار العروبة وفي غير ديارهم .

حدثنا العالم الجليل الندوى عن مقام المرأة المسلمة ، فأورد لنا شواهد وأمثالا صادقة للمرأة التي غمر قلبها الإيمان وأشرق على نفسها نور تعاليم القرآن ، فشاركت أخاها أو زوجها أو أبناءها في ميدان الوغى رافعة معه راية التوحيد ، عاملة وإياه على تطهير الأرض من الوثنية والشرك . وإذا كانت المرأة تحت سماء البلاد العربية قد أشرق عليها ذلك النور الإلهي فأضاء جوانب روحها وشمل بالسعادة أقطار حياتها ، فإن الإسلام كذلك لم تكده أشعته القدسية تنبثق إلى غير الديار العربية حتى كان للمرأة نصيبها من ذلك الفيض المحمدي الذي أحال بني الإنسانية وبناتها في ضوء هذا الإيمان إلى ملائكة ينشرون الرحمة أو أبطال يرفعون علم الحق ويصيحون بدعوته العالية ليهدموا دعائم الشرك حيما كان حتى لا يعرف الناس لهم ربا سوى الله باري الأكوان .

ونحن الآن بصدد الحديث عن المرأة المسلمة في باب الشجاعة والإقدام . لهذا نقدم من غير سيدات العرب أسماء أخرى لفضليات كان لهن في ميدان البطولة قدم راسخة ومواقف جليمة . وإذا كان الناس قد علموا عن أبطال الترك المسلمين من الرجال سيرا عاليا وآثارا خالدة باقية . فلقد كان للمرأة التركية مقام مشهود في حومة النضال وثبات مجيد في مواقف الاستبسال .

كان في الهند من الدول التركية ملوك يرجع إليهم كبير الفضل في تعميم معارف الإسلام وتشجيع بقاء التوحيد رغم الجبهة الساحقة من الهنادك الذين يدينون بمختلف الأديان . ومن بين أولئك الملوك ملكة بلغت من الشجاعة أوجها ومن البطولة سماءها ، كانت تسمى : « رضية سلطانة » وكان والدها السلطان « ألتمش » قد ذهب يوما إلى صيد الأسود من الأدغال الشاسعة في صحارى الهند واصطحب في رحلته نساء الأسرة في خدورهن ، جريا على عادة الأمراء . وفيما هو ينازل أسدا هصورا وثب عليه ذلك الأسد وكاد يمزقه بأظفاره . فهاهى إلا كرة الطرف حتى أقبلت ابنته « رضية » وعاجلت الأسد بضربة قاصمة بسيفها البتار ، تركته على الثرى بين أظفار الموت الذى يقلّم أظفار الأسود . ذلك هو الإيمان بقدر الله وتلك هى الثقة بأن لكل نفس أجلا ولكل أجل كتاب .

نعم ، بتلك الثقة وذلك الإيمان استطاعت فتاة الجنس الرشيق أن تهجم على الأسد بقوة لا تعرف الخوف ولا التردد . وقد تربعت على عرش أبيها أمدا قصيرا من الزمن ، فظن خصومها من أمثال نظام الملك ووزير السلطنة وغيرها أنها لن تستطيع الاحتفاظ بهذا الملك الباهر ، فجمعوا الجموع وحشدوا الأجناد في « دهلى » لمحاربتها واستطاعت هى بقوة نفوذها وسعة حياتها أن تردهم على الأعقاب وأن تشرّد جموعهم بين المناطق والشعاب . وقد ذكرها ابن « بطوطة » الذى زار الهند في عهد الملك « محمد تغلق » وبين أنها لم تتخذ زينتها من حلى الجواهر الغاليات ، بل من الأسلحة والدروع السابغات .

ومن الأمثلة الباهرة أيضا في ميدان بطولة المرأة ما بذلته جارية من الجوارى من الشجاعة والتضحية في حصار حصن كبير من حصون الهند . وذلك أن جنكينز خان هجم بجيش التتار حتى تغلب على ملوك خوارزم وخلافة بغداد وقبض على ناصية إيران وروسيا وغيرها من الدول العظمى . ولم يستطع أن يقف في وجهه سوى الملك (علاء الدين) في الهند . ولما رأى ذلك الملك أنه قد أصبح في الرفعة المنيعة والعزة القعساء أمام طوفان جنكينز خان الذي كان يجري سيولا من الدماء في ممالك الشرق سوى الهند .

جلس علاء الدين في كبرياء الاسكندر ، وقال أمام أمراء الهند : لا يستطيع ملك ولا أمير بعد اليوم أن يخرج عن طاعتي . فقال له الأمير كالانير مجيبا : إنني أمين حصن جالور ، وهذا الحصن لا يدين لك بالطاعة ففطر إليه الملك علاء الدين نظرة غاضبة وتركه ثلاثة أيام في ضيافته ، ثم أذن له في أن ينصرف إلى قلعته ليزيدها تحصينا ومناعة ، وأمهله ثلاثة أشهر أيضا ليترك له فرصة الاعتماد وإقامة الاستحكامات . ثم وجه إليه علاء الدين جيشا وعلى رأسه جاريته (جل بهشت) - كلمة فارسية معناها زهرة الجنة - ثم مضت الجارية معتصمة بإيمانها وثقتها بنصر الله على ذلك (الراجا) الهندوكي العنيد .

ولم تمض أيام حتى وقعت قلعت (جالور) في حصار كاد يدعن معه أميرها للتسليم . ولكن القدر وافاها بعد مرض عنيف وإذ ذاك انقلب الحمل الضعيف أسدا هصورا ، وبرز من حصنه لمن كان معها من رجالها ققاتلوه إلى أن تم النصر بعد ذلك للمسلمين على يد أحد القواد .

والعبرة في هذه الحادثة أن أمة من إماء المسلمين استطاعت في يوم ما أن تقهر أميراً عنيداً كان يعتصم بحصنه ضد علاء الدين ملك الهند كلها . واستطاعت امرأة بل نصف امرأة أن تفل شوكته وأن تقوض منعمته .

إن الإيمان الصادق يرفع النفس البشرية من حضيض الضعف والاستكانة ويسمو بالطبيعة إلى ما هو فوق جهدا في الحياة ! فالمرأة الضعيفة التي ليس لها قوة ولا حول إذا أضاءت بأنوار الإيمان مشاعرها استطاعت أن تقوم بالمعجزات وأن تحقق أسمى الغايات .

هذا هو الإسلام الصادق ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

لمحات مترجمة

١ - مبادئ :

كن صادقا إذا شئت أن يثق الناس بك . وكن نقي الضمير إذا أردت أن تصدر أفعالك نقية طاهرة . كن قوى الإيمان إذا شئت أن لاتنهار أمام الشدائد . كن شجاعا إذا أردت أن تنهزم أمامك الكوارث والخطوب . كن صديقا لمن لا صديق له ، إذا أردت أن يحبك من لا يعرفك . انس الهدية التي تقدمها إذا شئت أن ينسى العالم أخطاءك وإساءتك .

كن متواضعا ، إذا شئت أن يحترمك الناس . كن قوة رافعة لإخوانك لتتال الرفعة بين الجميع .

كن في آلامك صابرا كتوما لقصص آلامك وإلا فر العشرات من مسجعتك ومنظرك . اطبع على شفتيك ابتسامة الرضى ، وليكن محياك مشرقا بالأمل فإن السحاب يفر أمام إشراق الضياء .

٢ - الأخوة :

الأخوة كلمة سحرية، وألفاظ حروفها من اللؤلؤ ، ومعانيها من كنوز الله . الأخوة تبنى المدينة وتشيد المملكة وتحفظ الأمة . الأخوة في الدنيا أغلى من الدنيا وفي الحياة أئمن من الحياة الدنيا تفنى وفضل الأخوة يبقى . الحياة تزول ، وبناء

الأخوة لا يحول . إن هذا العالم يملئ والأخوة تجدد ، وأعمالها تخلده . ولكن الإخاء لا يدوم إلا حين يغذيه الإحسان ، وتنميه صنائع المعروف .

لا تظن أن العطف على الصداقة يتحقق بمجرد كلمات تتحرك بها الشفاه ثم تذهب مع الهباء . كلا: إن الصداقة نار القلب المصحوبة بالندى، وإيمان الروح المشرق بالهدى .

إنها الرابطة الوثيقة بين أولئك الذين يعملون في ضوءها المتكامل الذي يسعد به الجميع . إنها الأيدي القوية التي تعمل متعاونة . إنها بسمات الشفقة والرحمة والحنان إنها المودة الصادقة التي تمحو ضباب الأحزان .

يا ضياء الإنسانية والإخاء ، طارد بقوتك ظلام البغضاء ، حتى تزول عن أنفسنا الشكوك والوساوس عسى أن تشاهد الأهم مرة أخرى وجه السعادة — التي اخفت خلف مطامع المتحاربين .

المؤاخاة في الإسلام

قصيدة عامرة كتبها العالم الكبير « دل محمد » عميد الكلية الإسلامية سابقا بلاهور في الباكستان .

ومن هذا يتبين للقراء الكرام كيف يستمسك شعراء الباكستان بعروة الدين ، والتغنى بما أثره ، وهم في بلاد لا يتكلمون فيها باللغة العربية . ولا أظن أن ترجمة مثل هذا الشعر مستطاعة لمن يعرف اللغة « الأردنية » وحدها ، فلابد من معرفة السيرة النبوية ، والاطلاع بكتب السنة المختلفه دون الاكتفاء بمجرد الألفاظ واللغات . ونكتفي بهذه العجالة لنعود إلى الشعر ، قال :

غرس الأخوة أصله من يثرب	هي جنة المأوى وغارسها النبي
إن ضلت الدنيا أعاد صوابها	نور المدينة لا شعاع الكوكب
فترابها تبر الغنى ونسيمها	ري المنى ، وشفاء كل معذب
بعث النبي بها الجماعة موكباً	فاذا الملائك في صفوف الموكب
وسقى الأخوة كوثرأ من نوره	فالظامئ الحيران من لم يشرب

والسابقون الأولون لحبه	قد خلفوا الأوطان والأوطارا
لم يذكروا مالا ولا ولدا ولا	زوجا ولا أهلا ولا أصهارا
تركوا جوار الظالمين - فبدلوا	بالأهل أهلا والديار ديارا

يا فوز أحرار العقائد عندما أهدي الإله إليهم الأبرار
فاذا الجميع مهاجرون لجنة وترى الجميع لدينه أنصارا

هذا هو الهادي الكريم وصحبه قمر منير والنجوم جنود
كأس من الوحي الطهور روية قد طاب منها للقلوب ورود
أضحوا فراسا حول مشكاة الهدى والصبح من آياتها مشهود
الصدق والإيمان نور قلوبهم والاتحاد يقيمه التوحيد !
لم يعرف الفلك المدار كوكباً كجواهرهم والنيرات شهود

تجواب الدنيا بعهد أخوة هي للحياة سعادة وخلود
فليسعد المحروم ، وليستبشر المظلوم ، والمحزون والمكدود !
وعماراة الأكوان بعد خرابها قد حان فيها للعلا تشييد
بل عاد في أبناء آدم بعده في أرضهم فردوسه المفقود !
بهدي الإخاء نعم وليس بغيره أمل ، ولا عمل ، ولا تجديد

قال النبي لقد بنيت إخوانكم ووصيتي : أن تحفظوا بنياني !
فاذا تفرقتم تبدد عقدكم كتفرق الحصباء في الميدان
في الخلق أوفى البعث كونوا واحدا كالنفس واحدة بكل مكان
نار العداوة من عذاب جنهم وحي التآخي جنة الرضوان

هو ناثر الأموال في حقل السلا م وناثر الأرواح في الميدان

جعلوا الإخاء قرابة موصولة من دونها أمسى القريب بعيدا
فاعجب لمن يعطيك آخر قوته مستخفيا ، كي لا يهين الجودا !
ويعوت ظمأنا ليروى ظامنا وينال من حوض النعيم ورودا
إن المحبة يوم تغرس حبة تدع الفضاء حداثقا وورودا !
وترى كنوز العالمين كلاهما لك في ازدياد ، إن أردت مزيدا

يتبادلون دماءهم وقلوبهم لو كان هذا البذل في الإمكان
وإخاؤهم عمل وليس لغيرهم إلا أخوة منطق ولسان
فإذا سمعت من الحجاز مناديا فجوابه : لمبيك « في جرجان »
وإذا استجار الحق في « عموريا » وثبت أسود الله من بغداد !
بلغ الإخاء بهم أعز مكانة ملـكوا بها في الأرض كل مكان

DATE DUE

JAFET LIB.
25 JAN 1978

J. LIB.

10 APR 1978

891.558:I64YaA:c.1

الاعظمي، محمد حسن

فلسفة اقبال والثقافة الاسلامية في الهند

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01036623

c.1

891.558:I64YaA

الاعظمي

فلسفة اقبال والثقافة الاسلامية

891.558

I64YaA

c.1

181.07

I649Y2A

C.1.